طلٌّ وشَرَر

رغيد النَحّاس

رَغيد النَحّاس

طلٌّ وشَرَر

الكتاب: طلّ وشرر
المؤلّف والناشر: رغيد النحّاس، سيدني، أستراليا
الغلاف: رغيد النحّاس
التصوير: رغيد النحّاس (عدا ما نوّه عنه خلال النص)
الطبعة الأولى 2013
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه وتداوله إلكترونيّاً، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من المؤلّف الناشر.

Published by Raghid Nahhas,
PO Box 242, Cherrybrook, NSW 2126, Australia.
E-Mail: raghid@ozemail.com.au

Cover & Photography: Raghid Nahhas (except where indicated otherwise)

Facilitated & Printed by Publicious (publicious.com.au)

© All rights reserved.
Apart from any fair dealing for the purposes of private study, research, criticism or review, as permitted under The Copyright Act, no part of this book may be reproduced or stored by any means, electronic or mechanical, without the written permission of the author/publisher.

National Library of Australia Cataloguing-in-Publication:
Author: Nahhas, Raghid.
Title: Tallon wa sharar = (dew & sparks) / Raghid Nahhas.
ISBN: 978-0-9756872-3-9 (paperback)
Subjects: Short stories, Arabic. Arabic prose literature.
Dewey Number: 892.7301

First Edition 2013

إلى عمّتي درّية

التي كانت

تقصّ عليّ قصص الأنبياء

أتقدّم بخالص شكري ومودّتي لشقيقتي رغداء النحّاس-الزين لمراجعتها ومقترحاتها القيّمة لموادّ هذا الكتاب، وهي التي تسرع لتخصيص الوقت للإجابة عن أسئلتي، على الرّغم من انشغالها الكبير في التدريس الجامعيّ، والتحضير لرسالة دكتوراه، وطبعاً الاهتمام بشؤون أسرتها.

كما أشكر الأستاذ الدكتور أحمد شبول، من جامعة سيدني، لتكرّمه بقراءة هذا العمل والتعليق عليه.

بَين َالنَّدى والنَّار

تضمّ هذه المجموعة عيّنات من كتاباتي في فترات زمنيّة متباينة، تتناول موضوعات مختلفة، انتقاديّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، وعاطفيّة، وتصويريّة، وشخصيّة، وإنسانيّة، ويغلب على كلّ موضوع أنّه حمّال لتلك الجوانب سويّاً مهما تفاوتت نسبها. أعلم أنّه من غير المألوف أنْ يضمّ كتاب واحد هذا الخليط، لكنّني أحبّ دائماً أنْ أتناول الوضع الإنسانيّ في شموليّته، لأنّني واثق من تلازم هذه الجوانب ضمن الكلّ الواحد. وهذا أحد الأسباب التي جعلت هذه المجموعة تضمّ النصّ والقصّة والمقالة.

بعض هذه المواضيع يتناول قصصاً واقعيّة تماماً، وبعضها من نسج الخيال، لكنْ حتّى هذا الأخير مستنبط من واقع تجربتي الإنسانيّة، ويستند إلى معطيات واقعيّة، سواء من حيث الشخصيّات، أم الأحداث، أم الأماكن، ويهدف إلى عرض فكرة، أو تصوير واقع عامّ. وقد تبدو مقالاتي التحليليّة "سياسيّة" من عناوينها، لكنْ ما يهمّني فيها إسقاطاتها الإنسانيّة والاجتماعيّة، ولولا ذلك ما همّني كتابتها. السياسة عمليّة نمارسها في كلّ مجالات الحياة، بما في ذلك الحبّ، ولا عيب فيها سوى إساءات بعض السياسيّين المحترفين. ليس لديّ مشكلة إذا ما اعتبر القارئ أنّ كتابتي أشبه بالسيرة الذاتيّة، لكنّني أراها مقتطفات موجزة من ملامح "سيرتي الفكريّة".

تيسّر لي ولزملائي في المدرسة الابتدائيّة زميل في صفّ مشترك، كان يكبرنا ببضع سنوات، وسيم طويل القامة، عُيّن "عريفاً"، أي أنّه كان يضبط الصفّ في غياب المعلّمين، وحين يصادف غياب معلّم لحصّة كاملة، يبهرنا بحكاياه التي كان يحفظ

بعضها ويرتجل بعضها الآخر، عن علاء الدين وفانوسه السحريّ، والسندباد البحريّ والبريّ، وغيرها. لازلت أذكره بإعجاب، خصوصاً بقدرته الفائقة على مواصلة الكلام، منتقلاً من مشهد إلى آخر، بلا كلل أو ملل. وشجّعته رغبتي الشديدة في "التلقّي" على أنْ تنشأ بيننا صداقة، جعلتنا نمضي معظم فترات الاستراحة بين الفصول نتمشّى في فناء المدرسة، وهو يسرد عليّ ما تيسّر من قريحته.

كنت في الثانية عشرة من عمري حين أتممت قراءة معظم روايات نجيب محفوظ، وعدد كبير من الترجمات لكتّاب فرنسيّين وروس وإسبانيّين. وكبرتُ وكبرت معي تجربة القراءة التي أخذتني إلى عوالم شاسعة الأبعاد، سحيقة الأعماق، لكنّني ما انبهرت بالكمّ، وظلّت النوعيّة هي التي تشدّني. لذلك لم يكن لي كاتب "مفضّل"، بل نصّ مفضّل.

أحبّ أنْ أكتب بالصور ما استطعت إلى ذلك سبيلاً! ولعلّي مدين بذلك لعمّتي دريّة (وبعدها محفوظ) التي كانت منذ طفولتي تستغلّ أيّ وقت شاغر، فتتلو عليّ آيات من القرآن، تتبعها بتفصيل قصصيّ مدهش حول مريم ويوسف وآل عمران وإبراهيم، وما تيسّر لها من غيرهم من رموز التراث الإنسانيّ.

سبق نشر معظم هذه النصوص أصلاً في عدد من المجلّات والصحف، مثل الآداب والنهار والسفير (بيروت)، والعرفان (صيدا)، والسنونو (حمص)، ونشرات أخرى في سيدني، مثل التلغراف، والنهار، والأنوار، والمنبر، وكلمات، وتكرّر نشر بعضها، بما في ذلك على بعض المواقع الإلكترونيّة. أشكر جميع المحرّرين لإتاحة هذه الفرص لي.

أستهلُّ المجموعة بنصّ أقدّمه إلى رفيقة العمر، نجاة، الدمشقيّة الأصيلة، التي يتجسّد فيها تراث المدينة، التي ولدنا فيها، بكلّ بهائه، كما أختم الكتاب بنصّ كتبته لها ونحن في بداية الطريق. وها نحن بعد مرور السنين لازلنا ننعم بهذه العلاقة التي حقّقت آمالنا. أمّا علاقتي بدمشق فلا بدّ أنْ يكون لها كتاب آخر،

مع العلم أنّ بعض النصوص مسبوكة في قالب دمشقيّ، وبعضها يتناول تجارب شخصيّة تتعلق بمؤسّسات رسميّة. وجدير بالذكر أنّه حين نشرت "مفارقات بوليسيّة" هنا في سيدني عام 1993، ثارت ثائرة حماة النظام الذين اعتبروها مسيئة بحقّه. ذهب أحدهم إلى محرّر النشرة يعاتبه على نشرها، على الرّغم من أنّها تجربة حقيقيّة سردتها كما حدثت تماماً، محبّة منّي في التوعية التي تشدّ أزر الوطن، لكنّ ثقافة النفاق التي تطغى على واقعنا العربيّ، تمنع كثيرين من الاعتراف بالواقع الفاسد، وبأنّ الولاء للوطن أهمّ من الولاء للسلطة، وأنّ غيرهم من المواطنين قد يختلف معهم في الرأي، فهم بذلك يسيئون إلى أنفسهم وإلى النظام، وبالنتيجة إلى الوطن، وكلّنا يرى الآن عقبى الاستبداد والهروب من المسؤوليّة. المؤامرات موجودة دائماً، ولا يستهان بها، لكنّها ما كانت لتنجح لولا ضعف المستهدفين منها. الضعف الفكريّ والأخلاقيّ أسوأ أنواع الضعف. كان حريّاً بمن هاجر إلى أستراليا، وبقي على عقيدته الحزبيّة (المستوردة من وطنه الأصل) أنْ لا ينقل معه سلبيّات التسلّط، بل يستفيد من تجربته الجديدة في أستراليا ليسهم في تطوير عقليّة مؤسّسته، وهذا يعادل أهميّة دعم الوطن الأصل بالمال والمشاريع الاقتصاديّة، بل يزيد.

كتبتُ معظم النصوص التي تتناول لبنان بين 1970 – 1975، إبّان وجودي في الجامعة الأميركيّة في بيروت. كنت مثل دمشقيّين آخرين مغرماً ببيروت. وإنْ كانت دمشق الأمّ أو الزوجة بالنسبة إلينا، فلربّما كانت بيروت العشيقة، بما كانت تتمتّع به من حرّيّة وثقافة وجمال. هذا لا يعني أنّها كانت تمتاز عن دمشق بذلك، بل أنّ جاذبيّة بيروت كانت في سهولة التعاطي معها، وقدرتها على مبادلة الحبّ الصريح. ولذلك ترى أنّ حديثي عن أيّ امرأة في تلك المواضيع، هو حديث عن بيروت، حتّى النساء اللواتي أحببت فعلاً، ما كان لهذا الحبّ أنْ يكون بمعزل عن بيروت؛ القلب الذي كان ينبض بين ضلوعي.

يُجمع الناس على أنّ الحياة مزيج من الحلو والمرّ، وحتّى لو كان المرء في أفضل حالاته، فحين تكون لديه ذرّة من المشاعر، لا بدّ أنْ يشعر بالأسى لما يسمعه عن بؤس الآخرين. وفي هذا تعزيز جديد لمنطق التكامل الذي أتحدّث عنه. لذلك أُحسّ أنّ في كلّ موضوع من المواضيع التي أعرضها هنا جوانب مضيئة، وأخرى مظلمة، في الوقت نفسه.

وأنا أجمع هذا الكتاب رافلاً بأثواب البهجة والرخاء في منزلنا في سيدني، أتابع أخبار التهافت العربيّ، وأحسّ بانهيار أعمدة تاريخيّة كانت شامخة في يوم من الأيّام، ولا زال بعض الغرب يكيل بمكيالين، فيطلب من رئيس مستبدّ ترك السلطة، بينما يغضّ النظر عن آخرين أشدّ طغياناً.

أستحضر في ذهني الانقلاب الذي دبّرته الاستخبارات الأميركيّة، عام 1953، ضدّ "مصدّق"، رئيس الوزراء الإيرانيّ المنتخب ديمقراطيّاً، الرجل الوطنيّ الشريف الذي أبى أنْ يبيع بلاده لشركة البترول البريطانيّة، وكيف انتقلت المنطقة نتيجة لذلك إلى مركز للاستبداد والتطرّف الدينيّ. استخدَمَت تلك المخابرات عصابات من المرتزقة التي نشرت الفوضى والقتل في الشوارع، لإظهار أنّ مصدّق عاجز عن حكم البلاد، وأنّ الشعب مستاء منه ولا يريد بقاءه.

أداعبُ ورود الحديقة التي بلّلها الندى النقيّ، وأسمع دويّ الصواعق في بلاد الشام.

طلٌّ وشرر!

رغيد النحّاس

سيدني، أستراليا، كانون الأوّل/ديسمبر 2012

المحتويات

بين النَّدى والنَّار (مقدّمة)	7
سَيِّدَةُ البُحَيْرَة	15
فيه فايدة يا صفيّة!	17
مصر... أمّي!	23
اغتيال بوتو: العالم ساحة واحدة	26
رئيس الوزراء الأستراليّ بين حبّ أميركا والوطن	30
الانتخابات الأستراليّة اليوم: ديمقراطيّة 50٪	36
انتقال السلطة في أستراليا: البيئة والثقافة والأخلاق	45
الديمقراطيّة الأستراليّة: أكثر من مجرد صندوق الاقتراع	50
الاستقامة السياسيّة ليست مادة دستوريّة	54
الحكومة الثقافيّة	59
"الجنتلمان المثقف المتغرّب" وعولمة الديمقراطيّة	62
السيّف المنسيّ	67
الاستقامة السياسيّة: تكريس لمشروع النِفاق البشريّ	76
ديمقراطيّة الشعوب المقهورة	86
أنتوني لوينستين و"مسألتي مع إسرائيل"	91
الحنظل في حديقة الورد	97
فوضى الحواس... ونظام أشياء أخرى	106
مؤسّسة للاستخبارات الثقافيّة	119
جلسة مع لويس سكوت	129
نوح في أستراليا	135
المطلوب تكريس مفهوم "الأخلاق البيئيّة"	140
في يد جبران	150

اختراعات من أجل البهجة 159
الإلهام، وليس التنافس فقط 164
مئة سنة وسنة: حكايتي مع الدكتور يوسف سمارة 167
اللحاف... 173
وداعاً نويل 176
عبد المعين الملوحيّ والدفاع عن الغرب 179
آه... أبو زياد 186
التانغو الأزليّ 191
القمر... أغنية إلى الأبد 197
لكلّ ساقطة لاقطة 201
فليمِنْغتُن ماركِت 204
أرجوحة 208
حوار عربستانيّ 213
حسب العقد 217
الفضائيّات: تبديد الغربة لزيادة العزلة 219
يا حسرتي عليك يا لورنس! 222
مفارقات بوليسيّة 227
مفارقات ماليّة 232
قيد نفوس 234
تحليق 236
كان فجراً قصيراً 244
نجوم الليل 249
جدّو 258
توت شامي 265
خواجا خليل 275
أوّاه يا امرأة... 278
الساعة الواحدة ظهراً 280

البحر... بيروت... والجبل 289
الجار البعيد 296
كلام غروب 298
أنا... وأنتِ... 299
العيون الشفّافة 301
الفراشة الصفراء 302
اللعب بالفراشات 304
الحديث الطويل 307
الرقصة الأولى 309
هي وأنا... وهي 310
الربّان والريح 312
"The Green" 314
عندما تضيع ألوان الغروب 316
عودة الغد 319

لمحة عن المؤلّف 321
مقتطفات من الكتاب 323
محتويات بالإنكليزيّة 326
لمحة عن الكِتاب بالإنكليزيّة 328

سَيِّدَةُ الْبُحَيْرَة

صار ماء البحيرة صافياً؛
ما عادت السراخس تداعب سطحها،
ولا النخيل يخرّ في سجود.
كذلك الطير تأبى انغماساً،
وما عادت تقبّل وجهها الورود.
ما عاد في نبض البحيرة حياةٌ،
فاختفى من مائها لون الوجود!

صار ماء البحيرة صافياً،
وأسبحُ وحيداً أعاتب
السراخس والنخيل والطيور.
فقالت: كنّا نركع عشقاً
بسيّدة البحيرة ولها وحدها
نصبغ الماء بلون الخلود،
فلا سلامٌ ولا انغماسٌ ولا قُبَلٌ،
وما نحن بسُجّدٍ إلاّ أنْ تعود.

فيه فايدة يا صَفيّة!

تحيا مصر! ومرحباً برجوعك يا صفيّة.

يبدو أنّ على رأس الجيش المصريّ رجالاً شرفاء، فلو أنّ ما حدث هناك حدث في ظلّ الدكتاتوريّات العربيّة الأخرى لزال نصف الشعب، ونصب قائد الجيش نفسه فوراً رئيساً للبلاد، ووضع على رأس قائمة أعماله تدريب ابنه لتأهيله للوراثة بعد عمر طويل من القمع والقهر، ولا بأس أنْ يصيب البلاد الذلّ والعار، طالما أنّ العائلة المالكة واقتصاديّاتها بخير، وطالما أنّ الرضا هو الرضا الصهيونيّ وليس الشعبيّ. هل يبدو هذا مألوفاً؟ طبعاً، فهذه قصّة الأمّة العربيّة منذ ما يسمى بالاستقلال حتّى اليوم.

قد يستثنى من ذلك جمال عبد الناصر الذي لم تكن مطامعه سوى المطامع الوطنيّة، لكنّ غايته برّرت واسطته فاعتمد على ثلّة من السفاحين على رأسهم السرّاج، ابن الإقليم الشمالي، الذي عاث فساداً في إقليمه، وغالب، سفير ناصر في بيروت، الذي تصرّف كمندوب سام في المنطقة، أضف إلى ذلك التورّط في اليمن. بعبارة أخرى، غشيت بصيرة ناصر بطموحه الذي لم يأخذ بعين الاعتبار واقعيّة الأمور من جميع الأطراف، فاستقلّ بآرائه مستمدّاً القوة من تأييد ساحق من الجماهير التي خدّرتها الآمال الورديّة بقرب تحقيق الحلم العربيّ الكبير في الوحدة والحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة.

كانت هزيمة عام 1967 نتيجة واضحة، برأيي، لغياب الديمقراطيّة. ولا أعني الديمقراطيّة بمفهومها الانتخابيّ فحسب، بل الأهمّ من ذلك، ممارسة الإصغاء والاستئناس بالآراء، خاصّة ما خالف منها. وربّما كان عبد الناصر يبرّر سطوته بالظروف

التاريخيّة القاهرة المتمثلة بانقضاض الاستعمار عليه من كلّ حدب وصوب.

حدّثني أحدهم، وكان وزيراً في وزارة الوحدة بين سوريا ومصر، أنّه حين أراد مرة أنْ ينقل إلى عبد الناصر صورة حقيقيّة عن بعض الأوضاع الشاذّة التي تعاني منها بعض المرافق، سأله عبد الناصر إنْ كان يريد شيئاً، وفيما إذا كانت احتياجاته كلّها موفّرة بحكم منصبه! أي أنّ وزيرنا لم يلق أذناً صاغية، بل لعلّ ردّ الرئيس كان إهانة واضحة لشخصيّة من أشرف شخصيّات سوريا، وهو ردّ يدل على أنّ كلّ التعيينات كانت مناصب تخديميّة تقدّم الطاعة العمياء لوليّ النعمة.

كانت لعبد الناصر فرصة تاريخيّة بعد هزيمة 1967 في تحويل مصر إلى ديمقراطيّة حقيقيّة. صحيح أنّ "حبيب الجماهير" قدّم استقالته، وهذا أمر يدلّ على أصالته الضمنيّة، وطيب معدنه، لكنْ كان عليه حين استجاب للجماهير، وعدل عن الاستقالة، أنْ يبقى مستجيباً لضميره ويعمل تدريجيّاً على التغيير والتنحّي عن الحكم، بعد أنْ يستخدم رصيده الشعبيّ الكبير الذي يخوّله أنْ يكون المرشد الأكبر للجمهوريّة العلمانيّة، ويستغلّ ظروف الأمل الذي انبعث في الخمسينيّات والستينيّات من القرن العشرين، الظروف التي تشير إلى أمّة تبغي التحرّر الوطنيّ والاجتماعيّ والنفسيّ، أمّة تريد الانطلاق إلى الأمام. لكنّي أعتقد أنّ فشل ذلك هو ما أدّى إلى تسلل أمثال السادات إلى الحكم، وفي عهده بدأت البلاد تعود إلى عصور الظلام وطنيّاً واجتماعيّاً وفكريّاً.

كانت هذه البيئة ملائمة لأمثال مبارك وشركاه كي يحوّلوا البلاد إلى شركة مقاولات تخدم من يدفع أكثر، ولو على حساب الشرف والعزّة والكرامة. وبما أنّ البلاد تحوّلت إلى شركة خاصّة بنظرهم، فليس غريباً أنْ يرث الابن أباه. هنا لا نتعجب أنّ هذه الطغمة تخشى الديمقراطيّة، فهي تتشبث بما سرقته، وتعلم

أنّها لم تكن لتحصل على ذلك من طريق المنافسة الشريفة (وهي نوع من الديمقراطيّة).

لا أشكّ في أنّ إيمان عبد الناصر الشديد بمبادئة، وحرصه الشديد على مصلحة شعبه جعلاه يعتقد أنّ أساليبه وأفكاره وحدها التي تصون بلاده، لكنّ هذا لا يعفيه من المسؤوليّة، وكذلك يؤكّد أنّ الديمومة لا تكون بفضل ديكتاتور مصلح.

لا أريد أنْ أكون قاسياً على واحد من أفضل من مرّ على هذه الأمّة، لكنّي أستعمل مَثله لأقول: النوايا الحسنة ليست المسألة. ويجب أنْ تكون النيّات بالأعمال وليس العكس. الفساد السلطويّ له وجوه مختلفة، لا تقتصر على الناحية الاقتصاديّة أو التآمر مع العدو، كما أنّه من الخطورة بمكان أنْ يستخدم الديكتاتور محافظته على الهامة العربيّة مرفوعة الرأس (مثل عدم التخاذل أمام الاستعمار وإسرائيل، وتأميم قناة السويس) كدرع واق لكلّ الإساءات التي يوقعها بشعبه، مثل أجهزة المخابرات الفاسدة، وقمع حرّيّة التعبير، وسوء الأحوال الاقتصاديّة.

ربّما لو كان مبارك على غير علاقة مع الصهاينة، ولو أنّه ظهر كمدافع عن عزّة وكرامة العرب، لما قام الشعب ضده، أو ربّما تأخّرت هذه القيامة إلى حين، أو لكانت لدى الجيش مبرّرات أكبر لإخماد ثورة الشعب. لكنْ هل هذا ما تريده الشعوب العربيّة؟ طبعاً، لا.

آن الأوان لتبدأ الشعوب العربيّة بالنظر إلى قضاياها نظرة تكامليّة، تجمع بين العزّة والحرّيّة والاقتصاد. يجب أنْ لا تتخدّر الشعوب ثانية بأيّ طروحات معسولة يطرحها القائد لتداعب غرور المواطن الذي يستكين، بينما تعيث الطغمة الحاكمة فساداً على كلّ جوانبه، فتسرق جيبه، وتسلب فكره، وتهتك عرضه.

إنّ ما حدث في مصر يدلّ، عكس ما يدّعي بعضهم، على أنّ "أمّ البلاد" مهيّئة تماماً للديمقراطيّة. كلّ الذي تريده فرصة

ممارستها. وها قد كتب الشعب صفحة جديدة يكمل بها كتاب سعد زغلول. وكلّنا يعلم أنّ هذا الكتاب لازال مليئاً بالصفحات البيضاء التوّاقة إلى جُمل العزّة والكرامة والحرّيّة، التي لن تُسطَر سوى بكلمات الإخلاص والتفانة والعلم والمعرفة والثقافة والأدب والفنّ والصحّة العامّة وسيادة القانون والدفاع عن الوطن.

لن نستطيع التنبّؤ بما سيحدث غداً، فكلّنا يرى ظواهر الأمور، وما أصعب بواطنها في منطقة الشرق الأوسط التي تلعب فيها أصابع العالم كله، وتفقأ عيونها مخالب الجرذ الصهيونيّ، وتأكل أحشاءها- من الداخل – أساطيل من العملاء والمارقين والمرتزقة.

لكنّ بوادر الأمل موجودة. ولعلّ من أهمّها موقف "الأخوان المسلمون" الذين مالبثوا يرسلون إشارات تدل على أنّهم واعون لضرورات المرحلة. وهم، مثلهم مثل أيّ فئة، لهم الحقّ في حرّيّة التعبير والمشاركة الوطنيّة، طالما أنّهم لا يسعون لإلغاء مثل هذه الحقوق عن غيرهم.

حرّيّة العقيدة مصانة في كلّ الشرائع الديمقراطيّة، ومن الضروريّ أنْ يعي حامل العقيدة أنّ أكثريّة البشريّة لا تريد أنْ تخضع لأيّ عقيدة تعتبر نفسها منزّلة لا يمكن لها أنْ تتغير أو تتبدل. هكذا عقيدة هي شأن وحق من يعتنقها، لكنْ لا تعطيه حقّ السيطرة على الآخرين. والعقيدة هنا لا تختصّ بالأديان فقط، بل رأينا أوضح الأمثلة في العقيدة الشيوعيّة التي كانت الأكثر طغياناً في تاريخ البشريّة من حيث الفتك وإخضاع مناوئيها. لكنّ مأساة الشيوعيّة كانت مضاعفة لأنّها كانت عقيدة دون إله، ولهذا كانت ديكتاتوريّتها مقيتة جدّاً لافتقادها مرجعاً ماورائيّاً سينصف البشريّة في آخر الزمن (بنظر بعضهم). أمّا المرجع الدنيويّ، فرأينا كيف أزاح الإقطاعيّين والرأسماليّين التقليديّين ليجلس مكانهم، يذيق الشعب لعقة من قالب الحلوى ويحتفظ بالدسم لنفسه.

سمّها شورى، أو ديمقراطيّة، أو تبادل آراء. لا تقع في مستنقع الآيديولوجيا! سمّها ما شئت، ولنستعمل الكلمة المألوفة: "الديمقراطيّة". بلا ديمقراطيّة، لا يدوم المجتمع المدنيّ صحيحاً معافى. ولنتذكّر، على سبيل المثال لا الحصر، أنّ صناديق الاقتراع وحدها لا تعني شيئاً دون مكملات الديمقراطيّة الأهمّ، مثل سيادة القانون، والعدالة، ومبدأ المحاسبة الفرديّة.

الدستور هو الكتاب المقدّس الوحيد في مكتبة الدولة، لكنْ يجب أنْ يكتبه الشعب ليرسّخ مطامحه في إطار عمليّ قابل للتحقيق والصيانة، وهو كتاب وضعيّ، قابل للتغيير، 'إذا الشعب يوماً أراد الحياة'.

والشعب المصريّ اليوم يريد الحياة، فهل يستجيب القدر؟

الذي تجاوز الستين مثلي يفهمني حين أقول إنّ المثقّف بيننا مصاب اليوم بعقم نفسيّ ناتج عن الهزائم المتلاحقة التي مررنا بها منذ 1967، تلك الفاجعة التي أصابتنا بعد سنين من الأمل في عصر التنوير الذي كانت مصر سيّدته. كنّا كلّ عام بعد تلك الهزيمة نحاول تجديد الأمل في نفوسنا، لأنّنا تعوّدنا العيش في ذلك الحلم المزيّف، الذي كان يستند إلى سلسلة من الأضاليل التي خدّرتنا بها القيادات لتدغدغ نفوسنا الساذجة. ولهذا يتردّد كثير منّا قبل الكلام عن أي شيء، وربّما لا يتكلّم من أصابه الشلل الفكريّ التام، أو من لازال يقبع تحت سلطة أجهزة المخابرات، التي تغيّرت في الظاهر وبقيت كما هي في الواقع.

وعلى الرّغم من الشكّ المتشبّث في النفس، أريد أنْ أدغدغ نفسي بأمل كبير. هذه الثورة الأنيقة التي تمّ طبخها في ميدان التحرير، تصلني أبخرة توابلها وتقول لي إنّها طبخة لم نذق لها طعماً من قبل، تتويج للقول والفعل، إثبات صارخ أنّ الإصرار العادل يمكن أنْ يهزّ عرش الطغاة دون طلقة رصاص واحدة.

أعتقد أنّ إسرائيل اليوم تخشى على نفسها أكثر بكثير ممّا تخشاه من غزّة أو جنوب لبنان.

بذر الشباب في ميدان التحرير بذرة الديمقراطيّة المتمدنة التي ظلّت إسرائيل والغرب يحاربانها بكل الوسائل منذ عام 1948. على الشعب الآن أنْ يرعى النبتة الجديدة، وأنْ يتذكّر أنّه من الغلط الشنيع أنْ نلوم العدوّ على كلّ شيء، وأنّه كما قلنا مراراً، يجب أنْ ننظر إلى أنفسنا أوّلاً، وهذا ما ينظر إليه الشعب المصريّ الآن.

ولنأمل أنّه 'فيه فايدة يا صفيّة'.

سيدني، 2011

مِصرُ.. أُمّي!

يسألونني عن دور مصر في الثقافة العربيّة، أجيب أنّ مصر أمّي.

حين بدأتْ أشعّة وعيي تُلقي ضوءها على براعم تفتحي الذهنيّ، كنت أترنّم بعبارة 'مصر أمّ البلاد...' التي كانت أصداؤها لازالت تتردّد بين تعاقب الستينيّات من القرن العشرين، حين كانت تلك الفترة فترة أمل بانبعاث النهضة العربيّة من جديد. سبق أنْ كانت مصر ملاذ الفنّ والأدب والفكر، وضَمِن الانفتاح الفكريّ فيها استمرار نوع من التحرّر لم تعرفه البلاد العربيّة الأخرى، فنجد مثلاً أنّها في صناعة السينما كانت من بين الخمس الأوائل في العالم.

لكنّ تجربتي الشخصيّة في التتلمذ على يد هذه الأمّ، ابتدأت منذ نعومة أظفاري حين كنت كغيري من الصغار شغوفاً بمشاهدة الأفلام المصريّة المستمدة من واقع الحياة العربيّة. كانت عمّتي دريّة وزوجها ممدوح يصطحباني إلى دار "سينما دمشق" التي كانت تعرض أرقى الأفلام المصريّة في مدينة دمشق في أواخر الخمسينيّات وأوائل الستينيّات من القرن العشرين.

ثم دخل التلفاز منزلنا حين كانت سوريا لا تزال الإقليم الشماليّ من الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، وزادت فرصة استفادتنا من دور مصر الثقافيّ بواسطة مشاهدة الأفلام والتقارير والمسلسلات والبرامج والمسرحيّات، ونحن في عقر دارنا. صارت اللهجة المصريّة الجميلة جزءاً من عاطفتنا، وساعدت "خفّة دم" الممثلين على تسريب الأفكار ومغزى الأعمال الفنيّة والأدبيّة إلى عميق كياننا.

حين كنت في السابعة من عمري شرعت في قراءة مجلاّت الأطفال المصريّة مثل "سمير" و"ميكي"، بالإضافة إلى بعض القصص المبسطة التي كانت تصدر في القاهرة. ولاحقاً، وعلى الرّغم من أنّ المدرسة نقلت إلينا عبر كتبها نصوصاً أدبيّة وشعريّة وفكريّة كثيرة لكتّاب مصريين، فإنّني زدّت على ذلك بقراءة أعمال طه حسين، ونجيب محفوظ، وأنا لم أتمّ الثانية عشرة من عمري.

أذكر، لسبب أو لآخر، أنّ قصّة "دعاء الكروان" لطه حسين تركت في نفسي أثراً عميقاً من ناحية مضمونها الإنسانيّ، وكذلك أناقة الأسلوب الأدبيّ في سردها. لكنّني شغفت كثيراً بروايات نجيب محفوظ.

أعتقد أنّ أهمّ ما يميّز تأثير مصر في الثقافة العربيّة، هو تمكن مصر من أنْ تكون سبّاقة إلى تجنيد وسائل مختلفة تجتمع على تواصل تلك الثقافة. كنّا، مثلاً، نجد العمل الأدبيّ مطبوعاً في كتاب، ومذاعاً، ومتلفزاً، ومعروضاً في دور السينما. هذه الحملة الدائبة في تجنيد الحواس المرئيّة والمسموعة لدعم الفكر، أعتبرها من أهمّ ما أوصل الثقافة المصريّة إلى قلب المواطنين على اختلاف مستوياتهم، وكذلك نقلها بسرعة إلى الشعوب العربيّة الأخرى كافّة. وكلّنا يعلم أنّه لولا المناخ السياسيّ المعاكس لطموحات العرب، لوصلت تلك الثقافة إلى العالميّة منذ زمن بعيد. وأذكر في هذا السياق أنّني في نقاش مع رفاقي، وكنّا في المرحلة الإعداديّة في المدرسة في أوائل الستينيّات، عبّرت عن يقيني أنّ نجيب محفوظ سينال جائزة نوبل للآداب. لكنّ سذاجة ابن الرابعة عشرة في تلك الفترة لم تمكّنني من فهم أنّ السياسة ستتدخل لتؤجّل هذا الاستحقاق سنين عديدة.

ما قدّمته مصر للثقافة العربيّة أوسع بكثير من كلماتي العفويّة هذه، وإنّما أردت أنّ أشير هنا إلى شعور شخصيّ، أشدد

فيه على أنّني كأحد المثقفين العرب مدين بالكثير لحضن هذه الأمّ الحنون.

(استجابة لسؤال من صحيفة عربيّة في أستراليا عن دور مصر في الثقافة العربيّة.)

اغتيال بوتو: العالم ساحة واحدة

غريبٌ أمر هذا العالم! هنا في أستراليا تدرك الحكومة الجديدة أهمّيّة صون الديمقراطيّة فأضافت إلى جدول أعمالها عناصر تحقّق أبعاد هذه الديمقراطيّة، وأهمّها التركيز على الثقافة، دون أنْ تهمل أهمّ أركانها مثل الاقتصاد. وفي الوقت الذي ننعم فيه بهذا الرخاء السياسيّ، تتواصل سلسلة قمع الديمقراطيّة في أماكن كثيرة من العالم، أقربها إلى قلبنا لبنان، وقد كان فرنسوا الحاجّ من أواخر من وقع ضحيّة لها.

فتحنا أعيننا هنا في أستراليا على نبأ اغتيال السيّدة بنازير بوتو، التي سبق أنْ عادت إلى بلادها لتقوم بواجبها في رأب كثير من الصدوع، وتجميع الجماهير في مواصلة لعمليّة بناء الديمقراطيّة في باكستان. ويبدو أنّ نجاحها الواضح في التأثير إيجاباً على هذه العمليّة أزعج من لا يرغب في تكريسها، وهو على علم أكيد بذيول تغييب السيّدة بوتو عن الساحة بهذه الطريقة.

لا شكّ في أنّ الغرب الذي يتغنّى بالديمقراطيّة دائماً، لكنّه لا يتوانى عن تأييد الديكتاتوريّة في العالم الثالث، مسؤول إلى حدّ كبير عن هذه العواقب التي يمر بها العالم اليوم، إلى درجة أنّ أيّ تدارك للأمر تحاوله الولايات المتّحدة، على سبيل المثال، يبدو هزيلاً كئيباً، أو على الأقل فات أوانه.

لا تريد بعض الجهات الغربيّة الاعتراف بوجهات النظر الأخرى، وبأنّ للآخرين مصالح ومطامح مشروعة، وأنّ الديمقراطيّة تعني أنْ تترك لهم حرّيّة ممارستها دون التدخّل في كلّ شاردة وواردة من شؤونهم الداخليّة.

ولا يريد المعنيّون بالأمر إدراك أنّ التضييق على شعوبهم، مهما كانت الظروف والأعذار، لن يؤدّي سوى إلى الكبت والثورة، وفي كثير من الحالات إلى المقاومة التي تتحوّل بسهولة إلى إرهاب، وتترك المجال لفئات كثيرة لتبرير تعاونها مع قوى خارجيّة طالما أنّها استنفدت كلّ وسائل التغيير بالحسنى، بل طالما أنّ ثمن المعارضة غالباً ما يكون السجن أو القتل، فكيف إذا تحولت المعارضة إلى ثورة أو مقاومة أو إرهاب؟

هذه الطروحات معروفة لدى الجميع، ومع ذلك يزداد عدد البقع الساخنة في العالم، الذي صار كلّه ساحة معرّضة للقتال والثأر والإرهاب والدمار.

توجد بعض هذه البؤر ضمن كيانات تمتلك أسلحة نوويّة وأسلحة دمار شامل، كما هي حال إسرائيل وباكستان. تُرى ما سيحدث إنْ استطاعت جماعات القتل والتدمير، التي لا تخضع لأيّ أعراف، أنْ تسيطر على بعض تلك الأسلحة؟

طبعاً تستطيع الولايات المتّحدة أنْ تتحدث عن خطر ذلك، لكنّ السؤال هو ما الذي تقوم به الولايات المتّحدة، بل كيف تقوم الولايات المتّحدة بمعالجة مثل هذه المعضلة؟ حتّى الآن يظهر جليّاً أنّها تسير وفق منحيين. الأوّل هو الكيل بمكيالين، فتحلّل لإسرائيل ما تحرّمه لإيران مثلاً، والثاني أنّها تسيء التصرّف بتدخلها العسكريّ والسياسيّ الذي يأخذ صفة الاحتلال أكثر ممّا يأخذ صفة المؤازرة والدعم، كما حدث في حال العراق.

المنحى الأوّل يؤكّد غياب العدالة عن ذهنيّة الولايات المتّحدة وأفعالها، والمنحى الثاني يؤكّد نفاق الولايات المتّحدة التي إنْ حلّلت لنفسها الديمقراطيّة، فإنّما تحرّمها على الآخرين. وكلا المنحيين وصْفَة مناسبة لإنتاج مزيد من ردود الفعل الغاضبة.

من سخرية القدر أنّ الطبخة الجديدة التي يبدو، حسب بعض المعلقين، أنّ الولايات المتّحدة كانت تعدّها مع الرئيس الباكستانيّ وأقطاب المعارضة، خصوصاً السيّدة بوتو، كانت

بالفعل تهدف إلى إرساء قواعد أفضل للديمقراطيّة في باكستان، خصوصاً أنّ هؤلاء الأقطاب متفقون على محاربة ما يسمى الإرهاب. ويبدو أنّ مقدرة السيّدة بوتو على لفّ كثير من زعماء العشائر حولها كانت من أهمّ العوامل التي ستؤدي إلى نتائج إيجابيّة لمستقبل البلاد.

لكن ّعامل الوقت مهم جداً. وهذا يعيدنا إلى ما ذكرناه سابقاً من حيث أنّ الأوان قد فات بالنسبة إلى الكثير ممّا سبق أنْ أرادت الولايات المتّحدة إنجازه. بعبارة أخرى، أضاعت الولايات المتّحدة وقتها في كثير من الترهات، وتناست جوهر القضايا العالميّة، متناقضة في تصرّفاتها مع مبادئها السامية التي تأسّست وفقها، وقد ضحّت هي نفسها بعددٍ من شبابها في حرب أهليّة كانت من أعنف الحروب الداخليّة في التاريخ، وكذلك في حروب أخرى مثل فيتنام وأفغانستان والعراق.

هذه الصور التاريخيّة والجغرافيّة تأكيد مستمر على شيوع الصراع البشريّ واستمراره. وفي غفلة عن ذلك نسهى عن أنّنا نتساكن جميعاً في منزل صغير جدّاً يسمى كوكب الأرض، ونشترك جميعاً بزمن متناه في القِصر.

وحتّى ندرك مقدار هذا الصغر وماهيّة هذا القِصر، نذكر أنّ العلم يقدر عمر الكون بحوالى 15 مليار سنة، وعمر كوكب الأرض أربعة مليارات سنة، وعمر الحياة البشريّة على الارض لا يتجاوز خمسة ملايين سنة، أيْ أنّ وجود الإنسان في هذا الكون المعروف ليس إلا نقطة في محيط، أو هنيهة في مطلق.

إنّ مستقبل البشريّة وكوكبنا الأرضيّ يعتمد على ما سنقوم به خلال وقت أشدّ قصراً في المستقبل، ربّما لا يتجاوز مئات السنين، مقارنة مع الملايين والمليارات الآنفة الذكر. فهل سيقوم الإنسان بما يلزم لاستمرار الحياة على الأرض، وهي حياة قد تكون وحيدة أو فريدة بين مليارات المليارات من المجرّات، أم أنّه سيقضي على نفسه وعلى كوكبه؟

طبعاً التحذيرات البيئيّة، والمطالبة بالحفاظ على كوكب الأرض ليست بالأمر الجديد، لكنّنا نذكر هنا أنّ القضاء على البشريّة يمكن أنْ يتمّ بوسائل عدة، والحروب والصراعات هي من أهمّ هذه الوسائل، وقد تصبح فتيلاً ملائماً لإشعال الانفجار الأخير. ولا بدّ من الحدّ من النزاعات المتفرقة لإبطال الفعل التراكميّ للأحداث. نذكر مثلاً كيف كان مقتل "دوق" الفتيل الذي أشعل حرباً عالميّة.

من هنا نجد أنّ القضاء على السيّدة بوتو أمر خطير للغاية، لأنّه يأتي في إطار إشعال الصراعات والفتن. مثلاً، ما ستكون عليه عواقب الفراغ الذي سيتركه غيابها عن الساحة؟ هل ستبرز صراعات تؤدّي إلى تدخل أجنبيّ؟ وهو وإن انتهى به الأمر كغيره من الاغتيالات في صفحات يطويها التاريخ، أو يخلّدها بطريقة أو بأخرى، فقد يعني تعويد البشريّة على السير في هذا المنحى زيادة من احتمال تحوّل مقتل سياسيّة باكستانيّة إلى فجيعة عالميّة.

سيدني، 2008

رئيسُ الوزراء الأستراليّ

بَين حُبّ أميركا والوَطَن

هل تدلّ تصرّفات رئيس الوزراء الأستراليّ جون هاورد على أنّه كان ملكياً أكثر من الملك في تعاونه مع الولايات المتّحدة الأميركيّة، وهل كان يعمل لمصلحة أستراليا؟

جوابي المباشر عن هذا السؤال هو أنّ هاورد مقتنع تماماً أنّه يخدم المصلحة الأستراليّة، وهو من وجهة نظره صادق تماماً في هذا الاقتناع، لكنّه من الذين أصنّفهم بأنّ الغاية لديهم تبرّر الوسيلة كما سيتضح لاحقاً. وعلى هذا فلا أعتبره ملكيّاً أكثر من الملك، بل إنّ وجهة نظره تتطابق مع الحفنة المسيطرة على البيت الأبيض حالياً. أمّا إذا سألنا هل كان فعله ينسجم مع نيّاته، فهذا أمر يحمل الإيجاب والسلب في آن واحد. نعم هناك انسجام مع النيّات، لأنّ نيّاته تنبع من حالة ذهنيّة فقيرة ثقافيّاً، فيأتي التطبيق في أحسن حالاته محدود الأفق، ويخدم وضعاً أنانيّاً انعزاليّاً. وكلاّ، لا يوجد انسجام، لأنّ التطبيق يأتي منافياً لبعض القيم التي يدّعيها هاورد، وهي في جوهرها تعني "الفضيلة" التقليديّة على صعيد احترام الإنسان والعائلة والمجتمع. واسمحوا لي أنْ أوضّح وجهة نظري فيما يأتي.

يميل العرب عموماً إلى "نظريّة المؤامرة"، لأسباب ليست هي موضوعنا هنا. وإنّما أودّ الإشارة إلى أنّه من السهل أنْ نتهم جون هاورد بأنّه ينفذ ما تمليه عليه الإرادة الأميركيّة، خصوصاً لأنّ طريقته في التعامل مع الإدارة الأميركيّة كانت

تُظهر بصورة سافرة أنّه رجل مسلوب الإرادة، ممّا يغطّي كثيراً على حقيقة اتصافه بالدهاء السياسيّ، وإتقانه الرائع للّعبة البرلمانيّة في أستراليا. انتُخب هاورد، أوّلاً وأخيراً، من قبل أكثر من نصف الشعب الأستراليّ (مباشرة أم على نحو غير مباشر) في عمليّة ديمقراطيّة تضع أستراليا في قمّة الهرم الديمقراطيّ في العالم، بعد بعض الدول الإسكندنافيّة.

إنمّا مشكلة هاورد في رأيي، هو أنّه لا يتصف بـ"الدهاء" الثقافيّ. وأستعمل الكلمة هنا استعارة من السياسة لأعبّر فيها عن البراعة الإيجابيّة في التعامل. والدهاء الثقافيّ هذا يحتاج أنْ يكون المرء على درجة من الارتقاء الفكريّ تجعله يتحسّس شموليّة الوجود، ويستوعب أهمّيّة ترجمة إيديولوجيات العدالة الإنسانيّة إلى واقع عملانيّ يتكرّس في سياسة الحكومة وتوجهاتها على المستويين الوطنيّ والعالميّ.

يأتي هاورد من مخلّفات ذهنيّة الإمبراطوريّة البريطانيّة، وليس من متطلّبات التقدميّة الأستراليّة. الإمبراطوريّة البريطانيّة في وقتها كانت من أهمّ المؤسّسات البشريّة عبر التاريخ، وكانت لها إيجابيّات كثيرة، بل خدمات جليلة، لكنْ حين غابت عنها شمس التألّق، انتهى دورها، جيّداً كان أم سيّئاً. أمّا الحالة الذهنيّة لمن ورثوا تركتها أمثال هاورد، فيبدو أنّها تأبى التخلّي عن تلك القيم البائدة، خصوصاً أنّها وجدت في السنوات الأخيرة تشجيعاً كبيراً من الردّة العالميّة نحو التطرّف الأصوليّ، فشعرت بالمؤازرة حين يكون التطرّف مسيحيّاً (بوش وعصابته)، وبرد الفعل السلبيّ حين يكون إسلاميّاً ("القاعدة" وذيولها).

هذه الذهنيّة المتخلّفة ما زالت ترقد تحت السطح لدى جزء كبير من عامّة الشعب الأستراليّ ذي الأصول الأنكلوسلتيّة الذي يحنّ إلى الماضي العريق (بلا وعي)، على الرّغم من أنّه لم يعشه هو بالذات. إنّه حنين إلى التراث، شبيه بما يفعله العرب

حين يتباهون بأمجاد الأجداد وهم يغرقون بلادهم في الوحل! إنّها الـ"نوستالجيا" إلى عالم لم يعد له وجود، ومن الصعب إعادة تخليقه. لكنّه حنين يتأجّج بشكل خاص وقت الأزمات.

لا أعتقد أنّ جون هاورد صاحب عقيدة، بل ربّما ليست لديه ملكة حقيقيّة لاستيعاب معنى العقيدة (خصوصاً بمعناها الإيجابيّ الثوريّ، وليس بمعناها الاستسلاميّ الدينيّ). أعتقد أنّ هاورد صاحب ذهنيّة معيّنة، وهو الذي تحقّق له وجود طاقم من السياسيّين المقتدرين، وعلى رأسهم كوستيللو، يقومون بالعمل اللازم لتحريك مسار الاقتصاد والمرافق الأستراليّة، وهذا أهمّ العوامل التي تحرّك الناخب الأستراليّ. أمّا "رفاهيّة" التعامل مع العالم الخارجيّ فيبدو أنّها تُركت عمليّاً لبوش، واقتصرت لدينا على بوقين ممثلين بالسيّد هاورد ووزير خارجيّته داونر. وهنا استعمل هاورد دهاءه السياسيّ، عبر سلسلة من الأكاذيب حول اللاجئين وأسلحة الدمار الشامل، ليلعب على أعصاب عامّة الشعب، ويحرضّ فيها تلك "النوستالجيا" إلى "الأمّ الحنون".

لا أعتقد أنّ هاورد اختار أنْ يكون بوقاً لبوش مكرهاً أو خائفاً. كان بإمكانه اتخاذ موقف شبيه بالموقف الكنديّ، وكندا أكثر البلاد شبهاً بأستراليا. ولا أعتقد أنّه كان "ملكيّاً أكثر من الملك". أعتقد أنّ هاورد اختار مواقفه عن سابق تصميم وإصرار، لأنّ ذهنيته تجعله يعتبر بوش يمثل قيمه الخاصّة، وأنّه قادر على تحقيق ما لا يمكنه تحقيقه. بعبارة أخرى، بوش هو الجنديّ الذي كرّسته ذهنيّة هاورد لتنفيذ ما لا تستطيع هي تنفيذه. أمّا بوش الذي تعالى على الأمم المتّحدة فطغى واستكبر، سرعان ما وعى أهمّيّة استغلال من يقاربه في وجهات النظر، لأنّه لا يريد أنْ يكون وحيداً في الساحة، ولا بدّ من غطاء شرعيّ لبعض ما يقوم به، وفي هذا حنكة وسياسة، حتّى لو أراد البعض تصوير ذلك على أنّه تراجع عن الموقف الاستبداديّ الأساس. ما قام به بوش هو تجاوزه للأمم المتّحدة لأنّه رأى فيها تقاعساً عمّا اعتقد أنّه ضرورة.

كذلك لا أعتقد أنّ هاورد كان ينفذ المصالح الأميركيّة، بل أعتقد أنّه كان مهتمّاً بمصلحة أستراليا تحديداً، ومدركاً لأهمّيّة التحالف مع الولايات المتّحدة، لكنّه ربّما بالغ في خوفه من عواقب الأمور لو لم يحالف بوش على هذا الشكل.

حسابات هاورد جاءت لمصلحته كما دلّت نتيجة الانتخابات الأخيرة. استغل هاورد نجاح القوات الأستراليّة السابق في شرق تيمور، فأرسل القوات الأستراليّة إلى العراق ولم تخيّب ظنه، إذ كان أداؤها هناك جيّداً في كلّ الأوجه (بغض النظر عن أخلاقيّة قرار التدخل). وهذا ما أعطى هاورد مزيداً من الدعم الداخليّ لأنّه برهن على إمكان المشاركة مع الولايات المتّحدة، دون أنْ يعرّض القوّات الأستراليّة إلى أيّ ضرر حقيقيّ، ولذلك من البداية لم يرسل عدداً كبيراً من القوّات، لأنه يعرف أنّ الشعب الأستراليّ، على الرّغم من اعتزازه بقوّة جنوده، لا يرغب في تعريض أبنائه لهذه المخاطر، كما أكّد لي أكثر من صديق أستراليّ هنا.

تقول الكاتبة الأستراليّة صوفي ماسون إنّ 'جون هاورد شديد الإيمان بالديمقراطيّة، لكنْ ليست لديه عقيدة لتصدير هذه الديمقراطيّة إلى أيّ جهة أخرى'. وطبعاً، أنا أرى أنّ هذا يفسر مواقف أكثر من مسؤول أمثال بوش أو شارون؛ الديمقراطيّة لهم فقط.

كما أنّ هاورد ربّما اعتقد أنّ الجالية العراقيّة الموجودة في أستراليا سوف تؤيّد موقفه في التخلّص من صدّام حسين مهما كانت الطريقة، خصوصاً أنّ معظم أفرادها هم من الهاربين من ظلم صدّام. طبعاً لم يتوقع هاورد المفاجأة التي كانت تنتظره، وهي أنّ كره العرب للولايات المتّحدة يطغى على أيّ شيء آخر. على كلّ حال، كان يعرف أنّ العرب في أستراليا لا يشكلون قوّة انتخابيّة فاعلة على مستوى زحزحته عن الحكم. بل الواقع أنّ عدداً كبيراً من العرب منخرط في حزب الأحرار، وصوّت لجون

هاورد بتصويته لذلك الحزب، ولو لم يكن راضياً عن أداء هاورد الأخلاقيّ.

وهاورد منساق وراء غريزته الانتخابيّة إلى درجة جعلته ينسى أنّه فاز في الانتخابات، وليست هناك حاجة للمزيد من التطرف على غرار ما فعل في تصريحه بعد موت قائد الثورة الفلسطينيّة الرئيس ياسر عرفات. فحين قال ما معناه إنّ التاريخ سيذكر عرفات على أنّه إرهابي، إنما كان يتقرّب من الجالية الصهيونيّة واليمين الانعزاليّ المتطرف، لأنّه يعرف أنّ لهذه الأطراف يداً أطول في تحريك الأمور في أستراليا.

هاورد، بتصرّفه هذا، يؤكّد من جديد تقوقعه في عالم ضيّق ساعدته الظروف العالميّة الحاليّة على الانتصار والظهور بأنّه على حق. لكنّ عدم فهمه لمسيرة التاريخ الواسعة جعلته يجرّ أستراليا معه إلى عهود بائدة، وبذلك لم يكن يعمل لمصلحتها، لكنّه في الغالب لايدرك ذلك، أو لا يريد أنْ يدركه.

تصرّف جون هاورد بطريقة "براغماتيّة". لم تكن تهمّه تفاصيل وجود أسلحة الدمار الشامل في العراق أو عدم وجودها، كما أنّه لم يكن حريصاً على الشعب العراقي أو على إزالة صدّام حسين. ارتأت الولايات المتّحدة القيام بما قامت به، واستجارت ببعض الحلفاء، فهبّ هاورد متحمساً ولبّى النداء. قام بذلك إيماناً منه بمصلحة أستراليا أوّلاً وأخيراً. أمّا إذا كانت عواقب ذلك أنّه عرّض أستراليا لمزيد من خطر الإرهاب، لأنّه ورّطها في أمور ما كان عليها التورّط بها، فهذا إنْ كان صحيحاً لا يعني أنّه يطيع أوامر غيره. هاورد رجل عنيد صلب، أثبت أنّ رئيس أقوى دولة في العالم كان ينشد ودّه وصداقته، ولا نستطيع أبداً نكران ذلك عليه.

هاورد لم يكن ملكيّاً أكثر من الملك، لأنّه في تلك الفترة كان هو الملك الذي لعب بكل الأوراق التي كانت أمامه وربحها كلّها، لكنّه خسر محبّة جزء كبير من الشعب الأستراليّ لأنّه اعتبر أنّ مصلحة أستراليا هي في إعادة انتخابه.

ألا يقوم الحكّام كلّهم بالخلط بين الولاء للوطن والولاء لهم؟

سيدني، 2004

(نُشر هذا المقال كردّ على السؤال الوارد في بداية النص، الذي طرحته إحدى الصحف العربيّة الصادرة في سيدني على نخبة من المثقفين.)

الانتخاباتُ الأستراليّة اليوم:

ديمقراطيّة الخَمسين في المئة

يتوجّه الأستراليّون اليوم السبت 2004/10/9 للإدلاء بأصواتهم في الانتخابات الفيدراليّة العامّة، وهي انتخابات يُقال إنّها ستكون متقاربة النتائج بين الحزبين الرئيسين، حزب الأحرار (الليبراليّ، وهو مثيل حزب المحافظين البريطانيّ) وحزب العمال. بعبارة أخرى، لا يمكن التنبّؤ بشكل قاطع بالنتيجة، خصوصاً أنّ الأحزاب الثانويّة هي ما قد يقرّر النتيجة النهائيّة للانتخابات حين تعطي ما جنته من أصوات لأحد الحزبين، وهو ما نسميه هنا "الأصوات التفضيليّة".

صحيح أنّ نظام أستراليا الديمقراطيّ هو نظام "وستمينستر"، أي شبيه النظام البريطانيّ، لكنّ الحقّ يُقال إنّ أستراليا قد تكون واحدة من بين خمس دول رائدة في مجال الديمقراطيّة في العالم. وصحيح أيضاً أنّ الوقوع في "مأزق" عدم الحصول على غالبيّة شعبيّة للحكم، هو أيضاً نتيجة من نتائج الديمقراطيّة، وهي نتيجة فيها من السلبيّات العمليّة بقدر ما فيها من الإيجابيّات الأساس لحفظ البنيان الديمقراطيّ.

فوز أيّ من الحزبين بهذه الطريقة الهامشيّة سيعني، من الناحية العمليّة، عدم رضى نصف الأمّة. هذا يعني أنْ تكون الحكومة مكبلة اليدين، نوعاً ما، في تمرير بعض القوانين في البرلمان. وحتّى لو نجحت في تمرير مشيئتها، لا يمكن التغاضي تماماً عن الضغوط الشعبيّة لنصف الناخبين. تتذكّر عزيزي القارئ

أنّنا هنا في بلد ديمقراطيّ، أي مهما فعل الحاكم يكون دائماً في حالة حسابات لمستقبله السياسيّ، ومستقبل حزبه معه في الانتخابات التالية. لذلك يمكن القول، إنّه من حيث المبدأ، تحمل الديمقراطيّة بين جناحيها مشاكلها وحلولها معاً. لكنّ الفجوة في التوقيت ما بين وجود المشكلة وتطبيق الحلّ الذي يلائم نسبة الناخبين الذين لم يصوّتوا مع الحكومة، هي ما يخلق الصراع السياسيّ ويراكم النقمة الشعبيّة على بعض ما تقوم به الحكومة.

بيد أنّ الديمقراطيّة الأستراليّة مزوّدة أيضاً بسلاح فعّال في حالات كثيرة، يسمى "سانيت"، أو مجلس الشيوخ. وفي معظم الحالات يسيطر على مجلس الشيوخ نوّاب من الأحزاب الثانويّة مثل "الخضر" و"الأستراليّ الديمقراطيّ"، وكذلك نواب مستقلّون. لذلك مهما يكن قرار الحكومة الذي يقرّه البرلمان الذي تسيطر عليه، نجد أنّ مجلس الشيوخ قد يوقف تنفيذه. ولنتذكر هنا أنّ هذا المجلس يتألف من أفراد ينتمون لأحزاب أعطت أصواتها بالأفضليّة لأحد الحزبين الرئيسين. فإذا كان الحزب المنتصر هو من حصل على هذه الأصوات، قد يكون مجلس الشيوخ دعماً إضافياً للحكومة. أمّا إذا سبق لتلك الأصوات أنْ توجّهت إلى الحزب المهزوم، تتعطل إرادة الحكومة أكثر. تجدر الإشارة إلى أنّ حكم الليبراليّين هو في الواقع ائتلاف بين هذا الحزب والحزب الوطنيّ الأستراليّ، وهو ائتلاف تقليديّ لا يمكن لليبراليّين النجاح من دونه في الوقت الحاضر.

تبدو هذه الأمور مضنية لكثير من الأستراليّين الجدد الذين اكتسبوا جنسيّتهم من طريق الهجرة، قادمين من بلاد معتادة على أنْ يكون الحاكم فيها حاسماً في قيادته للشعب، لأنّه أصلاً لم يأت بالضرورة بإرادة هذا الشعب الذي لا يتكبّد عناء الإدلاء بصوته بحرّيّة. وطبعاً قد يقوم الحاكم هناك بإنجازات سريعة لأنّ برلمانه وشعبه لا يملكان القدرة على المعارضة الفعّالة. وكثيراً ما تكون هذه الإنجازات سلبيّة لعدم توفر المشاورة السليمة أو المعارضة

الصحيّة. والإنجازات الباهرة، على غرار ماقام به الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، مثل تأميم قناة السويس لمصلحة بلاده، نادرة من حكم ديكتاتوريّ كحكمه، ولو أنّ هذا الحكم كان مقبولاً على الصعيد الشعبيّ إلى درجة أنّ هذا الشعب غفر لذلك الحاكم أكبر هزيمة لحقت به في تاريخه الحديث عام 1967.

أمر الشعوب عجيب إذاً، وحكمها ليس بالأمر السهل، بدليل أنّه حتّى في أكثر البلاد ديمقراطيّة لا يمكن توحيد الكلمة. ولكنْ أليس هذا دليل العافية؟ الناس قد تجتمع على أساسيّات رغباتها وطموحاتها، لكنّ تصورات البشر ومصالحهم تختلف، وتصل أحياناً إلى درجة الصراع الذي لا يمكن حلّه إلاّ بإلغاء الآخر، أو التعايش معه. وحالياً تبدو الديمقراطيّة أفضل وسيلة للتعايش كما هو واضح من نجاح الدول التي تتبناها، وفشل معظم الدول التي وصلت بها سياسة إلغاء الآخر إلى الديكتاتوريّة والفوضى والانهيار الاقتصاديّ، نتيجة الفساد الذي لا بدّ أنْ يرافق طبيعة تسلط فئة واحدة على الحكم.

وهنا نطرح السؤال الآتي: ما هو هدف الديمقراطيّة الحقيقيّ؟ أي بعد أنْ يستقرّ أمر شعب ما، ويتعهّد أفراده الحوار المتمدن بينهم، وينجحون في قيادة حياة اقتصاديّة مقبولة، بل مريحة جداً في بلد مثل أستراليا، أين يريد المجتمع أنْ يجد نفسه داخليّاً، وبالنسبة إلى موقعه العالميّ في عصر صار يُطلق عليه "القرية العالميّة"؟

ذكرتُ في مقالة سابقة أنّ ما يحيّرني هو هذه الخمسين في المئة من الشعب. بل يمكن أنْ أقول تلك الأكثريّة الصامتة. أفهم أنْ تكون هناك أكثريّة صامتة في بلد ديكتاتوريّ، لكنّني لا أفهم لماذا تصمت الأكثريّة في بلد ديمقراطيّ مثل أستراليا. لماذا تتكلم هذه الأكثريّة يوم الانتخاب فقط (الانتخاب إجباريّ في أستراليا)، وحين تتكلم إنّما تناقض مشاعرها وتتصرّف على أساس العادة أو الخوف الذي كرّسته لديها دعاية السلطة؟ ربّما

نحتاج هنا لبعض التوضيح. وفي سبيل ذلك سأستعين برئيس وزرائنا السيّد جون هاورد الذي يُعتبر واحداً من أشدّ رؤساء الوزارء الأستراليّين نجاحاً، وربما يكون الآن على وشك كسب فترة حكم رابعة ليتوّج فيها نجاحه السياسيّ الباهر.

السيّد جون هاورد يأتي من تراث ليبرالي (بالمعنى الاقتصاديّ، وليس بمعنى التحرر الإجتماعيّ)، وهو رئيس للوزراء لأنّه قائد الحزب الليبرالي الذي فاز سابقاً بالانتخابات الفيديراليّة العامّة. يركّز السيّد هاورد في رسم صورته كقائد (على الأقل كما تصلنا) على أدائه الاقتصاديّ من ناحية، وعلى تمسّكه بالمبادئ المحافظة المتعلقة بالأخلاق والفضيلة ووحدة العائلة، إلى درجة أنّ "ليبراليّته" لا تتعدى الاقتصاد حتماً. هذه الميزات تجعله شخصيّة مقبولة على الصعيد الأستراليّ الداخليّ، لأنّ الشعب هنا يهمّه النجاح الاقتصاديّ والأمن العائليّ بدرجة رئيسة. والناس هنا بشكل عام يركّزون على أوضاعهم الداخليّة، ومثل أي مجتمع رأسماليّ تلعب فيه "الفرديّة" دوراً رئيساً، قلّما نجد العامّة من الشعب تهتم بقضايا العالم الأخرى، على الرّغم من التعاطف الإنسانيّ الذي يظهر كتعليق هنا وهناك، وعلى الرّغم من وجود أقليّات فكريّة عديدة تحاول فتح عيون الناس على واقع البشريّة خارج الجنّة الأستراليّة (أكثر هؤلاء الناشطين الإنسانيّين هم من الأستراليّين غير المهاجرين). ولكن حتّى على الصعيد الداخليّ والفرديّ، ما الذي يجعل نصف الشعب الأستراليّ على الأقل يتعاطف مع السيّد جون هاورد إلى درجة قد تعيده إلى الحكم مرّة رابعة؟

منذ مأساة الحادي عشر من أيلول، برزت ميّزة جديدة يحبّ السيّد هاورد الاستناد إليها، ألا وهي "الحسم" في المواقف الصعبة. فبالإضافة إلى النجاح الإقتصاديّ (والحقّ يقال إنّ أستراليا في السنوات الأخيرة من أفضل دول العالم الغربيّ، عدا العجز في ميزان تجارتها الخارجيّة)، والتمسّك بالحياة العائليّة

الشريفة (ولا غبار على السيّد هاورد في هذا المجال)، يحاول رئيس الوزراء الآن إقناع الشعب الأستراليّ أنّ تماشيه مع السياسة الأميركيّة في مسألة غزو العراق إنّما كان من حرصه على أمن شعبه وسلامته. وحين تمّت مواجهته مراراً بأنّ الأسس التي دخل فيها هذه الحرب كانت مستندة إلى معلومات غير صحيحة حول وجود أسلحة الدمار الشامل، كان يميل إلى لعب ورقة الإرهاب ليقنع الناس أنّ إزالة صدّام حسين بحدّ ذاتها عمل ضروري للإسهام في إحلال الأمن في العالم، بل أدّى به الأسلوب البراغماتي الذي يتبعه إلى الموافقة على أنّ أستراليا معرّضة لخطر ضربات إرهابيّة، إلى درجة أنّه مستعد للقيام بضربات مسبقة لقواعد إرهابيّة تنوي الهجوم على أستراليا، حتّى لو كانت هذه القواعد على أراضي دول مستقلّة مجاورة. طبعاً أكدّ السيّد هاورد على أنّه سيقوم بذلك فقط حين تُستنفد الوسائل الأخرى.

هذا العرض للقوّة يجتذب كثيراً من العامّة التي ليس لديها عادة المعلومات الكافية عن حقائق الأمور، والتي تتحكّم بتصرّفاتها ردود فعل طبيعيّة نتيجة الخوف من المجهول. هذا الخوف تعزّز كثيراً بالمشاهد المقزّزة لقطع رؤوس الأبرياء الذين ينتمون للعالم الغربي، ولهذه الأكثريّة "الصامتة". لعلّ هذا ما يفسّر قبول هذه الأكثريّة طروحات السيّد هاورد ولو كانت اعتداء على استقلاليّة الدول المجاورة حين يريد القيام بضربات ردع، أو حين لا ينطق بالحقّ حول أسباب غزوه العراق، أو حين يكون مسؤولاً عن الكذب المتعمّد بشأن الاتهامات التي وجهتها دوائر حكومته لطالبي اللجوء القادمين على المراكب من أنّهم رموا بأولادهم في البحر، أو حين تقوم حكومته باحتجاز طالبي اللجوء في معسكرات تفرّق بين الأزواج وزوجاتهم، وتفتقر إلى مستوى الأساسيّات المعروفة في أستراليا، أكثر من سنتين دون البتّ بمصيرهم. هذه الأكثريّة مستعدّة للتغاضي عن "هفوات" السيّد هاورد لأنّها أكثريّة مصابة بالخوف والجهل.

في حديث مع جارة لنا معروفة بتفضيلها الحزب الليبراليّ، قالت إنّها ستصوّت هذه المرّة أيضاً لحزب السيّد هاورد. استعرضت معها الأفكار السابقة، وقلت إنّنا كأستراليّين قد نختار ما هو مريح لنا في المدى المنظور، ولكن هل نكون بذلك نبني لمستقبل أولادنا؟ أرادت مزيداً من الإيضاح، فأجبت أنّني مدرك تماماً أنّ الفرق بين الحزب الليبراليّ والحزب العماليّ بات واهياً في العصر الحديث، نتيجة هيمنة الاقتصاد العالميّ والنفوذ الأميركيّ، وأنّني شخصيّاً أصوّت للشخص الذي أعتبره أفضل، بغض النظر عن الحزب، لكنّ مواقف السيّد هاورد وحزبه الليبراليّ الحاليّة تستدعي إعادة النظر في طريقتي المثاليّة. صرت أحس الآن أنّ علينا واجباً أخلاقيّاً في محاولة تنحية أمثال السيّد هاورد عن الحكم نظراً إلى وصول "الهيبوقراطيّة" (النفاق) لديهم إلى حالة سافرة. فالسيّد هاورد لم يجد غضاضة من كسب الانتخابات السابقة مستنداً إلى ما ثبت أنّه لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، ألا وهو حادثة اتهام طالبي اللجوء القادمين على المراكب بإلقاء أولادهم في البحر. السيّد هاورد مسؤول عن هذا الادّعاء، وسواء قصد الكذب أم لا، فالكذب حصل. ولو كان هذا غير متعمّد كما قد تبرّر جماعة السيّد هاورد، تبقى السلطة مسؤولة، وفي حالات أقل من ذلك خطورة يستقيل عادة من أقدم على مثل هذه الأفعال. فالسؤال هنا كيف يكذّب من يدّعي كلّ تلك القيم التي ينتخبه الشعب على أساسها؟

والأهمّ من ذلك هو حادثة غرق مئات القادمين على المراكب، لأنّ أستراليا غضّت النظر عن إنقاذهم. كانت حجّة السيّد هاورد أنّ المركب الذي كان يحملهم كان في مياه إندونيسيّة، ولا تتحمل أستراليا أيّ مسؤوليّة تجاه ذلك. الواقع أنّ المركب كان في مياه إقليميّة، وقيل إنّه حين سئل السيّد هاورد كيف عرف أنّ المركب كان في مياه إندونيسيّة أجاب بأنّه سمع ذلك من إحدى محطات الإذاعة! هل يعتمد الرجل الأوّل في قيادة

الدولة على كلام إذاعة؟ هل هذا هو الرجل الذي نضع ثقتنا به؟ قلت لجارتي إنّ السيّد هاورد، وحزبه، ومن تبعهم يكرّسون لأستراليا، وفق هذه السياسة، مستقبلاً لا أخلاق فيه. هل نريد أنْ نكون شعباً مسؤولاً عن غرق مئات النساء والأطفال لمجرد أنّهم يحاولون دخول أستراليا طلباً للجوء، حتّى لو كانت طريقتهم غير شرعيّة أو مخالفة للعرف الأستراليّ؟ أوَليس حريّاً بنا، ونحن الشعب المرتاح الموسر المنتعش، أنْ نقبلهم كبشر أوّلاً ثمّ نحقّق معهم بعد إنقاذ حياتهم؟ أوَليس الكثير من الأستراليّين من الذين قصدوا هذه البلاد، إنما جاءوا للتنعم بالحرّيّة والعيش الرغيد، بما في ذلك عدد كبير وصل على ظهر المراكب؟ وماذا عن أجدادها الأوائل، ألم يتركوا بريطانيا العظمى إلى هذه البلاد النائية في أسفل العالم طلباً لحياة أخرى، حتّى لو على حساب السكان الأصليّين؟ لقد قدموا أيضاً على ظهر المراكب، ولم يطلبوا رخصة دخول من أصحاب البلاد الشرعيّين. وقلت لجارتي إنّ الرخاء الاقتصاديّ لا معنى له في غياب الفعل الإنسانيّ، لأنّ هذا الغياب لا يناقض كلّ المبادئ الذي تربى عليها شعبنا فقط، بل يؤسس لمزيد من النقمة على حالة انعدام العدالة الإنسانيّة. لا يمكننا في هذا العصر أنْ نطمر رأسنا في التراب، ونعتقد أنّ جسمنا صار بمأمن. الخيار الوحيد العاقل أمامنا هو أنْ ندرك أنّنا جزء من هذه البشريّة، بغض النظر عن موقعنا الجغرافيّ أو الاقتصاديّ. وهذا لا يعني أنْ نترك حدودنا عرضة للانتهاك، أو اقتصادنا في حالة اهتراء، وإنّما أنْ نتصرّف بحكمة.

قالت جارتي إنّها ربّما تغيّر فكرها حول التصويت هذه المرة.

ولست أدري كيف ستذهب أصوات المنحدرين من أصول عربيّة، وعلى رأسهم الجالية اللبنانيّة، وهي أكبر الجاليات العربيّة في أستراليا، تزيد عن ثلاثمئة ألف، أي أكثر من ثلاثة أرباع العرب، مع العلم أنّه لا وجود لـ"لوبي" عربي حقيقيّ هنا، على الرّغم من أهمّيّة بعض الأصوات التي قد تذهب مبعثرة هنا وهناك.

لكن ماذا عن البديل؟ حزب العمال الآن تحت قيادة السيّد مارك ليثام، وهو حزب لا يؤيّد الطريقة التي تدخلت فيها أستراليا في حرب العراق. وتعهّد الحزب بسحب المشاركين الأستراليّين في الموعد المحدد لهم مع نهاية هذه السنة إذا ما تولّى السلطة. الكلام خارج السلطة شيء وداخلها شيء آخر طبعاً، لكنّ الكثير ممن سيصوّت للعمال هذه المرة إنّما يصوّت ضد الحزب الليبرالي الحاكم. هذا أمر مألوف في الأنظمة التي تتبنّى نظام حزب حاكم وحزب معارضة، إذ يملّون من الواحد فيختارون الآخر. لكنّ السيّد ليثام في خطابه أثناء إطلاق حملته الانتخابيّة، رسم سياسة متكاملة لإرجاع البلاد إلى أيّام كانت فيها لدى المجتمع قيم الرعاية الاجتماعيّة والصحيّة على أفضل مستوياتها، وأولى عناية خاصّة بالمسنين الذين يشكلون شريحة كبيرة من المجتمع الأستراليّ الذي صار يطلق عليه "المجتمع المعمّر"، نظراً إلى انخفاض نسبة الإنجاب وهجرة الشباب، وقرن ذلك كلّه بأسس ماليّة تبدو معقولة، لكنْ لا يوجد أيّ ضمان أنّ الإنجاز الاقتصاديّ لحكومة عمّاليّة مستقبليّة سيكون أفضل ممّا هو عليه الآن، أو عكس ذلك.

المهم أنّ روح التوجّه العامّ للسيّد ليثام، هي روح أخلاقيّة تعي الدور الداخليّ لحكومته المنتظرة، كما تعي الدور الذي يمكن أستراليا أنْ تلعبه في هذا العالم. على الأقل لم يغلق السيّد ليثام باب الفهم على هذه الأمور، ليظهر على أنه حاسم لكسب الأصوات الانتخابيّة. وعلى هذا لن يكون نجاحه بالأمر السهل نظراً إلى المعطيات السابقة، ولأنّه لا يقدّم نظاماً اقتصاديّاً مقنعاً، رغم توفر حسن النيّة. أضف إلى ذلك أنّ حكّام الولايات الأستراليّة هم حاليّاً من حزب العمّال، والشعب الأستراليّ لا يحب إعطاء الحكومة للحزب نفسه على صعيد الولايات والصعيد الفيديراليّ. ولهذا السبب سيكون نجاحه، إنْ حصل، مؤشّراً إلى أنّ بوادر

التعافي الأخلاقيّ بدأت تدب في روح المجتمع الأستراليّ بعد أنْ غيّبها الخوف والجهل والاهتمامات الماديّة لفترة طويلة.

انتقال السلطة في أستراليا:

البيئة والثقافة والأخلاق كعوامل انتخابيّة

وقف رئيس الوزراء الأستراليّ المنتخب حديثاً، زعيم حزب العمال السيّد كيفين راد، يحيّي أستراليا، فاستهل كلمته بالثناء على الخدمة المتميزة التي قدمها سلفه وخصمه السيّد جون هاورد، زعيم حزب الأحرار، لأستراليا خلال سنين طويلة من خدمة الشعب كنائب ووزير ورئيس للوزراء. أمّا قمّة الأمسية الانتخابيّة فكانت كلمة هاورد الذي أعلن فيها خسارته أمام السيّد كيفين راد، وهنّأه على انتصاره الساحق، ثم شدّد على عظمة الديمقراطيّة التي تنعم أستراليا بها، وقال إنّه مدين لحزبه أكثر من أنْ يكون حزبه مديناً له.

ترقّب الأستراليّون تلك اللحظة، أي مجيء مساء الرابع والعشرين من هذا الشهر، بشغف لمعرفة مصير رئيس الوزراء والائتلاف الحاكم المكوّن من حزب الأحرار والحزب الوطنيّ، والذي مضى على وجوده ما يناهز الأحد عشر عاماً. رئيس الوزراء، أي الحاكم الفعلي للبلاد، ومدير عجلاتها الاقتصاديّة والسياسيّة، جون هاورد، استطاع العودة إلى الحكم ثلاث مرات بعد انتخابه الأوّل، على الرّغم من سلسلة الأكاذيب التي سبكها مثل اتهام العراقيّين برمي أطفالهم في المحيط من المراكب التي استقلوها للّجوء إلى أرض أستراليا، ورغم مشاركته في الحرب على العراق، التي

أرساها مع شركائه الأميركيّين والبريطانيّين على ذريعة أسلحة الدمار الشامل. ولعلّ لعبه بمشاعر الناخبين بشأن الإرهاب الدوليّ جعلهم يتغاضون عن تلك الأكاذيب، ويفضّلون ما يبدو لهم على أنّه رجل حاسم قويّ وحليف أكيد للولايات المتّحدة. ولا بأس إنْ شبّهه البعض بأنّه كلب بوش المدلّل، غير أنّ السبب الأهمّ، لا شك، هو الازدهار الاقتصاديّ لأستراليا، خصوصاً حين تقارن مع بقيّة الدول الواقعة في أعلى هرم البحبوحة.

لكنْ لا بدّ أنّ بعض الناخبين تساءل ما نفع البحبوحة التي ترجمها حكم هاورد إلى فائض هائل في الموازنة، دون أنْ تؤدّي عملياً إلى تحسين وضع الكادحين الذين يواجهون تزايداً في أسعار الفائدة والسلع والخدمات، ويزداد عجزهم عن تسديد أقساط ديون منازلهم، حتّى أنّ البعض لم يعد قادراً على تحقيق الحلم الأستراليّ العتيد، ألا وهو شراء منزل للسكن.

ما الذي جعل الناخب الأستراليّ هذه المرة يختار حزب العمال؟ يعتقد كثيرون أنّ العمال فشلوا في الانتخابات السابقة في تقديم بديل كفيّ من هاورد. أمّا هذه المرة، فزعيم حزب العمال الذي فاز في الانتخابات هو كيفين راد ذو الشخصيّة الجذّابة، المتمكن من فنّ الخطابة، والمتقن للغة المندرين الصينيّة، والمهتم بالتعليم، والحريص على توقيع اتفاقيّة كيوتو للحفاظ على البيئة، والذي سيعمل على تعديل أو إلغاء قوانين العلاقات الصناعيّة التي وضعها هاورد أخيراً لمصلحة أرباب العمل.

حديث راد لم يحو أيّ أرضيّة عمليّة ثابتة لاقتصاد متين، بل أكّد أنّه سيحقق فائضاً أكبر في الموازنة. هنا يتساءل كثيرون من أين سيأتي بالمال الكافي لتعزيز المرافق الحيويّة والعامّة، وكيف سيحقّق فائض موازنة؟ هل أصبح الناخب الأستراليّ الآن معنيّاً بالعلاقات الدوليّة، والحفاظ على البيئة، وصار يرجّح كفّة الأخلاق على كفّة المنفعة الفرديّة؟ أم هل أدّى سأم الناخب الأستراليّ بهاورد إلى جعل هذا الناخب يختار البديل لمجرد

الخلاص من فئة طال وجودها في نظره؟ هل يريد التغيير لمجرد التغيير؟

برأينا، ليس من جواب واحد شاف. لكنّنا يجب أنْ نلاحظ أنّ العمليّة الديمقراطيّة بطبيعتها تعتمد على التصويت كأساس لإيصال فئة معيّنة إلى السلطة. ومن الطبيعيّ في الأمم المتقدمة في ديمقراطيّتها، مثل أستراليا، أنْ ينتهي الأمر بحزبين يتنازعان السلطة. بعبارة أخرى، من الطبيعيّ أنْ تنتهي اللعبة الديمقراطيّة إلى فرز الشعب إلى فئتين أساسيّتين، هما الموالاة والمعارضة. الديمقراطيّة الحقّة لا تنتهي عند ذلك، بل تتعدى صناديق الاقتراع إلى ما هو أسمى وأهمّ، وهو أنّ الحاكم الجديد، لأيّ فئة انتمى، لا بدّ أنْ يكون حاكماً للأمّة كلّها، أي أنْ ينصت لكلّ الأمّة، ويحاول تحقيق طموحاتها كلّها، كما يجب أنْ يكون عرضة للمحاسبة من جميع وجوهها القانونيّة والأخلاقيّة.

حين قرّر هاورد خوض الحرب على العراق مع حليفه جورج بوش، قام نصف الشعب الأستراليّ وأكثر، يطالبه بالرجوع عن قراره هذا، لكنّه أبى واستكبر. ضرب بعرض الحائط رغبة نصف شعبه على الأقل، وبذلك يكون خان أهمّ قيم الديمقراطيّة، لأنّه آنذاك كان يعتمد على وجوده الانتخابيّ في السلطة ليلغي جوهر كونه المتحدّث باسم البلاد كلها، خصوصاً أنّه لم يكن مضطراً لهذا الاستسلام السافر للإرادة الأميركيّة. كان بإمكانه أنْ يبقى الحليف الأكبر للولايات المتّحدة التي تحتاجها أستراليا، دون أنْ يكون ذيلها الأكبر. كان بإمكانه أنْ يفعل ما فعلته نيوزيلندا وكندا.

لا أعني أنّ كلّ هذا هو سبب تحول الناخبين هذه المرة، لكنّنا حين نجد أنّ هاورد يخسر مقعده أيضاً لمصلحة صحافيّة من حزب العمال تدخل السياسة لأوّل مرة، في منطقة محافظة ومرفّهة نسبيّاً، يمكننا أنْ نزداد ثقة بأنّ مشاعر الأستراليّين صارت أكثر صلة بضمير إنسانيّ يتبلور مع مزيد من اطلاعهم على

أحداث العالم من حولهم. ولعلّهم يدركون الآن أكثر أنّ شؤون البيئة والثقافة وأخلاق التعامل مع الغير، هي في صلب المستقبل الاقتصاديّ لأيّ مجتمع في هذا العالم-القرية. لم يعد خفيّاً أنّ الصين اليوم هي أهمّ زبون لأستراليا، وأنّها لو استطاعت لاشترت أستراليا كلها. من هنا تأتي أهمّيّة كيفين راد والفكر "العماليّ" في الانفتاح على العالم والصين بالتحديد، وهو أمر قطع فيه بول كيتينغ، الزعيم العماليّ السابق، أشواطاً.

لم تعد قضيّة الفروق بين العمال والأحرار قضيّة إيديولوجيّة بالمعنى التقليديّ، خصوصاً أنّ النواحي الاقتصاديّة بين الطرفين متشابهة في الجوهر، وقد تختلف في بعض التفاصيل. هل نستطيع القول اليوم إنّ الشعب الأستراليّ بات يدرك أهمّيّة التفكير البعيد المدى، وأنْ لا يصدر حكمه استناداً إلى سعر صفيحة المحروقات فقط؟

ليس لديّ أجوبة حقيقيّة عن تساؤلاتي، لكنّني أجد نفسي أستمتع بحرّيّة هذه التساؤلات استمتاعي بذهابي صباح ذلك السبت مع زوجتي للقيام بواجبنا الانتخابيّ. ومع أنّنا اتجهنا إلى مركز الاقتراع باكراً، ورغم زخّات المطر الربيعيّة، كان رتل الناخبين أطول ممّا ألفناه سابقاً: صفّ منتظم، والكلّ في انتظار دوره دون شغب، حتّى أنّ الأحاديث بين الناس كانت بصوت منخفض مؤدّب. المتطوعون في الحملات الانتخابيّة، من كلّ الأطياف والفئات، انتشروا في المكان يروّجون لأحزابهم ومرشحيهم دون إزعاج. تقترب منهم فيحاولون إعطاءك نشرة بعد الاستئذان منك. يتحاورون ويتسامرون مع بعضهم على الرّغم من الاختلاف السياسيّ.

اللغة إنكليزيّة بلهجة أستراليّة، لكنّ الوجوه أكثر تنوعاً، بين أوروبيّ وصينيّ وهنديّ وعربيّ ورجل وامرأة وشابّ وصبيّة وسبعينيّ وعشرينيّ وما بينهما وما زاد أو نقص. أطفال كثيرون يرافقون أهاليهم، ويضمّ مركز الاقتراع، الذي هو إحدى المدارس،

نشاطات خاصّة بذلك اليوم من شيّ المقانق، وإعداد السندويش، وبيع النباتات، ولعب الأطفال، والصناعات اليدويّة، والرسوم الفنيّة، وغيرها، ممّا يضفي على الجوّ بهجة، ويعطيه حركة.

تتسرب من مساماتي قشعريرة رضا وامتنان لما نحن فيه. أنْ تدلي بصوتك بحرّيّة، وأنت تشمّ رائحة الورود والشواء، وترى لعب الأطفال وانتظام الكبار، هو نعمة الديمقراطيّة. أتذكّر أوّل انتخابات شاركت فيها في أستراليا، وكيف تنفّست عندها أولى هبات نسيم حرّيّة هذا البلد العظيم، ولازلت.

سيدني، تشرين الثاني/نوفمبر 2007

الديمقراطيّة الأستراليّة:

أكثر من مجرّد صندوق الاقتراع

كان التاسع والعشرون من تشرين الثاني 2007 استمراراً لمسيرة الديمقراطيّة الأستراليّة الفذّة، فاستقبل رئيس الوزراء المهزوم، السيّد جون هاورد وعقيلته، رئيس الوزراء المنتخب، السيّد كيفين راد وعقيلته، في مقر الإقامة الرئاسيّة لتجري عمليّة تسليم المقر. وشهد الأستراليّون، على شاشات التلفزة، العائلتين في جلسة وديّة جمعت الخصمين بعد حملة انتخابيّة ضارية استمرت شهوراً استطاع بعدها كيفين راد (خمسون عاماً) الانتصار على واحد من جهابذة السياسة الأستراليّة المخضرمين، كما شهد هذا اليوم تسمية راد أعضاء وزارته الجديدة، وهي المرّة الأولى التي يقوم فيها رئيس عمّاليّ بتكليف الوزراء بنفسه على أساس الكفاية، دون إرضاء الزمر المتنافرة ضمن الحزب، وتعيين وزير لكل منها تطييباً للخواطر، كما جرت عادة أسلافه.

اختار راد جوليا غيلارد نائبة لرئيس الوزراء، وحمّلها حقائب التربية والتوظيف والعلاقات الصناعيّة. وهي أوّل امرأة تتسلم منصب نائب رئيس الوزراء في تاريخ أستراليا، ولا نستبعد أنْ تكون في المستقبل أوّل امرأة تصل إلى رئاسة الوزراء، فهي شخصيّة لامعة على الصعيدين الإنسانيّ والمهنيّ. وتشترك مع السيّد راد برؤية مستقبليّة ترتكز على تعزيز الثقافة والارتقاء بالتعليم إلى أعلى المستويات على وجه الأرض. وأوكلت الخزانة إلى واين سوان، الذي سيشكل مع وزير المال ليندسي تانر

ومساعديهما فريق عمل اقتصاديّاً رفيع المستوى كما أوحى راد. وتوزّعت بقيّة الحقائب على نخبة من ألمع شخصيّات الحزب.

في غضون ذلك انهمك حزب الأحرار المهزوم في إعداد فريق عمل المعارضة بعد تنحّي جون هاورد ونائبه بيتر كوستيللو، فانتُخب الدكتور برندان نلسون رئيساً للحزب، بعد منافسة على هذا المنصب مع مالكوم تيرنبل الذي يتنبأ الجميع بأنّ رئاسة الأحرار ستؤول إليه عاجلاً أم آجلاً. وجدير بالذكر أنّ تيرنبل هو أكثر السياسيّين ثراء في أستراليا، لكونه واحداً من أهمّ رجال الأعمال. وحَظيَت جولي بيشوب بمنصب نائب رئيس المعارضة. ولا شكّ أنّ أمام هذا الحزب المهزوم عمليّة ترميم طويلة الأمد. لكنّ أحداثاً أستراليّة أخرى بارزة حصلت بين يوم الانتخابات في الرابع والعشرين واليوم. وهي، إنْ لم تكن أحداثاً انتخابيّة بحتة، تبقى ذات أهمّيّة ديمقراطيّة رئيسة. مثلاً في السابع والعشرين من الشهر الحاليّ توقّفت حياة السيّد بيرني بانتون عن واحد وستين عاماً. وبانتون هو أحد ضحايا مادة الأسبيستوس المسرطنة والمسبّبة لالتهابات رئويّة مزمنة، والتي كانت تستخدم في عديد من المجالات العمرانيّة والصناعيّة التي كان لشركة جايمس هاردي، الشركة التي كان بانتون يعمل لدى أحد فروعها، باع طويل فيها. وصادف أنّ هذا الأسبوع هو أسبوع "التوعية بمخاطر الأسبيستوس"!

كرّس بانتون حياته للحصول على حقّه وحقّ أمثاله من المتضررين صحيّاً من جرّاء عملهم لدى الشركة المذكورة التي حاولت عبر سنين طويلة حرمانهم من هذه الحقوق بلجوئها إلى وسائل شتى، بما في ذلك طمس الحقائق واتباع أساليب رخيصة. لكنّ تصميم بانتون أدّى بالنتيجة إلى تخصيص صندوق تعويضات قيمته أربعة مليارات دولار، وتوّج أعماله بمساعدة المصابين بالسرطان الناتج عن الأسبيستوس الحصول بسرعة على العقاقير التي تخفّف آلامهم، وربّما تطيل حياتهم.

نذكر جيّداً مع كثير من الأستراليّين بانتون حين كان يظهر في مقابلاته التلفازيّة وأنابيب التنفس معلّقة على وجهه. استطاع الحصول على تعويضات من الشركة المذكورة، وكان آخرها قبل أيّام من وفاته. يجمع كلّ من عرفه أنّه مات قرير العين، لا لحصوله على ما مسّه شخصيّاً فقط، وإنّما لما حقّقه لأمثاله بفضل حملاته المتلاحقة ضدّ الشركات. هذه الحملات تتطلب بطبيعتها شحذ الرأي العامّ، وتوظيف المحامين، وحضور المحاكمات، وعقد الندوات والمؤتمرات الإعلاميّة، بغية كشف الحقائق وإحقاق العدل، وبالتالي المحاسبة. كلّ هذا لا يمكن أنْ يحصل دون مناخ تتوافر فيه حرّيّة التعبير، واستقلال القضاء، وتكريس المحاسبة.

وللمناخ الديمقراطيّ الأستراليّ فضل علينا جميعاً لأنّ اعتماد مبدأ المحاسبة في ظل قضاء مستقل، هو من أهمّ دعائم الديمقراطيّة، بل هو ما يعطي الديمقراطيّة روحها وفاعليّتها، لأنّه الطريق إلى العدالة والمساواة. صحيح أنّ أستراليا لا تخلو من العيوب، بما في ذلك فساد بعض الأفراد أو الجهات، لكنّ واقع الأمر أثبت أنّه مهما طال الزمن، يأخذ الحقّ مجراه ويلوي ذراع أهمّ المتنفذين. مثال ذلك ألان بوند، أحد أكبر رجال الأعمال في تاريخ أستراليا، الذي كان مرّة بطلاً وطنيّاً لفوز يخته بالمرتبة الأولى في سباق كأس أميركا في بداية الثمانينيات، وكانت المرّة الوحيدة التي استطاعت فيها أستراليا إحراز هذه المرتبة، والتغلّب على الولايات المتّحدة. لكنْ حين تبيّن أنّ بوند أساء الأمانة في شركاته، مَثُل أمام المحاكم، شأنه شأن أيّ مواطن عادي، وحكم عليه بالسجن، ومنعه من إدارة الشركات لأجل محدّد. وهكذا تهدّمت أمجاده، وقضي على ما تبقّى من مستقبله المهنيّ.

ومثال آخر هو سمسار الأسهم والمضاربات السيّد رنيه ريفكين، الذي كان يعتبر أهمّ مضارب في الأسهم في أستراليا، وكان شخصيّة محبّبة، يعشق الحياة، وينعم بالمكاسب التي كان

يجنيها، سواء في قصوره أم على ظهر مراكبه. تبيّن مرّة أنّه أخلّ بشروط المهنة من حيث تضارب المصلحة، ما أدّى إلى محاكمته وسجنه، ثم إصابته باكتئاب أدى إلى انتحاره. لم تنفعه معارفه ولا أمواله ولا يهوديّته (ونذكر هذا هنا لمجرّد التذكير أنّ القانون لا يعمل لمصلحة فئة معيّنة مهما أشيع عن سطوتها ونفوذها).

هذه الأمثلة تدلّ على أنّ الديمقراطيّة متغلغلة في نسيج المجتمع الأستراليّ، لكنّ الطموح يتجه دوماً إلى تحسين الأداء، والتخلص من الشوائب، والتقليل من المعاناة التي يحتاجها الإنسان في سبيل ممارسة ديمقراطيّته. مثلاً ما نفع الديمقراطيّة ومبدأ المحاسبة، إذا كان النظام الرأسماليّ يعني أنّ الإنسان العاديّ قد لا يستطيع تكلّف أعباء المحامين؟

خصّ كيفين راد، في الكلمة التي ألقاها لمناسبة فوزه، بانتون بالذكر فقال عنه إنّه رمز للحقّ والخلق والتمايز. وتوجّه إلى الأمّة قائلاً: 'ليس العاملون سلعاً اقتصاديّة، بل هم بشر يستحقّون ويستوجبون الاحترام والرعاية والاهتمام، مهما كانت طبيعة أو مكان عملهم.'

إنّ وعي قائد البلاد لهذه النواحي البشريّة يجعلنا نأمل في أنْ تكون قيادته الجديدة زيادة في توظيف الوسائل الديمقراطيّة في خدمة مبادئها السامية، لا العكس، كما هي حال معظم الديمقراطيّات التي تنهمك في أصول اللّعبة، وتنسى أنّها وُضعت أصلاً لخدمة البشر.

سيدني، 2007

الاستقامة السياسيّة

ليست مادة دستوريّة

تسلّم كيفين راد، في الثالث من الشهر الجاري، مهمّاته بصفته رئيس الوزراء السادس والعشرين لأستراليا الفتيّة، وكان أوّل ما قام به هو التوقيع على اتفاقيّة كيوتو للحدّ من الانبعاثات الغازيّة الضارّة بالبيئة التي من المتوقّع التصديق عليها من ضمن جدول أعمال ندوة التغيّرات المناخيّة المنعقدة في بالي.

كان تصميم راد على الدخول شريكاً مع المجتمع الدوليّ في هذه الاتفاقيّة في صلب حملته الانتخابيّة كجزء مهمّ من رؤيته المستقبليّة لأستراليا. وفي توقيعه يؤكّد أنّه يريد قرن الرؤية بالفعل، ولا بأس أنْ نعتبر هذه الخطوة هديّة راد الأولى للشعب الأستراليّ الذي أكدّ بانتخابه المعارضة أنّه ملّ الوعود التي كان يتبجح بها الحكم السابق بقصد الاستهلاك السياسيّ، ثم لا يفتأ يتراجع عنها. الرهان الآن إذاً هو على قائد فتيّ الأفكار، مصمّم على عدم فصل القول عن الفعل، قائد يعتبر أنّ النيّات بالأعمال. التحدي الكبير الذي يواجهه راد هو ما إذا كان سيستطيع الاستمرار في توظيف أفكاره التي طرحها في مشاريع عمليّة يترجمها لمصلحة مزيد من تقدم الأمّة الأستراليّة.

يُعتبر تأكيد راد على الثقافة والتربية والتعليم، كعناصر أساس في اتجاهاته السياسيّة، نقلة نوعيّة مهمة في الثقافة السياسيّة الأستراليّة التي تعمد دائماً إلى اعتبار الاقتصاد أهمّ عناصرها. ولا نعتقد أنّ راد وحزبه، حزب العمّال، غافلان عن

حقيقة أنّ الاقتصاد يبقى أهمّ شأن من شؤون الحكم، فمن دونه لا يمكن المباشرة بأيّ برنامج مهما تسامت أهدافه، ونعلم أنّنا ندفع الدولار ثمناً للرغيف، ولا نجد خبّازاً واحداً في هذه البلاد يمكن أنْ يبيعنا كسرة خبز بقصيدة شعر! لكنّ الخوف كلّ الخوف هو من سموّ الطروحات إلى درجة العقيدة، ما يجعلها عرضة للاستهلاك السياسيّ بتخدير الشعب الذي يبغي الارتقاء بأبنائه إلى أقصى درجات العلم، فينساق مع وعود قد لا يكون لها أيّ أساس من وسائل التحقيق. نحن لا نقول إنّ هذا منهج الحكومة الجديدة، لكنْ يحيّرنا طرحها أنّ كلّ تلميذ يجب أنْ يحصل على حاسوب، بينما نعلم أنّ هذا الامر محقّق فعلاً في هذه البلاد، حسبما يردّد المعلقون.

على الرّغم من هذا، نقول لا بأس. التركيز على الثقافة ومحاولة استمرار دعمها، حتّى لو كان الأمر مشوباً بالاستهلاك السياسيّ، أفضل بكثير من الوقوع في فخ الأكاذيب التي دأب بعض عناصر الحكومة السابقة على شنّها، خصوصاً ما يتعلّق بقضايا اللاجئين والإرهاب والمشاركة بالحرب على العراق.

وعدَ راد بسحب جنودنا من العراق، وفي هذا تحدّ كبير للإدارة الأميركيّة، كما هو التوقيع على اتفاقيّة كيوتو، لأنّ أستراليا بتوقيعها تترك الولايات المتّحدة الدولة الوحيدة، بين أهمّ الدول اقتصاداً في العالم، دون توقيع. ليس سهلاً على أي زعيم أستراليّ أنْ يتخذ مثل هذا الموقف. وجدير أنْ نذكر أنّ أستراليا ملتزمة أصلاً بحدود الانبعاثات الغازيّة التي تمليها اتفاقيّة كيوتو، لكنّ الحكومة السابقة، الموالية تماماً لرغبات الولايات المتّحدة، رأت أنْ تؤازر سيّدتها، مستعملة بذلك حجّة لا تخلو من الأهمّيّة، ألا وهي أنّ التوقيع على الاتفاقيّة يحتّم التزامات مهمة على الدولة الموقعة، ويعرّضها لمخالفات ماليّة في حال توانيها عن التزاماتها. التحدي الجديد الذي يواجه راد إذاً هو هل ستستطيع أستراليا مواصلة الوفاء بالتزاماتها نحو بنود الاتفاقيّة؟ هل سيؤدّي

هذا الالتزام بفقدان كثير من الوظائف، نتيجة الانتقال من صناعات إلى أخرى، إلى الحدّ من الانبعاثات الغازيّة؟

هذه أسئلة واقعيّة، لأنّ الشطارة ليست في طرح الشعارات العقائديّة سواء كانت بيئيّة أم اقتصاديّة أم اجتماعيّة أم ثقافيّة. الشطارة هي في تفعيل الأفكار، وتوظيف الشعارات في خدمة المواطن والبشريّة. والتحدي الكبير الذي يواجه أيّ سياسيّ أو قائد، خصوصاً رجلاً مثل راد، هو إقرار التوازن بين الطروحات وتفعيلها.

نحبّ أنْ نعتقد أنّ راد يملك فكراً مركّباً، ويعمل وفق مبدأ توزيع الاختصاصات من ناحية عملانيّة، دون فقدان النظرة الجامعة في كيفيّة التنسيق بين كلّ هذه الكوادر لاستغلالها في عمليّة بناء متكاملة، يساند المال فيها المرافق التي يجب أنْ يصرف المال عليها. إنّ أفضل فائض للموازنة يمكن رئيس حكومتنا الجديد أنْ يحقّقه ليس مليارات الدولارات في جيب الخزينة المركزيّة كما فعل سابقه، على الرّغم من احترامنا لهذا الإنجاز، بل في صرفه على أهمّ المرافق الحيويّة مثل الصحة والتعليم، دون أنْ يكون هنالك أيّ عجز. أيْ ليس من الضروري الاحتفاظ بهذا الفائض، للتبجّح به أيّام الانتخابات، ظناً أنّه سيعيد الحاكم إلى السلطة. كما رأينا، لم يعد هذا الحاكم إلى السلطة، بل أنّ جون هاورد خسر مقعده النيابيّ، وخرج من عالم شغله سنين طويلة.

الصدقيّة في الديمقراطيّة تتعدى حدود الوفاء بالوعود إلى عمليّة شاملة في تكريس مبادئ المحاسبة والعدالة الاجتماعيّة. وحتّى يرتقي المجتمع إلى هذا المستوى، لا بدّ من تكريس التعليم وعدم اعتباره أمراً مسلّماً به. لا بدّ أنْ يصل التعليم إلى كلّ فئات الشعب بأرقى شكل ممكن. إنّ الكوادر الواعية أكثر، من محامين وأطباء ومهندسين ومعلمين وحرفيين ومهنيين وأصحاب عمل، هي أساس الرقيّ الاجتماعيّ والسياسيّ.

والوعيّ هنا لا نقصد به مجرد حيازة الشهادة العلميّة، بل أنْ يكون من يحوز عليها قد تدرّب أيضاً على أصول توظيفها في خدمة وطنه والبشريّة، بالإضافة إلى خدمة جيبه.

ولعلّ وعي هذه الفئات سيزيد من ضغوطها على الحكومات لوضع القضاء والتعليم والطبّ في متناول الجميع، دون تحطيم موازنة العائلة. ربّما كان كلّ شيء متوافراً في بلد مثل أستراليا، لكنّ الحصول على أيّ شيء له ثمنه في مجتمع حاك نسيجه على القيم الرأسماليّة. نحن لا نعيب ذلك بقدر ما نعيب الخلل في العدالة الاجتماعيّة في بعض جوانب الفكر الغربيّ الذي يركّز كثيراً على النجاح الماديّ للأفراد. لا ننكر أنّ هذا النجاح ضرورة، لكنّنا نسأل: ماذا بعد هذا؟

نأمل أنْ تكون الأجوبة عن هذا السؤال كامنة في توجّه كيفين راد، بل نحن واثقون أنّه لو تيسّر لهذا التوجه الآذان الصاغية نفسها التي ذهبت إلى صناديق الاقتراع، لبقي على عهده، وقام بتنفيذ ما يوحي به من ارتقاء بهذا البلد إلى مراتب أعلى. ولعلّ أهمّ الآذان الصاغية التي يجب أنْ تنفتح الآن هي آذان المعارضة الحاليّة التي تمثل جزءاً كبيراً من الشعب الأستراليّ الذي لم يصوّت للتغيير الحاليّ.

مشكلة المعارضة في بلد مثل أستراليا أنّها تحترف موقعها احترافاً آليّاً، فتقوم أحياناً بالمعارضة لمجرّد المعارضة، حتّى لو كانت الأحكام أو الإصدارات لمصلحة البلد كلّه. ومشكلة الحاكم المنتصر أنّه دائماً يقول إنّه بات حاكماً لأستراليا كلّها، لكنّه يعود فيلقي بعرض الحائط رغبات نصف شعبه الذي لم يصوّت له (كما فعل هاورد حين شارك في الحملة على العراق)، بذريعة أنّ الديمقراطيّة أعطته حرّيّة التصرّف.

إنّنا نعتقد أنّ ممارسة الديمقراطيّة في أستراليا بحاجة إلى نوع من التهذيب، مثلاً بأنْ تقوم المعارضة بمساعدة الحكم إيجابيّاً بحيث تضع فكرها تحت تصرّف الوطن لحل بعض

المعضلات الكبرى بالتآزر، دون التخلي عن مراقبة شذوذ الحاكم إنْ حصل، ومحاسبته. هذا التهذيب لا يمكن أنْ يحصل بمادّة دستوريّة، بل إنّ ما نعنيه هو إرساء قواعد ثقافة عامّة ترتقي بالسياسيّين إلى نوع من الاستقامة السياسيّة يساعدهم على تحقيق صدقيّتهم، سواء كانوا في الحكم أم في المعارضة.

سيدني، 2007/12/07

الحُكومَة الثّقافيّة

لا نقصد من ترداد المبادرات الحميدة لحكومة كيفين راد الجديدة في أستراليا أنْ نسبّح بحمد حكومة لم نختبرها بعد، لكنْ ما يلفت النظر في تلك المبادرات أنّ من أولاها تخصيص جائزة مئة ألف دولار (معفاة من الضرائب) لأفضل قصّة تنشر في العام، ومئة ألف دولار أخرى لأفضل كتاب واقعيّ، ومئة ألف دولار ثالثة لإدارة عمليّة مَنح هاتين الجائزتين. هذا التخصيص الماديّ، الذي أُعلن عنه في الرابع من هذا الشهر، هو أكبر جائزة أدبيّة في تاريخ البلاد، ويضاهي أهمّ الجوائز العالميّة. القيمة الماديّة مهمة جدّاً لأنّها تقول للكاتب المجتهد إنّه سيحصل على مبلغ هو بمثابة راتب سنتين من الدخل المتوسط، ممّا يمكّنه من التركيز أكثر على الإنتاج الخلاّق. أمّا القيمة الأهمّ لهذه الجائزة فتأتي من كونها اعترافاً من السلطات السياسيّة بأهمّيّة الدعم الحقيقيّ للفكر والثقافة (تسمى الجائزة "جائزة رئيس الوزراء الأدبيّة")، ما يتناسب تماماً مع الوعود التي قطعها السيّد راد أثناء حملته الانتخابيّة، والتي تركّز من جملة ما تركّز عليه، على بناء أسس متميّزة للتربية والتعليم. الثقافة هي الروح التي يجب أنْ تدّب في هذه الأسس، لتجعل من كلّ حرفة أداة اجتماعيّة فاعلة متفاعلة.

إعجابنا بهذا الأسلوب الثقافيّ لتوجهات حكومة السيّد راد يأتي من إيماننا العميق أنّ الهدف الأساس لأيّ ديمقراطيّة لا ينتهي عند حرّيّة الاختيار، ونزاهة صناديق الاقتراع. لا بدّ من تفعيل الديمقراطيّة، بحيث تكون الحكومة والمؤسّسات ونتاجها موظّفة في خدمة الجماهير مباشرة .

الديمقراطيّة تضمن حريّة الفكر. ولا بدّ لحريّة الفكر أنْ تضمن الديمقراطيّة. وحتّى تكون كذلك، لا بدّ أنْ تتدرّب هذه الحريّة على الأساليب الملتزمة، لا المتسيّبة. وبما أنّ القيود "خفيفة" في أيّ نظام ديمقراطيّ حقيقيّ كالنظام الأستراليّ، تلعب الثقافة دوراً شديد الأهميّة في صقل التوجّه الجماهيريّ وتهذيبه. وبما أنّ ثقافة الديمقراطيّة ليست ثقافة إجبار أو إكراه أو استعلاء أو محسوبيّة، يقوم الناس بالتعبير عن فكرهم، كلٌّ بوسائله الخاصّة .

الجائزة فعل تحريض على تنافس شريف. وفي الوقت الذي يستطيع فيه المتنافسون من التجار الوصول إلى مرادهم الماديّ بـ"شطارتهم"، لا يستطيع الكتّاب إنجاز هذا الشيء بمجرد المنافسة الشريفة، لأنّ الفكر ليس سلعة واضحة الاستهلاك، ناهيك بتدهور مبيعات الكتب بعد انتشار الوسائل الإلكترونيّة.

الجائزة تخدم غرضين مهمين. الأوّل أنّها اعتراف ضميريّ ورسميّ، من أعلى المستويات، بأهميّة الفكر. الثاني أنّها تترجم هذا الاعتراف إلى فعل واقعيّ بالتعويض على المجتهدين. والجائزة تخدم غرضاً أكثر أهميّة من ذلك: التأسيس لمستقبل يتناغم فيه القول والعمل في "تانغو" أصيل، تكون لأنغامه أصداء تتردّد في جوانب المجتمع كلها.

(أسمع هنا رجع أصداء من أيّام القاهرة، حين كانت عاصمة النور العربيّ، يهاجر إليها أمثال آل أبيض وأطرش لينتشر المسرح وتنطلق أصوات الحرّيّة. وأستذكر بيروت حين انتقل مثل هذا الدور إليها فصبّت فيها عقول الوطن العربيّ الباحثة عن ومضة حرّيّة لتستطيع أنْ تشهق ولو مرّة واحدة دون قيد أو شرط، وصارت عاصمة النشر العربيّ.)

صحيح أنّ السيّد راد يتجه أماماً، لكنّه أحسن في تجديد الأصالة بما يفعل. لو استذكرنا تاريخ المجتمع الذي كان له أكبر فضل على عصرنا العلميّ الحديث (مع عدم إغفال الحقيقة

التراكميّة لإنجازات مختلف المجتمعات البشريّة) لوجدنا الإغريق القدماء بذهنهم الجامع للفلسفة والعلم والأدب والفن والديمقراطيّة في آن واحد. وكمثال آخر عن اجتماع جوانب الثقافة، الرسام ليوناردو دافينشي الذي رسم الكثير من التصاميم العلميّة، وسواء أكانت واقعيّة أم لا، المهمّ أنّ فكر الفنان كان يسبر طريق العلم. وما يحدث الآن في عصر التقانة الرقميّة أنّ فكر المهندسين والعلماء يتجه نحو الفن ليرقى بأسباب الموسيقا الحديثة أو التصوير الرقمي.

"النظريّة" هي أولى مراحل "الطريقة العلميّة". والنظريّة تبدأ بتأمّل أو فكرة يتبعها كثير من التحليل الذهنيّ والفلسفة. المشتغلون في العلم يعرفون أنّ أيّ تجربة علميّة تتضمن تصميماً ورسوماً وفنّاً وتوقيتاً وقياساً وحساباً وتعقيماً وتنظيفاً وتقريراً وكتابة وغيرها. الاختصاصات وسائل "عملانيّة" مرحليّة يتم فيها التركيز على حقل معيّن للوصول إلى نتيجة محدّدة، لا تعمّ فائدتها ما لم تتواصل وتخدم الاختصاصات الأخرى، والمجتمع عامّة.

جائزة رئيس الوزراء الكريمة معنىً ومادةً، تكريس لشموليّة الوجود وتكامله، لأنّها بتركيزها على الأدب تحاول تسليط النور على ركن لا يقل أهميّة عن أركان الثقافة الأخرى.

ولعلّ في هذه الجائزة، المفتوحة لكلّ الأستراليّين الكاتبين بالإنكليزيّة، تشجيعاً لكتّاب من أصول مختلفة، بما فيها العربيّة، على الكتابة باللغة الإنكليزيّة ليكونوا من المسهمين في تطوير هذا الوطن الذي اختاروه، على غرار ما فعل بعضهم، نذكر مثلاً في حقل الرواية عبّاس الزين وجاد الحاجّ ولبنى هيكل، وفي حقل الكتابة الواقعيّة سيسيل يزبك.

مبادرة السيّد راد وحكومته مبادرة ديمقراطيّة بالمعنى الأنيق للديمقراطيّة، والمبنى التطبيقيّ لها.

"الجَنتلمَان المُثقّف المتغَرّب"

وعَولمة الديمُقرَاطِيّة

يستمرّ العالم اليوم في تخبّطه الفكريّ والماديّ. نحن في فترة ارتباك صار يصعب فيها التمييز بين الصيّاد والضحيّة. ومع هذا يستمرّ بعض المجلاّت الفكريّة والأدبيّة بالصدور، وتزدهر الحركات الفنيّة في كثير من بقاع العالم، وهذا شهادة إيجابيّة بعدم فقدان الأمل بأن الفترة التي ستلي فترة التقلّب هذه يمكن أنْ تولّد بعض المسؤوليّة في قلوبنا وعقولنا. لعلّ صحوة ما ستدبّ فينا، وتسمح لنا بالبناء على وعينا لحكمة عدم جدوى استمرار النزاعات، على الرّغم من حتميّتها الموقّتة، أو ما خيّل لنا أنّه حتميّة.

نؤمن أنّ وعياً كهذا لا يمكن أنْ يُترجم عمليّاً إلاّ إذا بُني على مبادئ العدالة العالميّة، اجتماعيّاً، واقتصاديّاً، وسياسيّاً، وأخلاقيّاً. يجب أنْ لا تقتصر مبادئ الديمقراطيّة، في عصر العولمة هذا، على الدول التي تتباهى بتطبيقها. يترتب على هذه الدول الآن تقديم دعم حقيقيّ للدول الأخرى الأقلّ حظّاً في هذا المضمار. وعلى هذه الدول أنْ تتوقّف عن الادّعاء أنّ ديمقراطيّتها تختلف عن ديمقراطيّات الغرب، وأنّ أيّ مساءلة تأتيها حول هذا الموضوع، إنما هي تدخّل في شؤونها الداخليّة. (يختلف تطبيق الديمقراطيّة بين دولة وأخرى حتّى في الغرب، لكنّ الجميع يقبل بضرورة وجودها.)

الديمقراطيّة كما تطبّق في الغرب أتت وليدة كفاح تاريخيّ طويل. و"العقد الاجتماعيّ" وليد حقبة سبقت تأسيس

الديمقراطيّات الغربيّة الحاليّة بفترة طويلة. جوهر المبادئ الديمقراطيّة لا يختصّ بالغرب، ويجب ألاّ يبقى حكراً عليه. إنه مطلب إنسانيّ لتعزيز الحرّيّة والتعايش المشترك. الديمقراطيّة، بمفهوميها الفكريّ والماديّ، لا يمكن تجزئتها. إمّا أنْ تتوافر الديمقراطيّة، وإمّا لا. لا توجد أنصاف حلول. أولئك الذين يقترحون وجود أنصاف حلول، هم عادة من يقاوم تطبيق الديمقراطيّة، لأنّهم في الغالب سيخسرون مراكزهم التي أحرزوها بطغيانهم، أو وسائلهم غير القانونيّة. هم، في عصرنا الحاضر، حكّام لدول غير ديمقراطيّة صاروا يشعرون بالحاجة إلى التغيير، لكنّهم ما زالوا غير عازمين، أو قادرين عليه، بسبب رضوخهم لتأثيرات دينيّة أو ثقافيّة هائلة.

الديمقراطيّة لا تختصّ بالانتخابات الحرّة فقط. الديمقراطيّة تعني الأفكار الحرّة، والمسؤوليّة، والمحاسبة. لا يمكن أنْ يكون الغرب ديمقراطيّاً فيما يتابع تعامله مع الديكتاتوريين لمكاسب استراتيجيّة أو اقتصاديّة. هذا يصبح نفاقاً ("هيبوقراطيّة" بلغة الغرب). كما أنّ هذا يجلب كوارث مثل التي نعيشها اليوم في العراق وفلسطين، بحيث تصبح معالجة هذه المشاكل المصطنعة مكلفة للغاية.

لايمكن أنْ يكون الغرب ديمقراطيّاً إذا اعتقد أنّ الطريقة الغربيّة في الحياة هي الأفضل والأوحد، فمن سِمات الديمقراطيّة الاعتراف بالفروق وتقديرها حقّ قدرها، ويكون تطبيقها الفعليّ بالتأكّد من أنّ هذه الفروق تسهم في رفاهيّة البشر. هذا يعني استغلال هذه الفروق في إغناء حياتنا على الأرض. التنوّع يعطينا حظاً أوفر من الإبداع. لو كان العالم متماثلاً لانتهى. ما يجب أنْ نسعى له هو التناغم، وليس التماثل. التماثل يقضي على مبادرة الأفراد والجماعات، بينما التناغم يفيد من هذه المبادرات المختلفة باستغلاله لجوانبها الخلاّقة.

المطّلعون على مبادئ التطوّر الحياتيّ (النشوء والارتقاء) يعلمون أنّ تنوّع الحياة على الأرض إنّما جاء نتيجة لحصول التغيّرات والطفرات. صحيح أنّ الحمض الريبيّ النوويّ موجود لدى كلّ الكائنات الحيّة، إلاّ أنّ اختلاف الأنواع واعتمادها على بعضها مذهل حقاً! وكذلك، على الرّغم من وجود بعض المعايير المهمة المشتركة ضمن النوع البشريّ، تنشأ تعقيدات كثيرة حين نأخذ بعين الاعتبار تأثير "الوعيّ" على إدراكنا للأمور. ولّد هذا التأثير قابليّة تاريخيّة لدى البشر في التحكّم بفكرهم بطريقة تجعلهم يتبنون معتقدات أدّت ببعضهم إلى اعتبارها "حقائق مطلقة". هذه الفئة من البشر هي أشدّ من سيعارض، بشراسة، تطبيق الديمقراطيّة لأنّها تعتقد أنّ طريقتها هي الطريقة الصحيحة دون غيرها من الطرق. لا يمكن أنْ توجد في المجتمع الديمقراطيّ طريقة صحيحة واحدة. ولهذا تكون إدارة المجتمع الديمقراطي علمانيّة بالضرورة.

الديمقراطيّة لا تكون كاملة أو تطبّق بشكل صحيح لمجرد أنّ بعض المجتمعات الغربيّة ينعم بها، لكنّ العمليّة الديمقراطيّة بحدّ ذاتها، حتّى على مستوى الانتخابات الحرّة كأساس "اللعبة الديمقراطيّة"، قادرة على إحداث تغييرات سلميّة إذا كانت تلك رغبة الناخبين. والأهمّ من ذلك، وعلى الرّغم من أنّ الفساد قد يوجد في أفضل المجتمعات الديمقراطيّة، تتوافر وسائل المحاسبة، وهنا تصبح أهمّيّة القضاء المستقل حسّاسة وأساس في دعم العمليّة الديمقراطيّة لتتخطى مجرد اللعبة الانتخابيّة.

لم يعد المناخ العالميّ الحاليّ ملائماً للعرب الذين تركوا بلادهم للعيش في الغرب موافقين أم مكرهين. يوجد معظمهم جسديّاً على أرض غربيّة، لكنّه مازال يقطن في موطنه الأصليّ فكريّاً. ومن المتناقضات أنّ بعضهم لا يجد غضاضة من التنعّم بماديّات الغرب، لكنّه يبقى غير سعيد في حياته الفكريّة

الاجتماعيّة الجديدة. ويحلّ مشكلته بالحنين إلى الوطن، حالِماً بأرض لم يعد لها وجود كما سبق أنْ عرفها. ومع هذا يشعر البعض بتعرّضه للتمييز ضدّه. هذا الشعور له ما يبرّره أحياناً، ولكن ليس دائماً. قد يكون هذا، بالنسبة إلى البعض، من صنع يديه. بعبارة أخرى، عزلهم لأنفسهم عن مجتمع يعتبرون أنّه لا تربطهم به أيّ صلة.

أمّا المثقفون العلمانيّون الذين تبنوا الغرب كوطن بديل، فلا يبدو أنّ هناك حلاً لمشكلتهم. كان اختيارهم بحريّتهم، وليس بإكراه. وهم ليسوا فقط على تناقض مع مجتمعاتهم الأصل، بل مع مجتمعاتهم المتبنّاة أيضاً. من السهل أنْ ندرك سبب تناقضهم مع مجتمعهم الأصل، فلولا ذلك ما غادروه. ولكن ما سبب تناقضهم مع مجتمع اختاروه بحرّيّة؟

سببان يؤثران سويّاً، أو كلاً على حدة. الأوّل، هو أنّه ضمن المناخ العالميّ الحاليّ صار الغرب أكثر شكّاً، وأقلّ ثقة بالعرب والمسلمين، بسبب الميل الساذج لإضفاء صبغة واحدة على الجميع. الثاني، هو أنّ هؤلاء المثقفين أنفسهم قد أصيبوا بخيبة أمل بالغرب الذي يكيل بمكيالين، ويعتمد الكذب والتضليل (أو على الأقل المعلومات التي لا تستند إلى دليل) لتبرير أعمال قام بها أخيراً. مثلاً، لا شكّ أنّها صدمة كبيرة لأيّ شخص تصدّى لنظريّة المؤامرة، وحاول إقناع جماعته أنّ الولايات المتّحدة لا يمكن أنْ تكون مصدر الشرّ كله في العالم، أنْ يُواجَه باستخدام الولايات المتّحدة حجّة أسلحة الدمار الشامل لتبرير غزوها المتسرع للعراق، وصدمة أيضاً أنْ يحاول المرء الدفاع عن كرامة التربة الأستراليّة، ويتعامل بعقلانيّة مع قوانين الهجرة الأستراليّة، ممّا يتفق ومصلحة الحكومة الأستراليّة، ليفاجأ بعدها بإساءة هذه الحكومة معاملتها للمحتجزين من طالبي اللجوء، وتضليلها الرأي العامّ بادعاء أنّ بعض القادمين على المراكب قام برمي أولاده في البحر، وهو في انتظار قرار الحكومة الأستراليّة حول وضعه.

وفي محاولة منه الحفاظ على قواه العقليّة (أو على سذاجته) يخسر هذا "الجنتلمان المثقف المتغرّب" (مقارنة مع "الجنتلمان الشرقيّ المتغرّب") على الوجهين. ولكن ربّما، في نهاية المطاف، يمكنه (وهو صاحب ذهنيّة عالميّة، وليس غربيّاً بالتحديد) أنْ يكسب الجولة الأخيرة، حين تفرض حتميّة العولمة نفسها على كلّ أصقاع الأرض، ويكون العالم جاهزاً لتطبيق نواحيها الإيجابيّة، وبالتحديد التناغم في تقسيم موارد الأرض بطريقة عادلة أخلاقيّاً، وفكريّاً، واجتماعيّاً، واقتصاديّاً، وسياسيّاً، وديمقراطيّاً. نعتقد أنّ هذا سيحصل بالضرورة، وليس بإرادة الولايات المتّحدة.

كُتّاب الأحداث العالميّة وقرّاؤها شركاء في مسؤوليّة تحقيق الديمقراطيّة العالميّة، أو بعبارة عصريّة: عولمة الديمقراطيّة.

2004/07/23

السَيفُ المَنْسِيّ

يعاني المثقّف المنحدر من أصول عربيّة، والذي اكتسب جنسيّة غربيّة، من حالة تمزّق لم يسبق لها مثيل خلال الخمسين سنة الأخيرة من الصراع العربيّ-الإسرائيليّ الذي يتخذ الآن صورة امتداد للصراع الصليبيّ-الإسلاميّ الذي يبدو أنّه لم ينته بعد، وأنّ نظام العالم الجديد قد تمّ اختطافه من قبل الجبروت الأميركيّ بتهليل كبير من الصهيونيّة العالميّة، وبتحريض خفيّ منها.

ولو أنّ المسألة ببساطة ما طرحه بوش الابن، أي "إمّا معنا وإمّا علينا" (وهو الذي ذكر أيضاً أنّها حملة صليبيّة)، لكان الأمر سهلاً على أيّ شخص جعل من الغرب موطنه، فإمّا ينسجم مع ولائه الكامل لذلك الوطن، وإمّا يرحل، أو يتحوّل إلى مشاكس أو إرهابيّ. لكنّ معظم المثقفين المنحدرين من أصول عربيّة لا يختلف عن معظم الغربيّين في إيمانه بأنّ الديمقراطيّة الحقيقيّة إنّما هي ديمقراطيّة العدالة الإنسانيّة. لا معنى لتطبيق الديمقراطيّة على فئات من البشر وحرمان فئات أخرى منها مهما كانت الحجج المستعملة، والتي تستند أحياناً إلى أمور عرقيّة، أو ثقافيّة، أو دينيّة، أو طبقيّة، كما أنّ الديمقراطيّة تفقد معناها إذا لم تقترن بالمحاسبة وتطبيق القانون على الناس سواسية.

وبعبارة أخرى، كون المثقّف المنحدر من أصل عربيّ اختار الحياة في بلد يعتبره ملاذه ووطنه، لا يعني أنّه يوافق على كلّ مجريات الأمور في ذلك البلد. وهذا تماماً حال أيّ مثقّف آخر، من أصول أخرى، أو من سكان البلاد الأصليّين، أو المهيمنين.

أوليس الاختلاف في الرأي، وحرّيّة التعبير عن هذا الاختلاف، أصلين من أصول الديمقراطيّة؟ إذاً لماذا تقوم الدنيا وتقعد حين يقف العربيّ أو المسلم الغربيّ ليمارس حقه الديمقراطيّ؟ وكون المثقف المنحدر من أصل عربيّ لا يوافق على بعض ما يجري في بلده الحاليّ، لا يعني أنّه يؤيّد كلّ ما يجري في بلده الأصل. إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنّنا نعود إلى مبدأ "إمّا معنا وإمّا علينا".

لكنْ حتّى نكون منصفين، لا بدّ من ملاحظة أنّ الذهنيّة العربيّة زاخرة أيضاً بمثل هذه المواقف الساذجة فكريّاً، الفعّالة عملانيّاً (أي تجنيد الجماهير حولها كما فعل هتلر، ويفعل بوش حاليّاً، مع اختلاف الأسباب). يتداول بعض العرب أفكاراً مثل: "أنا وأخي ضدّ ابن عمّي، وأنا وابن عمّي ضدّ الغريب". ووفق هذا المبدأ القبليّ، الذي ربّما كانت له مبرّراته في الماضي، يقف العربيّ مع ابن عمّه ضد الغريب، بغض النظر من منهما على حقّ. ولعلّ معظم الشعب العراقيّ يكره، كأيّ شعب آخر، وجود قوّات غريبة تحتل أرضه وتقرر مصيره، رغم خلاصه، على يد تلك القوات، ممن يعتبره طاغية من أعتى الطغاة، وأشدهم شراسة وظلماً. كان من الأفضل، بالطبع، لو استطاع هذا الشعب تخليص نفسه بنفسه، ليحفظ كرامته ويدرأ عنها خطر طغاة جدد يلبسون أردية الإنسانيّة والديمقراطيّة، وينشرون شائعات الاهتمام بالثروة النفطيّة، فيما واقع الأمر كسر ظهر العراق، ومعه الأمّة العربيّة بأكملها، وإعادة تكوين استراتيجيّة المنطقة بما يتفق مع الأهواء الصهيونيّة.

ويتساءل المثقّف المنحدر من أصل عربيّ إنْ كان على الشعب العراقيّ أنْ ينتظر مئة سنة أخرى، على الأقل، إذا استمر سيناريو الحكم على وضعه، أي بعد توريث صدّام ابنه مقاليد الأمور، وتوريث الابن ابنه، قبل حصول معجزة تغيّر النظام أو الذهنيّة المهيمنة. إذا أردنا الاعتماد على تجربة خمسين عاماً من العمل العربيّ، نرى أنّ إمكان التغيير الذاتيّ شبه مستحيل،

خصوصاً أنّ البيئة العربيّة المحيطة تتشابه في انعدام الديمقراطيّة، أو على الأقل عدم إتاحتها لشعوبها الحصول على ما تريد. وهناك من أعلن أنّ التدخّل يجب أنْ يكون من طريق الأمم المتّحدة، لكنّنا نعلم أنّ الأمم المتّحدة هي نتاج السيطرة الأميركيّة على أيّ حال. هل كانت ستختلف عواقب الأمور على الشعب العراقيّ، وإن أجمع الكلّ أنّ هذا هو الحلّ الأفضل؟

من السهل أنْ نذمّ الأميركيّين، ونستمر في لوم الصهيونيّة، ونلعن الشيطان، ولكن هل حاولنا إعادة النظر في تصرّفاتنا وأنظمة حياتنا؟ هل فكّرنا أنّ الذهنيّة الاستبداديّة التي تخيّم على حياتنا العائليّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، لا تترك مجالاً للإصلاح، ولا تساعد على فرز حكومات جيّدة، ولا تسلحنا بما يمكن أنْ ندافع به عن أنفسنا؟ بعبارة أخرى، يجد المثقّف المنحدر من أصل عربيّ (ولا ندّعي التكلّم باسم الجميع) أنّه غير قادر على الدفاع الذهنيّ (بالأصل هو بعيد عن الدفاع العمليّ لأنّه بعيد عن وطنه الأصل) عن تصرّفات شعوبه. وحتّى لو لم يقبل التدخل الأجنبيّ في شؤون بلاده الأصل، لايملك بديلاً سوى الطروحات الإنسانيّة التي يتشارك بها مع غيره من النخبة العالميّة من المثقفين، بما في ذلك بعض المثقفين من الإسرائيليّين ويهود العالم، الذين يعارضون النظام الحاليّ المسيطر على البشريّة. ولكنّ مشكلة هؤلاء المثقفين أنّهم معزولون في زاوية ما يسمى "المثاليّة"، لأنّ الفكرة السائدة بين بني البشر هي تلك التي تتأثر بالعرق أو الدين أو القبيلة، أكثر من فكرة العلمانيّة، أو حتّى العولمة التي لا مناص منها في عصر التواصل الضوئيّ الذي نحياه. وكما ألمحنا آنفاً، إنّ كون العولمة اختُطفت ممن هو غير مؤهل لقيادتها، لا يقلّل من أهمّيّتها الأساس. هذه الأهمّيّة، برأينا، نابعة من كون العولمة، عمليّاً، لم تبدأ حديثاً بقدر ما تجلت لوعينا في السنين الأخيرة، نتيجة لتقدم وسائل الاتصال.

العولمة ليست ذات بداية أو نهاية! يمكننا اختيار محطات تاريخيّة كمعالم، أو مؤشرات، للتأكيد على استمرار العولمة، منها: "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..."، أو تجربة الحضارة الأندلسيّة وغزارة التبادل الثقافيّ والعلميّ والفنيّ فيها (يدخل ضمن هذا الإطار العبارات الشهيرة لولاّدة بنت المستكفي على حاشية ثوبها)، وحديثاً طلبُنا للعلم في بلاد مختلفة، واقتناؤنا لوسائل الإعلام والاتصال، بما فيها البريد الإلكترونيّ. وبالنسبة إلى من هو من جيلي، بدأت العولمة حين خلع والدي طربوشه، بل حين وعيت على الدنيا والناس من حولي تتبرج بالثياب الأوروبيّة، ونحن نعيش في دمشق، أقدم عاصمة حيّة في التاريخ، عاصمة الأمويّين الذين بفضلهم بُني الأسطول الذي كان منفذ العرب لفرض نفوذهم على العالم. نقطة أخرى من نقاط العولمة.

يعلم الجميع أنّ التعليم والتثقيف هما مفتاح صقل الشعوب، والطريق إلى التفاهم البشري. سيطر على التعليم العربيّ استبداد السلطة في نشر ما تريد نشره على هواها، وحسب ما يتوافق مع اتجاهها. أدّى هذا إلى كبت ذهنيّ كبير، وغسل للأدمغة التي صارت مشلولة ضيّقة الأفق، أي غابت الموضوعيّة عن معالجة الأمور، ومع غيابها غُيبت كلّ الأفكار التي لا تتوافق مع أفكار من يضع منهج التعليم. لذلك نرى أنّ هناك تقصيراً كبيراً في تثقيف الجماهير في فنّ إعمال العقل وحرّيّة الاختيار والتعبير. نركز على هذه الناحية لأننا ندرك أنّ الظروف الصعبة، التي تمرّ بها الشعوب أحياناً، تحتاج إلى هذا النوع من التثقيف، لأنّه إذا غاب، تتحول الحرّيّة إلى انفلات، والديمقراطيّة إلى فوضى. الحرّيّة بلا صون تتلاشى. وحتّى تُصان الحرّيّة، لا بدّ من تعلّم فنّ صونها، وكذلك الديمقراطيّة. والحكومات العربيّة لا تريد حتّى اليوم فهم أهمّيّة رفع وصايتها الاستبداديّة عن شعوبها، ولا تريد أنْ تقرّ بأنّ الحكم يفقد معناه، ومقوّمات استمراره الصحيحة إذا اقتصر على استخدام المحكومين كأدوات تهليل، وشعائر مفروضة

فرضاً. وسواء أكانت أسباب ذلك نتيجة لخوف الحكم من المجهول، أم لرغبته في الاستبداد، أي سواء كان الحكم حسن النيّة أم سيّئها، لا يُعفى من المسؤوليّة. ورغم الشواهد التاريخيّة الحديثة، مثل ما حدث للنظام الواهي الذي خلقه هتلر بغسل الأدمغة، وتأجيج الشعور العرقي، والقمع الاستخباريّ، لا يريد بعض الأنظمة أنْ يلاحظ أنّ الديمومة لن تكون له مهما طال الأجل.

هذا التقصير الذي وقعت فيه الدول العربيّة حكومات وشعوباً، هو الذي جعل مستقبلها يُرتهن من قبل الغلاة والمتطرفين، قبل أنْ تلمسه يد الساسة الأميركيّين. ليس غريباً أنْ تسعى الصهيونيّة بمساعدة حليفتها، بل شقيقتها الكبرى، الولايات المتّحدة الأميركيّة، لاغتنام الفرص لإعادة رسم استراتيجيّة المنطقة، وقطف ثمار غلالها "على البيعة"، فـ"التجارة شطارة" كما يتبجّح كثير من العرب. لكنّ الغريب أنّ بين العرب، وحكوماتهم، من هو أيضاً حليف للولايات المتّحدة. وليس عيباً أنْ نقيم التحالفات (خصوصاً مع دولة رائدة عظمى مثل الولايات المتّحدة، لها أفضالها وليس فقط سيّئات ساستها)، ولكنّ العيب قبولنا الظلم، والنفاق الذي مازلنا نحيا في ظلاله.

وفي هذا السياق، نجد أنّه من اللافت للنظر أنّ بعض الجاليات التي تركت أوطانها لسبب أو لآخر، عوضاً عن أنْ تكون جزءاً من المجتمع الجديد الذي حلّت فيه، تتقوقع في ذاتها لتعود القبيلة فتظهر فيها من جديد بشكل أكثر تخلفاً ممّا عليه الحال في الوطن الأم. هذا رغم توفر الحرّيّة شبه الكاملة، في بلد مثل أستراليا مثلاً، ليمارس المواطن عاداته وتقاليده وديانته طالما أنه لا يضرّ بالآخرين. والانسجام مع المجتمع الجديد لا يعني التخلي عن الإرث الخاص بكل فرد أو مجموعة، ولكنْ من المفيد أنْ يقوم هذا الفرد أو تلك الجماعة بإغناء المجتمع الجديد ببعض مالديهم تقديمه. نجحت بعض الجاليات مثلاً في إدخال تراثها الغذائي إلى أستراليا، فصارت التبّولة والحمّص والفلافل كلمات متداولة

محبّبة. لكنّ الاقتصار على هذه الأمور يعني التركيز على ما يودّ المجتمع استهلاكه كحاجة عاديّة يوميّة. أمّا ما تحتاجه الجاليات فهو اختراق الثقافة الغربيّة التي تعيش فيها (وهو ما يفلح اليهود فيه دائماً)، بهدف التفاعل معها للاستفادة منها وإفادتها.

إذا لم يحصل هذا الاختراق، سيبقى معظم أفراد الجاليات، في أحسن أحوالهم، أصحاب مطاعم، وسائقي سيارات الأجرة، وغير ذلك من المهن التي تقدم الخدمات الأساسيّة للمجتمع. أمّا القلّة التي استطاعت النفاذ إلى الأوساط التجاريّة والقانونيّة والحرفيّة الفعّالة، فهي قلّة منسجمة مع مجتمعها الجديد عموماً، ومعظم أفرادها ليست له علاقات حقيقيّة مع الجالية التي يحسبون عليها. المشكلة تكمن هنا، والمشكلة هي في هذا الانفصام، لأنّ الأكثريّة هي التي تبقى مهمّشة. وعلى الرّغم من أنّ حاكمة ولاية نيو ساوث ويلز الأستراليّة من أصول لبنانيّة، وكذلك حاكم ولاية فيكتوريا، ورغم النجاحات الباهرة لعدد لا يستهان به من اللبنانيّين في أستراليا، لا يوجد لهذه الجالية وزن حقيقيّ يعادل الوزن الذي أحرزه بعض أفرادها.

لعل أهمّ ما يمكن لأفراد الجاليات عمله هو الانخراط في المؤسّسات والأحزاب الأستراليّة القائمة، عوضاً عن التقوقع في مزيد من المؤسّسات والجمعيات الخُلّبيّة التي لن تستطيع إثبات دورها على الساحة الأستراليّة، لأنّها لم تؤسّس أصلاً من منطق أستراليّ، وإنما جاءت تكراراً غبيّاً لمؤسسات أمّ في الأوطان الأصل. نجد مثلاً في أستراليا منظمات تحمل أسماء أحزاب وميليشيات أفرزتها الحروب الأهلية، أو التناقضات السياسيّة في تلك البلاد، وبالتالي ليس لها أيّ علاقة مع الحياة الأستراليّة، ولهذا تعطل قدرات الأفراد، وتجعلهم مرتهنين أبداً لحقبة قد تكون ولّت في البلد الأصل.

إذا كنّا نكيل التهم للأعداء، ونكره تدخّلهم بحجة أنّهم "الشيطان الأكبر"، فلماذا نستغرب تصرّفهم؟ أوليس جديراً بنا أنْ نرى أين نقف الآن من هذا كله، بوضوح كامل، وبمنطق عادل؟

إذا أراد المثقّف المنحدر من أصل عربيّ الدفاع عن شعوبه لأنّ كبرياءه وكبرياءها جرحا، فإنّما يهوي في مستنقع القبيلة التي أسهمت في خلق عصر الانحطاط الذي نحياه اليوم. أمّا إذا كان دفاعه بسبب الاستهتار العالميّ بحقوق الإنسان والشعوب، فإنه في هذه الحال يصبح واحداً من بقيّة المثقّفين في العالم. وعلى الشعوب العربيّة أنْ تدرك أهمّيّة الإسهام الذي يمكن هؤلاء المثقّفين تقديمه في نصرة قضاياهم. العبء على هذه الشعوب أنْ تعي أنّ الخلاص لن يأتي من طريق الاضطجاع في حضن التطرّف، وإنّما في تفهّم الآخرين، والتخلّص من الشوائب الذاتيّة، وعلى رأسها عمليّة النفاق المستمرة، والازدواجيّة في الحياة والطروحات، كأن يتعاون البعض مع العدوّ سراً، أو علناً (تحت ستار السلم والتسوية)، وفي الوقت نفسه يقطع رأس من يطرح المبادرات الإيجابيّة في سبيل حل الخلافات بين البشر.

ولعلّ المجتمعات الإسلاميّة اليوم هي أكثر المجتمعات حاجة لإعادة النظر في التعاطي مع عقائدها وسلوكها. ونحن لا نميّزها عن غيرها من المجتمعات إلاّ بسبب أنّها ميّزت نفسها بتبنيها فكرة أنّ الإسلام والمجتمع ونظام السياسة كلّ لا يتجزأ جوهرياً. فإذا كان الأمر كذلك، نرى أنّ هذه المجتمعات دمّرت تحقيق هذه الفكرة يوم قرر أحدهم غلْق باب الاجتهاد. الاجتهاد هو السبيل الوحيد لتحقّق مجتمع إسلامي يواكب تطوّرات العصور. ولن يقبل معظم المهيمنين على الدين إعادة فتح هذا الملف لأسبابه المصلحيّة، وليس لأسباب دينيّة كما يدعي.

الديكتاتوريّات في الدول العربيّة والإسلاميّة لا يوافقها مبدأ الاجتهاد لأنّه من أهمّ مبادئ صون الديمقراطيّة، وسلامة الشورى في رأينا، كما أنّ هذه الحكومات يهمّها أنْ يبقى الدين في

مستنقع الجهل، أو تحت وطأة التطرف حتّى يسهل عليها توجيه الاتهامات، واغتيال أيّ أمل في انبعاث النهضة الإسلاميّة من جديد. وهذا الأمر شبيه بوضع الجاليات المهاجرة في أستراليا، التي تنعم بكثير من المنح والتسهيلات في تشكيل الجمعيّات والمنظمات التي هي في معظمها لا تمثل أكثريّة جالية معينة، وإنما يسيطر عليها المتفوهون المتمنطقون، وهم في معظم الحال ليسوا على مستوى الثقافة الأستراليّة العامّة، ممّا يناسب الفئات الأستراليّة المهيمنة التي تريد لهذه الجاليات البقاء في قوقعتها، ولا تبغي منها سوى الأصوات الانتخابيّة (على مبدأ "الله يسعده ويبعده")، بينما تظهر هي على أنّها تمارس الاستقامة السياسيّة.

وهكذا يزداد عدد الجمعيّات والمنظمات، وتقل قابليّتها على الاختراق الثقافيّ للمجتمع الذي تعيش في ظلّه، ويزداد انعزالها عن الوطن الكبير الذي كان من المفروض أنْ تكون جزءاً فاعلاً فيه. على السطح، اللعبة الديمقراطيّة تمارس تماماً. أمّا في الصميم، فهي مجرّد "لعبة" بكل ما للكلمة من معنى، لعبة يتلهّى بها صاحب النفوذ المحدود، ليسرح السيّد ويمرح، وينفّذ هيمنته على الأعراق الأخرى، بينما يتبجّح بديمقراطيّته أمام العالم كله. طبعاً، لا نلوم السيّد كلّ اللوم. لا بدّ أيضاً من لوم من وصل إلى هذا البحر من الديمقراطيّة، لكنّه لم ينهل، أو حتّى لم يسبح. وتأتي أهميّة الاختراق الثقافيّ للغرب، ليس فقط لمصلحة الجاليات الموجودة في حضن الغرب، بل للأوطان الأصل أيضاً. ولعل حركة النهضة الإسلاميّة الجديدة ستأتي من فئة من المسلمين تعي أهمّيّة وجودها في بلاد ديمقراطيّة غربيّة، تتيح لها حرّيّة التعبير والتفكير أكثر بكثير من حال بلادها الأصل. ونحن نعتقد أنّ هذه النهضة ستأتي، ويالسخرية القدر، من قلب الولايات المتّحدة، أو أوروبا، أو الاثنين معاً. والسبب أنّه لا بدّ من تواجد

حركة وعي لدى بعض المسلمين في الغرب ممن سيعيد بعث الاجتهاد.

وإنّنا نستغرب أنّه على الرّغم من عدم إغلاق باب الاجتهاد لدى المسلمين الشيعة مثلاً، لا نلحظ أيّ ممارسة فعّالة بهذا الخصوص، ولا حتّى في إيران. لكنّ المواقف الفكريّة لبعض المستنيرين في لبنان تحمل بذور ثورة اجتهاديّة جبّارة نأمل أنْ تؤتي أكلها، وتترجم إلى مواقف تشريعيّة حديثة. ولعلّ المطلوب هو إنشاء مؤسّسة عالميّة للاجتهاد الإسلاميّ، تقدم مشاريع دساتير لمجلس إسلاميّ عالميّ أعلى، تكون مقرراته معتمدة من قبل الأزهر والمرجعيّات الأخرى.

ليس المقصود هنا أنْ ندخل أو نتدخل في متاهة هذا الطرح المعقّد، لكنّها الغيرة على تراث ننحدر منه بغضّ النظر عن موقفنا منه. ما نهدف إليه هو الإشارة إلى بعض الأمور التي ما فتئت تؤرق بال المثقّف الغربيّ ذي الأصول العربيّة. أو لعلك أيها القارئ الكريم تعتبرها صرخة مكبوتة أخرى تضاف إلى الصرخات اليوميّة التي يتمنى لو يطلقها المرء كلّ لحظة كأضعف الإيمان. أمّا نحن، فنعتبرها دعوة جادّة لإعادة النظر. حان الوقت ليخرج المسلمون (والعرب كافّة) من "صدر الإسلام" ليدخلوا في إسلام القرن الواحد والعشرين. السؤال: من يتجرأ على اتخاذ الخطوة الأولى؟ من سيحمل هذا السيف المنسيّ الذي إنْ رُفع ارتفع معه شأن أمّة عانت من الكساد الفكريّ طويلاً؟

سيدني، 2003

الاستقامةُ السياسيّةُ:

تكريسٌ لمشروع النفاق البَشري

أعترف أنّني قبل استقراري في أستراليا، وعلى الرّغم من وجودي في بريطانيا لمدّة خمس سنوات في مرحلة سابقة، ما كنت أعرف تعبير *Political Correctness*، وهو ما استعملت له في مقالة سابقة (النهار، بيروت 2003/11/08) عبارة "الاستقامة السياسيّة"، ولست أدري إلى الآن إنْ كان هناك تعبير عربيّ آخر يفيد المعنى نفسه، أو أنّ هذا التعبير نفسه مستعمل من قبل آخرين. لكنّني أودّ في السطور التالية أنْ أنقل انطباعي السريع عن مفهوم الاستقامة السياسيّة وكيفيّة ممارستها، وأبيّن أنّها أمر موجود لدى كلّ المجتمعات، منذ الأزل بغضّ النظر عن التسمية.

كنت، كعادتي أثناء عودتي من العمل عصر كلّ يوم، أستمع إلى إحدى أهمّ المحطّات في أستراليا عبر مذياع سيارتي في يوم من أيّام الأسبوع الأوّل من الشهر الأوّل لهذا العام. وكان المذيع كعادته هجومياً يحاول إثبات مقدرته القصوى في السيطرة على الأمور، فكان يكيل اللّوم على زعيم المعارضة الفيدراليّة السيّد مارك لايثام لأنّه لم يقطع إجازته الصيفيّة ليكون على مقربة من الحكومة إبّان محنة الكارثة الطبيعيّة التي أصابت بعض المناطق الآسيويّة. قال المذيع ما يفيد إنّه يعلم أنّ حضور زعيم المعارضة لن يقدّم أو يؤخّر في الأمر شيئاً، ولكنْ جميل لو أنّه حضر، وإنّه من المهمّ أنْ يظهر على أنّه يقوم بالشيء الصحيح، حتّى لو أنّه لن يتمكن القيام به فعلاً، أي أنّ المذيع المذكور يودّ

حضور زعيم المعارضة لأنّ هذا هو الأمر اللائق في نظره. هذا هو العرف لديه، بل هذا ما تمليه شروط "الاستقامة السياسيّة". الحضور واجب حتّى لو كان شكليّاً. أمّا عدم الحضور، فلا يشكل دليلاً على الإخلال بتلك الاستقامة السياسيّة فقط، بل هو مدعاة لاستهزاء وتقريع مذيع لا همّ له سوى كسب الجولات الخطابيّة متسلّحاً بسيطرته على مذياعه، وبتحصنه داخل مؤسّسة تحمي أمثاله. بعد يومين من ذلك علمنا أنّ زعيم المعارضة كان في حالة صحيّة سيئة منعته من ممارسة أعماله العاديّة، والآن غادر مارك لايثام السياسة إلى الأبد.

طبعاً لو توفرت الظروف الملائمة لزعيم المعارضة، ما كان ليتجاهل هذه الفرصة في إظهار نفسه على أنّه الشفوق الرحيم في هذه الظروف الصعبة التي تواجهها شقيقاتنا إندونيسيا، وتايلاند، وسيرلانكا، والهند، وغيرها. الاستقامة السياسيّة تستوجب أنْ نظهر أنّنا نهتم بأشقائنا حتّى لو كانوا مسلمين أو هندوساً أو بوذيين، خصوصاً أنّ خصمه جون هاورد، رئيس الوزراء الحاليّ، قد وظّف دهاءه السياسيّ في "ضربة معلم" جديدة حين خصص بليون دولار لمساعدة إندونيسيا في محنتها خلال السنوات الخمس القادمة، وهو بذلك يضرب عصفورين بحجر واحد: من ناحية يتقرّب من أكبر الدول الإسلاميّة في تعداد سكانها، وفي هذا مصلحة كبيرة لأمن أستراليا، ومن ناحية أخرى، يمارس استقامته السياسيّة في إظهار نفسه على أنّه الإنسان العطوف الشفوق، الذي لا يتأخر عن تقديم العون حين تتطلب الحاجة. مهما تكن الأسباب والدوافع، لا يسعنا إلاّ تقديم الشكر والامتنان للسيّد هاورد على هذه المبادرة الطيبة، حتّى مع علمنا أنّ فائض الميزانيّة الأستراليّة العظيم أمر ساعد في هذه العمليّة. الاستقامة السياسيّة تدعونا لشكر هاورد سواء أحببناه أم كرهناه.

وكما يلاحظ قارئي الكريم، أستعمل أمثلة مباشرة في شرح ما أقصده من الاستقامة السياسيّة لأنّني أبغي أنْ أنقل انطباعي

العمليّ، ولا يهمني إعطاء تعريف أكاديميّ لتلك العبارة في هذه المرحلة.

أودّ المتابعة بالانتقال إلى أحدّ أهمّ المعايير التي تعتمدها أستراليا حالياً في وصف مجتمعها، ألا وهو "التعدديّة الثقافيّة". ولقد شاع (وهنا أتجنب استعمال كلمة "تبلْوَر") هذا المفهوم في السبعينيّات من القرن العشرين حين قررت أستراليا إلغاء سياسة "أستراليا البيضاء"، واعتماد سياسة أكثر انفتاحاً تجاه المهاجرين. وحتّى يومنا هذا يحتل مفهوم التعدديّة الثقافيّة موضع الصدارة في حديث السياسيّين، والسياسة العامّة لمكان العمل، بل إنّه أكثر ما تلوكه الألسنة من تعابير في هذا البلد.

تتكوّن أستراليا من مواطنين من أعراق مختلفة، وفدوا إلى هذه البلاد تاركين بلادهم الأصل لسبب أو لآخر، لكنّهم أتوا كلّ منهم يحمل إرثه الحضاريّ وثقافته الأصل. وحتّى تتمكن الأكثريّة الأنجلوسلتيّة من استيعاب الوافدين الأوربيّين، والآسيويين، ومؤخراً العرب، عمدت الدولة إلى إقامة خدمات عديدة مثل خدمات الترجمة، وإقامة مراكز مختلفة تعنى بشؤون المهاجرين. وهذا كلّه حسن، ولكن المشكلة لدينا تكمن في أنّنا نتحدث كثيراً عن هذه "التعدديّة الثقافيّة" لدرجة أنّ هذا التعبير أصبح من "إيديولوجيّة" الإدارة في هذه البلاد لدرجة أنّ الموظّفين، مثلاً، لم يعودوا يتجرأون على انتقاد الممارسات المغلوطة التي تتم تحت ستار هذه العقيدة. وقد يتم هدر كثير من الأموال على أمور لا حاجة حقيقيّة إليها، كما يحدث حين تقوم إحدى المؤسّسات الحكوميّة بترجمة وطباعة آلاف المنشورات باللغات غير الإنكليزيّة دون وجود من يقرؤها. قد يستغرب القارئ هذا الأمر، لكنّ الواقع العمليّ هو أنّ المشكلة الأساس لمعظم الوافدين الذين يحتاجون المساعدات في أستراليا لا تكمن في عدم القدرة على الاستيعاب اللغوي بقدر ما هي مشكلة استيعاب ثقافي. والمقصود أنّ الأكثريّة ليست لديها هذه المقدرة حتّى في لغاتها الأصل، وما

تحتاج إليه هو ليست مادة مطبوعة، بل خدمة استشاريّة مباشرة. طبعاً تتوفر في أستراليا كثير من تلك الخدمات، إنّما الذي نقصده هو أنّ زيادة "المصروف" هذه لا تخدم سوى مصلحة واحدة، ألا وهي تبيان أنّ الدولة تقوم بالعمل الصحيح، أي أنّ الدولة مستقيمة سياسيّاً، ولا بأس أنْ تُهدر الملايين، خصوصاً أنّ المنتفعين من تلك الأموال كُثر، وقد يكون أكثرهم انتفاعاً من الوافدين الناجحين في مجال الأعمال، الذين من مصلحتهم إقناع الدولة بحاجة أبناء بلدهم الأصل لمثل تلك الخدمات التي لا تتوفر على هذا الشكل في أيّ بلد آخر في العالم.

ولكن هل يجرؤ أحد على ذكر أنّ الجاليات لا تحتاج إلى مثل هذه الترجمات، حتّى لو كانت فعلاً بغير حاجة إليها؟ طبعاً لا، لأنّه إنْ فعل ذلك لا يكون "مستقيماً سياسيّاً". المطلوب منه الاتجاه مع التيّار، وما أسهل إنزال التهم على من يطالب بالاعتدال في أمور تتعلق بالمهاجرين أو سكان أستراليا الأصليّين، لأنّ هذا من أكبر المحرمات، ومن أهمّ الأسلحة التي يمكن للدهاء السياسيّ استخدامها ضد من يريد استخدام العقل، لأنّ في هذا الاستخدام مدعاة للخسارة الماديّة للمنتفعين على حساب الشعارات، والمتطفلين على دكاكين الدولة، الذين يغتنمون فرص الكسب بأيّ طريقة، على مبدأ إنْ لم أكن أنا فسيسبقني غيري. الواقع أنّ المرء في أستراليا يجرؤ على قول ما يشاء، وهذا من نعم الديمقراطيّة. لكنّ هذا لا يعني أنّه سيصل لما يريد، لأنّه على الأغلب سيكون وحيداً، أو مع قلة من الناس الذين قد يكون مصيرهم في النتيجة "التهميش"، لأنّ الأكثريّة تنساق وراء ما هو شائع. وقوّة الديمقراطيّة وضعفها في آن واحد هي أنّها حكم الأكثريّة، وكلّما زاد تطوّرها كما هي حال أستراليا، كلّما اقتربت إلى "ديمقراطيّة الـ 51٪".

تقوم السلطات الإسرائيليّة بممارسة الاستقامة السياسيّة حين تقول إنّها ستسحب كوادرها العسكريّة من المناطق

الفلسطينيّة حتّى تمكّن الشعب الفلسطيني من القيام بانتخابات حرّة. وهي إنْ نفّذت مظاهر هكذا انسحاب، فواقع الأمر أنّ الفلسطينين محاصرون من كلّ جانب، وعلى كلّ صعيد.

وأيّام الحكومات الشيوعيّة والاشتراكيّة، مارس الزعماء استقامتهم السياسيّة بالتأكيد على حقوق العمّال والفلاحين والمحرومين، وتبيان مساوئ الإمبرياليّة، فيما كانوا يتحولون إلى إقطاعيين يبزّون من سبقهم من أتباع القياصرة والأباطرة، فبدّدوا مال الشعب، وخانوا قضيّة الوطن حين خلطوا بين الوطنيّة والولاء للحزب الواحد المستبد، أو للزعيم الأوحد، لدرجة أنّ الاستقامة السياسيّة تفشت كمرض خطير بين صفوف الشعب الذي صار يرضخ لجبروت الطغاة، ويسير مع تيارهم، وفي بعض الحالات مبرّراً لنفسه ذلك حتّى يتمكّن من الانتفاع مثله مثل غيره. وهكذا يصير نصف الشعب مجنّداً في أجهزة الحزب والمخابرات، فتتبدد موارد الدولة، بينما القطط السمينة تزداد تخمة، وتكبر عبارة الاستقامة السياسيّة، وتأخذ شكل صور للقائد منتشرة في كلّ مكان، حتّى أنّ بعض العراقيين مثلاً حدثنا أنّه في فترة حكم صدّام حسين كانت الاستقامة السياسيّة تعني أنّه لا يجوز رمي جريدة في سلة المهملات، لأنّ صورة صدّام عليها، وبما أنّ صورته كانت تظهر يوميّاً، وفي كلّ الجرائد، صار من الاستقامة السياسيّة تقديس الجرائد.

وكان مدح السلاطين من أبرز مظاهر الاستقامة السياسيّة إبّان فترة المجد العربيّ البائد، حتّى أنّ الشِعر، وهو من أهمّ القيم الثقافيّة والفكريّة التي تميّزُ العقل العربي، تجنّد بشكل جنونيّ في خدمة مصالح الحكّام، والمستفيدين منهم، أو الخائفين من بطشهم. كان الشعر في ذلك الوقت وسيلة إعلام مهمة في غياب الوسائل الصوتيّة والمرئيّة التي جاءت في ما بعد لتثلج صدر الدكتاتوريين الذين استغلوها باستبدادهم، فألغوا الملكيّة الخاصّة، واستفردوا بوسائل الإعلام التي صارت كلّها حكوميّة

تنطق باسم المستبدين. وتحت ستار المصلحة القوميّة، تم التعتيم على المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي نجمت عن سوء تصرّف الحكّام، وصارت وسائل الإعلام وسيلة لغسل دماغ الشعوب، وشحن طاقاتهم لصبّها في طريق واحد هو الطريق الذي يرسمه الحاكم: الاستقامة السياسيّة صارت الحبّ المطلق لفرد صار يطلب من الشعب أنْ يبقيه إلى الأبد، وأنْ يفتديه بروحه.

لنسبر الآن جذور هذه الظاهرة بانتقالنا إلى مستويات أخرى من ممارساتنا. ليسترجع القارئ في ذهنه ماذا يحصل بعد انتهاء خطاب أو وصلة غنائيّة يحضرها ضمن حشد من المتفرجين. العادة أنْ يصفّق الجميع، وحتّى أولئك الذين لم تعجبهم الوصلة يشاركون في التصفيق. طبعاً قد تكون أسباب التصفيق في دول الدكتاتوريّات معرفة المشاهد أنّ رجال المخابرات يحيطون المكان الذي يخطب فيه مسؤول ما. ولكن ما الذي يجعلك تصفّق لوصلة غنائيّة لم تعجبك؟ إنّها الاستقامة السياسيّة، سواء كانت بدافع العادة أم بدافع الببغائيّة، كما أنّ "اللياقة" تسيطر على جزء كبير من تصرّفاتنا التي تندرج تحت قائمة الاستقامة السياسيّة. مثال ذلك ردّنا التحيّة لشخص نكرهه، وقبل لحظة كنّا نستغيبه، أو القيام بأمور نكرهها لأنّ العرف يقضي القيام بها، مثل تقبيل الأيادي لإظهار الاحترام.

تحت ستار الاحترام مثلاً كان المدخّنون من أبناء جيلنا يتظاهرون بعدم التدخين أمام رب العائلة، على الرّغم من أنّه ربّما كان يعلم بذلك، لكنّ الواجب يقضي عدم إظهار ذلك علناً. والمشكلة أكبر بالنسبة لمن تعاطى الكحول، لأنّ هذا من المحرمات، ولأنّ التستر عليه لا يختصّ فقط بربّ العائلة، بل بشريحة أكبر من المجتمع.

أستغرب كيف كان الشخص المعنيّ بالاحترام يتقبّل هذه اللعبة. أذكر كيف كنت أشاهد بعض الرجال يخفون سجائرهم المشتعلة داخل كفّ اليد، ووضع اليد جانباً، أو خلف الظهر حين

يظهر والدهم فجأة. هل من المعقول أنْ يغفل هذا الرجل الكبير المجرب عن رؤية الدخان يتصاعد من خلف ابنه؟ هل فقد حاسة الشم؟ هل هو على درجة من الغباء تجعله لا ينتبه لحركات ابنه المريبة؟ لا أعتقد. وإنّما أعتقد أنّه كان، هو أيضاً، يمارس الاستقامة السياسيّة بتجاهله الأحداث التي أمامه، لأن هيبته تهمّه (سواء عن وعي أو من دونه) أكثر من عادة ابنه. أمّا إذا صدف وجود صديق له، فربما يقرّع ابنه أمام صديقه ليريه أنّه غاضب بسبب هذه الأعمال. هنا أيضاً يمارس الاستقامة السياسيّة. وشبيه بذلك، مع فارق المستوى، ما يقترفه البعض من جرائم الشرف. فالوالد لايمكن أنْ يقتل فلذة كبده لولا ضغوط المجتمع. الاستقامة السياسيّة هنا تلعب دورها، فلا بدّ لهذا الوالد أنْ يظهر أمام أترابه على أنّه حافظ للشرف، قادر على القيام بواجبه حتّى آخر نقطة من دم ابنته، حتّى لو كانت هي ضحيّة اغتصاب في بعض الحالات.

كانت الأسرة في الشرق الأوسط تمتدّ أحياناً لأكثر من مجرد الزوجين وأولادهما، لتشمل عدداً من الأشقاء وزوجاتهم، يعيشون في دار الجدّ مع سلالة من الأولاد والأحفاد، وأحياناً في منازل مختلفة. لكنّ الرابطة الأسريّة القويّة كانت تخلق أجواءها الخاصّة، وتحدّد قوانينها وأساليبها التي كانت تحتكم بإرادة ربّ العائلة الأكبر، الذي هو بدوره قطعة من المرآة التي تعكس الأوضاع الاجتماعيّة لذلك العصر.

كان اجتماع الأسرة الكبيرة كلها عند الجدّ أيّام الجمعة، أو أيّام العيد، أمراً مَجيداً فيه من البهجة الشيء الكثير، إلاّ على من تسوّل له نفسه الإخلال بأصول الاستقامة السياسيّة. هذا كان حال أحد أصدقائي الدمشقيّين في يوم من أيّام عام 1970. حين لم يحصل على المعدل المطلوب لدخول كلّيّة الطب، منعه أهله من الدراسة في أوروبا، وفضّلوا له الدراسة في تركيّا لأنّ مجتمعها شبيه بالمجتمع الدمشقيّ على حدّ تعبيرهم. والداه كانا على قدر

من التحرر، لكنّهما كانا يجيدان لعبة الاستقامة السياسيّة تماماً. هكذا كان، لكنّه بعد سنتين على مقاعد الدراسة تزوّج من فتاة بعد أنْ أقنع أهله أنّها من دينهم ويقينهم، على الرّغم من سفورها، وأنّها من عائلة ثريّة جداً. أحضرها إلى دمشق للزيارة، وكان يوم عيد الأضحى. سبقه والداه إلى بيت جدّه على أنْ يتبعهما مع عروسه لتقديمها إلى جدّه لأوّل مرّة.

وقفت الفتاة إلى جانب عريسها الشابّ أمام منزل الجدّ بانتظار من يفتح. كلاهما في كامل الأناقة، والعريس يحدّث عروسه عن محبّته الكبيرة لجدّه، ومحبّة جدّه له. الفتاة ترتدي فستاناً أنيقاً محتشماً أظهرها على أنّها سيّدة بكل ما للمواصفات الراقية من كلمة. سافرة الرأس، على شفتيها لمسة خفيفة من أحمر الشفاه، وعلى جفنيها خطوط من الكحل الأزرق. كانت في الثامنة عشرة.

فتحت إحدى عمّات صديقي الباب، وضربت بيدها على رأسها مذعورة ترجو ابن أخيها أنْ يطلب إلى زوجته ستر رأسها بمنديل سبق للعمّة أنْ جهّزته، وذكّرت صديقي بضرورة عدم خسارة رضا الجدّ. فهمت الفتاة القضيّة رغم عدم إتقانها العربيّة، وهمّت بالتقاط المنديل وهي تبتسم ابتسامة موافقة. استبشرت العمّة خيراً، وانهالت على الفتاة بالدعوات الصالحات، وضمتها إلى صدرها وغمرتها بالقبل. لكنّ صديقي انتزع المنديل من أياديهما وقال لعمّته: 'زوجتي تدخل بيتكم كما هي، دون تزييف.' لم يُجْدِ استجداء العمّة شيئاً.

دخل صديقي وسلّم على جدّه بتقبيل يده. رحبّ الجدّ به وقبّله، ثم قدّم الحفيد عروسه لجدّه. ألقت الفتاة التحيّة على الجدّ بأدب، لكنّه تجاهلها تماماً. وحين قال له صديقي إنّها تسلّم عليه، تجاهل الأمر أيضاً، وحين كرّر صديقي كلامه للمرّة الثالثة، غادر جدّه الغرفة مقطّب الحاجبين دون أنْ ينبس بحرف.

لم يعد صديقي بعدها على لائحة المقربين من السلطان، وكانت حياته العمليّة مصابة بخيبات أمل كثيرة نتيجة تفضيله "الاستقامة" على "الاستقامة السياسيّة"، تماماً كما فعل حين آثر الصدق مع جدّه الذي يحب ويحترم، على المجاملة التي ترضي ما اتفق عليه الجميع، لكنّها تتجاهل الواقع.

قد لا يكون ضرر الاستقامة السياسيّة كبيراً في العالم الديمقراطيّ المتقدم، لأنّها تتمحور حول اللياقات، وبالنتيجة لا يمكن لها الإمعان في تخريب الأسس التي يقوم عليها المجتمع مهما بلغت شدّتها أو مصاريفها. أمّا في المجتمعات المتخلفة، فالمشكلة تكمن في أنّ الاستقامة السياسيّة تصبح هي كلها تلك "اللياقات"، كما تصبح بديلاً من ممارسة ما يساعد على تقدم المجتمع. وأهمّ هذه الأمور أنّها تستخدم لكبت الأصوات الحرّة، وإلغاء دور المعارضة.

مهما بالغ المسؤولون الأستراليّون مثلاً في استخدام استقامتهم السياسيّة، لا يمكن لهم في النتيجة سحق إرادة الشعب، حتّى لو نجحوا في كبتها إلى حين، نتيجة لتسلحهم بالقاعدة الشعبيّة التي انتخبتهم وفق العمليّة الديمقراطيّة. مهما بلغ كرم ومبادرة رئيس الوزراء الأستراليّ بشأن كارثة الـ"تسونامي"، وسواء أكانت هذه المبادرة نتيجة الاستقامة أم الاستقامة السياسيّة، وجدنا أنّ الشعب الأستراليّ، بنخوته وكرمه، يتقدم شعوب العالم في حجم المساعدات التي قدّمها لضحايا الكارثة، ويبزّ حكومته إذا نظرنا إلى الأمور بشكل نسبيّ.

قدّم الشعب الأستراليّ مبادرة حقيقيّة لا تقتصر على مجرد التباهي بالعمل الجيّد، بل كان هناك افتخار عام بأهمّيّة هذه الصنيعة، وكانت أستراليا في هذه الحالة تمارس طيبتها الحقيقيّة، دون أنْ تخضع لوسائل الاستقامة السياسيّة أو تتعارض معها. كانت عفويّة الشعب الأستراليّ تنمّ، برأيي، عن قابليّة رائعة

لتفعيل عمليّة توازن حقيقيّة بين الاستقامة و"الاستقامة السياسيّة".

من ناحية أخرى، حين أحسّ الجميع أنّ أيّام زعيم المعارضة الأستراليّة يجب أنْ تكون معدودة في الحكم، لم يجد أحد غضاضة من التأكيد على أهمّيّة ذلك لمصلحة حزبه وبلده، أي حين طرأ على الأمر ما يستوجب القيام بعمل أكيد، لم تعد الاستقامة السياسيّة، مثلاً في ممالقة السيّد لايثام، وإظهار الحزن على مغادرته (على الرّغم من أنّ الجميع عبّر عن الحزن على مرضه)، الأسلوب المتبع.

لنقارن ذلك (من حيث الأسلوب وليس المضمون) مع ما حصل إبّان هزيمة العرب الكبرى عام 1967، وتقديم الزعيم عبد الناصر استقالته. خرجت الجماهير تطالب بعودة بطلها المفدّى وحبيبها الأثير الذي لبّى النداء وتراجع عن استقالته. لقد تغلّبت الاستقامة السياسيّة على الاستقامة في هذه الحالة، ولا زال العرب إلى اليوم ينشدون التحرّر الحقيقيّ من الاستعمار ومن أنفسهم.

في هذه الأثناء يقف زعيم الأباطرة الجديد ليتوّج انتصاره في حفل تنصيبه بالبيت الأبيض لفترة رئاسيّة جديدة. ومن أهمّ ما قاله في خطابه ما يفيد أنّه يعي أنّ ديمقراطيّة وحرّيّة الولايات المتّحدة مرهونة بديمقراطيّة وحرّيّة العالم. هذا جميل، وهذه هي الاستقامة بعينها. لكنْ هل يتفوه الرئيس الأميركيّ بذلك لأنّه مستقيم أم بدافع "الاستقامة السياسيّة"؟

سيدني، 2005

ديموقراطيّة الشعوب المقهورة

ما أجمل الديمقراطيّة! ليس لأنّها جلبت "حماس" إلى السلطة في فلسطين، ولا لمجرد أنّها أتاحت للشعب الفلسطينيّ قول كلمته أسوة بشعوب العالم المتمدّنة، ولكنْ لأنّها جاءت تأكيداً جديداً على حالة مستمرّة منذ أنْ بدأت الولايات المتّحدة ديكتاتوريّتها على العالم حين عينت نفسها سيّدته دون منازع، حتّى قبل سقوط الاتحاد السوفياتيّ. هذه الحالة تتلخص في ما قالته مشكورة وزيرة الخارجيّة الأميركيّة حين اعترفت بغلط الولايات المتّحدة في تأييد الحكومات الديكتاتوريّة في العالم طلباً للاستقرار. بعبارة أخرى، حين أغفلت الولايات المتّحدة الحقوق الديمقراطيّة للشعوب الأخرى، وأدّى سكوتها (مع كثير من الحكومات الغربيّة) عن أفعال الحكومات الديكتاتوريّة، بل التعاون الكامل مع بعضها، إلى تهميش المعارضة، بل التنكيل بها، ما دفعها إلى العمل السريّ. وتستّر بعض هذه الديكتاتوريّات تحت مظلّة الحزب الواحد مستغلاً هذا التجمّع كقاعدة شعبيّة مهمّة لبقائه، من طريق ترغيب المواطنين وترهيبهم في عمليّة الانضمام إلى هذا التجمّع. نجد في بعض هذه الدول أنّ نصف المجتمع منضمّ إلى هذا الحزب بطريقة أو بأخرى، ناهيك بتورط عدد كبير من المواطنين مع أجهزة الاستخبارات ركضاً وراء لقمة العيش، وأحيانا لمجرد البقاء على قيد الحياة.

لجأ بعض هذه الدول أيضاً إلى إقامة ما يسمّى الجبهات التقدميّة، والتي لم تكن في حقيقتها سوى إجبار المعارضة، أو مجرّد من يخالفها الرأي، على التمييع الذاتيّ والانضواء تحت لواء قيادة الحزب الواحد، وبالنتيجة في قبضة الحاكم الأوحد، وفي

أحسن حال "العصابة" المتفردة بحكم الوطن تحت شعارات طنّانة تدغدغ مشاعر المواطنين، وأشهرها العروبة والقوميّة والاشتراكيّة والوحدة والحرّيّة والدفاع عن القضيّة الفلسطينيّة، في عمليّة كان يتضح دائماً أنّها متاجرة لا تهدف سوى إلى إبقاء النظام في الحكم حتّى لو ذهب الوطن إلى الجحيم.

اتبعت تلك الحكومات وسائل مختلفة في إقصاء المعارضة أو من يخالفها الرأي. أشدّ هذه الوسائل وضوحاً هي الإفناء الجسدي، وأقلّها وضوحاً التهميش، أي لا تتعرض السلطة لك وإنما تعزلك عن الإسهام الإيجابي حتّى لو كنت موظّف دولة تقبض راتبك بانتظام.

ونشكر السيّدة رايس لأنّها في تعليقها على نتائج الانتخابات في فلسطين، أكدّت أهمّيّة أنْ يقول الشعب الفلسطينيّ كلمته، وأنّ الحل الوحيد هو حل الدولتين. لكنّها أضافت أنّه لا بدّ لـ"حماس" أنْ تلقي السلاح جانباً. أمّا إسرائيل فاستنفرت أمنيّاً، وبدأت التعليقات تنهال واصفة "حماس" بأنّها كيان إرهابيّ.

لا شكّ في أنّ قتل الأبرياء هو عمليّة إرهابيّة، لكنْ ألم تصف الولايات المتّحدة (وأستراليا) "حزب الله" أيضاً بأنّه منظّمة إرهابيّة، إلى درجة أنّ أستراليا منعت التبرع لأعمال حزب الله الخيريّة؟ ماذا يُترك للشعوب المقهورة سوى "المقاومة"؟ ولماذا لا يستطيع الغرب التفريق بين المقاومة والإرهاب؟ أما حان الوقت الذي تقوم فيه الأمم المتّحدة بوضع تعريف دوليّ للتمييز بين الإرهاب والمقاومة، حتّى يتمّ التعامل مع الجميع سواسية؟ هل نسي الغرب كيف استطاع الانتصار على جبروت هتلر وطغيانه واستبداده؟ ألم تكن المقاومة في أوروبا أهمّ عوامل سقوط النازيّة، وهي التي تضمّنت أعمال تجسس وتفجير وقتل، فهل ينكر الغرب أنّه ذهب في عملياتها كثير من الضحايا الأبرياء؟

ما أجمل الديمقراطيّة، لأنّها بينت بالنتائج العمليّة عواقب ما أسهم الغرب في تكريسه. إنّ إلغاء الرأي المخالف، أو

مجرد تهميشه، أو محاولة تمييعه ضمن منظمات واهية لشلّ حركته، تكون نتيجته لجوء المعارضة الحقيقيّة إلى خلف الكواليس، ممّا يزيد من حدّتها ودمويّتها لأنّها تصير باب الخلاص الوحيد للشعب المغلوب على أمره. حين يرى هذا الشعب استحالة التغيير، واستحالة استجابة العالم له، يصبح موالياً لتلك المقاومة، وعلى أقلّ تقدير متعاطفاً معها، وأحياناً يقدّسها، مهما كان نوعها وشكلها، وحتّى لو قادتها فئات مختلفة دينيّاً وعنصريّاً، ونجاح "حزب الله" السياسيّ، والاحترام الذي يحظى به في لبنان دليل آخر على ذلك. وللأسباب نفسها يمكن أنْ يرقى "الأخوان المسلمون" إلى السلطة في عدد من الدول العربيّة بعد غيابهم الطويل عن المشاركة في الحكم، خصوصاً إذا انهارت بعض الأنظمة، لأنّ أيّ بديل آخر ليس بالمستوى نفسه من الاستعداد، وهو الاستعداد الذي ساعدهم عليه مباشرة، أو بصورة غير مباشرة، سوء تصرّف الغرب بتكريس قمعهم هم، وغيرهم من الفئات المخالفة لرأي الحكّام.

صحيح، كما صرحت السيّدة حنان عشراوي، أنّ التصويت لـ"حماس" إنما هو تصويت اعتراض على فساد السلطة الحاكمة في فلسطين وإفلاسها، لكنّ هذا من جملة ما تتكبّده الديمقراطيّة من ثمن. أذكر أنّنا حين كنّا في بريطانيا كانت المقولة دائماً إنّ نجاح حزب العمال إنّما يأتي نتيجة لاستياء الشعب من المحافظين وليس حبّاً بهم، وكذلك حين كان ينجح المحافظون، إنّما بسبب انتقام الشعب من العمال، وليس حبّاً بالمحافظين. وحين انتقلنا إلى أستراليا، نسمع اللهجة نفسها: نجح هاورد (رئيس الوزراء الأحراريّ) لا لأنّ الشعب يحب الأحرار، وإنّما لغياب القيادة والرؤية لدى العمال، وهكذا. كلّ هذا لا يعني كثيراً، لأنّ النتيجة أنّ فئة معيّنة استقدمت إلى الحكم بإرادة الشعب، غير أنّ أهمّ ما أكّدته السيّدة عشراوي هو أنّ "حماس" كسبت كثيراً من الأصوات الاحتياطيّة لأنّ عمليّة السلام، وصوت

الاعتدال، وصوت العقل، لم تتلقّ استجابات متبادلة من الإسرائيليّين ولا من الأميركيّين.

ندرك أنّ "حماس" تواجه تحدياً كبيراً في محاولتها للتآلف مع وضعها الجديد الذي يتطلب منها كثيراً من العقلانيّة بما في ذلك تعديل بعض الشعارات التي تحملها، لكنْ لماذا يتجه العالم كلّه لمطالبة "حماس" بهذا الأمر وذاك، مع العلم أنّ حلّ القضيّة هو في إعلان الدولة الفلسطينيّة، وإعطاء الشعب الفلسطينيّ حقوقه المشروعة؟ وليس أقدر على اتخاذ الخطوة الأولى ممن هو الأقوى، وهو في هذه الحال إسرائيل التي استطاعت دائماً احتواء أيّ هجوم عليها، إذا صحّ التعبير، والتي بلا شكّ ستكون قادرة على ردع أيّ هجوم يأتيها من دولة فلسطينيّة مجاورة.

ما الذي تخشاه إسرائيل وقد فرضت إرادتها على كلّ الحكّام العرب، وتمتعت بدعم أعظم دول العالم، وتأييد كلّ المرافق التي تسيطر زبانيتها عليها في معظم البلاد؟ وصل عرفات إلى رأس السلطة الفلسطينيّة، وسبق أنْ أبرم معه بعض الإسرائيليّين اتفاقيّة للسلام، وسرعان ما صاروا يودّون التخلص منه إلى أنْ حصل ما أرادوا، فجاء البديل. وما زالت إسرائيل متعنّتة تبني حول نفسها الجدران، وتزيد من بطشها، ومع كلّ ضربة من ضرباتها يولد ثائر جديد من هذا المخاض العسير الذي يعاني منه الشعب الفلسطينيّ. والولايات المتّحدة، وكذلك إسرائيل، لا تريدان إدراك أنّ فلسطين ليست عرفات أو عباس أو "فتح" أو "حماس". فلسطين بأهلها، وكلّما أسهمت إسرائيل في تهميش الشعب الفلسطينيّ، زادت حدّة التطرف.

المبادرة الأولى مطلوبة من إسرائيل، وهي أنْ تدرك وجود الشعب الفلسطينيّ وتعترف به. وإسماعيل هنيّة على حقّ حين يقول إنّ على العالم اليوم أنْ يضغط على إسرائيل لتنهي احتلالها للمناطق الفلسطينيّة. حين ينتهي الاحتلال يُلغى دور المقاومة،

وعندها فقط يمكن وصف الاعتداء بالإرهاب. أمّا ما قامت به إسرائيل منذ تأسيسها، فلا يدل سوى على أنّها دولة تقوم على الحرب ولا تريد السلام، بل ربّما تعتبر أنّ السلام ليس في مصلحتها.

ما أجمل الديمقراطيّة، لأنها كشفت عورات من يدّعون أنّهم حماتها ونبراسها وناشروها.

سيدني، 2006

أنطوني لوينستين

و"مسألتي مع إسرائيل"

تأثّر أنطوني لوينستين (الصورة بعدسة برايان سيبل)، الأستراليّ اليهوديّ، كثيراً بردود فعل اللوبي الصهيونيّ في أستراليا، وخصوصاً في سيدني، إزاء منح السيّدة حنان عشراوي جائزة سيدني للسلام عام 2003.

فكّر لوينستين، الإنسانيّ المتمتع بحس عدالة راق، بغرابة هذا الأمر وقرّر تحدي العرف العامّ القاضي بأنّ إسرائيل في وضعها الحاضر تمثّل كلّ اليهود، وإعادة النظر في مسألة "القراءة الصهيونيّة" للنزاع الإسرائيليّ-الفلسطينيّ. ولهذا الغرض قام بتأليف كتابه "مسألتي مع إسرائيل" (My Israel Question).

أسعدني حضور إطلاق هذا الكتاب، الصادر عن دار نشر جامعة ملبورن، في "غليبوكس" في سيدني يوم 2006/8/8. وتلخّص كلمة المؤلّف منظاره البديل لهذا الموضوع، وتشير إلى الجهاد الذي يخوضه ضدّ من يريدون إخماد حرّيّة التعبير

عندما لا يناسب برنامجهم، أو حين تكشف عن ازدواجيّة مواقفهم. وهو بهذا رجل شجاع، وصوت تحتاجه الإنسانيّة، والحرّيّة، والعدالة، والديمقراطيّة. وإليكم ترجمتي لكلمته التي ألقاها في حفل إطلاق الكتاب، كما سينشر النصّ الإنكليزيّ في عدد أيلول المقبل من مجلّة "كلمات":

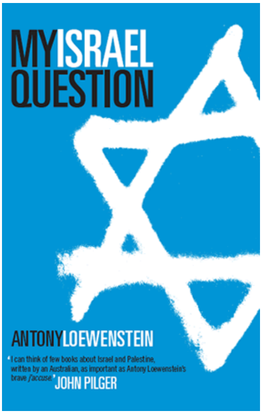

كتب روبرت فيسك، مراسل صحيفة "الإندبندنت" المرموق، عام 2002، أنّ الحديث عن النزاع الإسرائيليّ—الفلسطينيّ ضمان أكيد لليالٍ لا نوم فيها: 'المراسلون الذين ينتقدون إسرائيل يُتهمون بتحريضهم المعادين للساميّة على حرق المعابد اليهوديّة. أي ليس ضراوة إسرائيل واحتلالها مسؤولَيْن عن تحريض مرضى القلوب والقساة الذين يهاجمون المؤسّسات، والمعابد، والمقابر اليهوديّة. اللوم يقع علينا نحن الصحافيّين... فلو أردنا حياة هادئة، ما علينا سوى كبت النفس، والتوقّف عن نقد إسرائيل والولايات المتّحدة. بل التوقّف عن الكتابة نهائياً.'

ولو أنّ فيسك كتب عن الشيء نفسه اليوم، لربما أضاف أنّ إسرائيل، بقصفها الأخير للبنان وغزّة، إنّما تحصد بذور معاداة الساميّة والعمليّات الإرهابيّة المستقبليّة ضد سكانها. السبب والنتيجة. أيّ اقتراح غير هذا يخالف المنطق. وكما سبّبت حرب العراق وتداعياتها، بنسبة لا سابق لها، الشعور بالعداء لأميركا حول العالم كله، لن تكون إسرائيل منيعة عن مثل هذه النتائج. قبل يوم من اغتيال الرئيس رفيق الحريري، أمضيتُ يوماً مع فيسك في بيروت. تذكّر ما قاله له مرة المثقّف الفلسطينيّ إدوارد سعيد: 'أهمّ المحرّمات في

الولايات المتّحدة الأميركيّة هو بحث العلاقات الأميركيّة-الإسرائيليّة. يمكنك طرح مواضيع حول السود، واللوطيّين، والسحاقيّات، أو أيّ شيء تريد في أميركا، إلاّ ذلك.[٩] الوضع أفضل قليلاً في أستراليا. وهنا نستحق أنْ نعرف لماذا استطاعت دولة صغيرة جدّاً في الطرف الآخر من العالم، أنْ تحتفظ باحتلالها غير القانونيّ للأراضي الفلسطينيّة لمدّة أربعين عاماً، وتحظى بتأييد حزبي أستراليا السياسيّين الرئيسين؟ أعتقد أنّ جذور الجواب عن هذا السؤال مغروسة في حقائق علم السياسة الطبيعيّة، وضغوط اللوبي الصهيونيّ، والمصلحة الشخصيّة. وكذلك جرعة وافرة من الخوف التقليديّ من الإسلام. يهدف كتابي إلى التمعّن في النزاع الفاصل في عصرنا الحاضر من خلال عينين جديدتين فتيتين. كيهوديّ، أؤمن بوجود إسرائيل وفلسطين علمانيتين. لا أؤمن بمبدأ الدولة اليهوديّة، وكذلك لا أدعم وجود دولة إسلاميّة أو مسيحيّة. إنْ لم تكن يهوديّاً داخل إسرائيل أو الأراضي المحتلة، يعني التمييز ضدّك قانونيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً.

كإنسان أوّلاً، ويهوديّ ثانياً، لا يمكنني أنْ أؤيّد تماماً تلك الديمقراطيّة المزعومة التي تحتل أراضي الآخرين، وتبني طرقات مخصّصة للمستوطنين اليهود، وتنصب حواجز تمنع النساء الفلسطينيّات الحبالى من الولادة في المستشفيات المحليّة، وتسمح للمستوطنين اليهود إتلاف حقول الزيتون الفلسطينيّة دون قيد أو شرط، وتفرض قيوداً شبيهة بتلك التي فرضتها سياسة التمييز العنصريّ [أبرتايد] على حرّيّة الحركة بين المدن والقرى. رأيت كثيراً من هذا بأمّ عيني.

يقولون لنا مراراً إنّ هذا النزاع عصيّ على الفهم لشدّة تعقيده، متشابك ومليء بخصومات دهريّة. هذا ليس

صحيحاً. لعلّ أكبر قضيّة (وهناك غيرها طبعاً) تمنع تسوية متكاملة عادلة للخلاف الإسرائيلي-الفلسطيني، هي جهل الجماهير الغربيّة للحقائق على أرض الواقع. ما هي الأشياء التي يتمّ تمويلها باسمنا؟ أتأمّل أنْ يكون كتابي جزءاً من انبعاث جديد لمشاركة الجماهير في القضايا الخارجيّة. حركة السلام تنوي الربح، والمسألة مسألة وقت قبل أنْ نتمكّن من تحقيق هذا الهدف. قد يبدو هذا على قدر كبير من التفاؤل، خصوصاً أنّ كتابي ينمّ عن تشاؤم في ما يتعلق بإمكان السلام، بيد أنّي أعتقد بحقّ أنّ الرأي العامّ الدوليّ، كالعادة، أكثر فطنة من زعمائنا السياسيّين. الصور التي تدفقت من لبنان خلال الأسابيع القليلة الماضية – إصابات مدنيّة كثيرة، والقصف المتعمد للمرافق المدنيّة – تسببت بتغيير كبير في الآراء العالميّة بإسرائيل، وبلغ الدعم لـ"حزب الله" في العالم العربيّ أوجه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى "حماس". ومرّة أخرى تخلط إسرائيل بين القوة العسكريّة والشرعيّة الأخلاقيّة.

ونحن في العالم الغربيّ، نقلّل باستمرار من أهمّيّة مقاومة الاحتلال الإمبرياليّ. أمضى العالم العربيّ والإسلاميّ قرناً من الزمن تحت وطأة اغتصابنا وسلبنا له. والآن بدأوا هجومهم المعاكس. يجب أنْ لا يفاجئنا هذا. منذ أنْ بدأتُ الكتابة المكثّفة عن هذا الموضوع، خلال السنوات الثلاث الماضية، تفاجأت بمقدار الضراوة التي هوجمتُ بها. وتسلّمت أخيراً البريد الإلكتروني الآتي: 'ربما يأتيك الدلال من الأوساط الإعلاميّة الآن يا أنطوني، لكنْ في غضون خمس سنوات، وحين يعلن العالم الحرب على اليهود، وليس فقط على إسرائيل كما ترى الآن... سوف ترى أين يقع ولاء (أو هل أقول إجحاف) كلّ فرد... لسوف تذهب إلى معسكرات الاعتقال مثل بقيّتنا... عدا أنّك حين تموت بتأثير الغاز، لن يكون

طريقك إلى الجنّة، بل مباشرة إلى جهنم. إستمتع الآن بالأضواء. من زميل يهودي.'

بشكل عامّ، على كلّ حال، غمرتني مئات الرسائل من يهود وغير يهود، في أستراليا وخارجها، من أناس يشعرون أنّ أصواتهم، حول هذا الموضوع المهمّ جداً، لا تُسمع، ويعتقدون أنّ الطريق الحاليّ في الشرق الأوسط كارثيّ، ويريدون مناقشة الدور الذي لعبته الصهيونيّة المقاتلة فيه، ويريدون أيضاً معرفة أسباب ندرة سماع أصوات العرب، والفلسطينيّين، واليهود المعتدلين في وسائل إعلامنا السائدة. بدأ الضعف يتحوّل فاعليّة، وساحة نقاش عامّ، ووعياً ذاتيّاً أكبر. وسائل الإعلام السائدة تهمل هذه الناحية، لكنّ هذا سيكون وبالاً عليها.

من أكثر ما وصلني من البريد تأثيراً كان من سياسيّ في ولاية نيو ساوث ويلز: 'مثل مايكل دانبي [عضو البرلمان الفيديرالي عن منطقة ملبورن بورتز الذي دعا السنة الماضية إلى إيقاف نشر كتابي مع العلم أنّه لم يقرأه، ومنذ ذلك الوقت ضمن لي زيادة في المبيعات]، لم أقرأ كتابك بعد، ومثل مايكل أنتمي أيضاً إلى عائلة يهوديّة من ملبورن. لكنْ ربّما ينتهي هنا التشابه بيني وبينه. لقد تابعت بجدّيّة كتاباتك ومقابلاتك في وسائل الإعلام. تهانينا على شجاعتك ورؤيتك وشفافيّتك. وهنيئاً لك على فتح النقاش داخل المجتمع اليهوديّ الأستراليّ، وهو أمر تأخر عشرين سنة. حتّى لو هيمنت الأصوات المغلوطة (كما هي حال صحيفة "الأخبار" الأستراليّة اليهوديّة)، أو أنك تتلقّى حملاً من القدح والذم (كما فعل جيرالد هندرسون ورفاقه)، يمكنك الوثوق أنّ هناك آلاف الناس يهتفون لك. يمكنك سماع تنهيدة الراحة تنطلق ممن هم من أمثالي، الذين أمضوا حياتهم يصارعون عائلاتهم ومجتمعاتهم حول هذا الموضوع، ومن غير اليهود الذين

انجرحت مشاعرهم نتيجة اتهامهم بالعداء للساميّة لجريمة اهتمامهم بما حدث للفلسطينيين. بالنتيجة، أنت تقدّم خدمة للدولة الإسرائيليّة، ولمواطنيها، ولليهود في كلّ مكان. حمت قضيّة الشتات اليهوديّ وتداعياتها الأخلاقيّة الدولة الإسرائيليّة من الانتقاد الدوليّ لفترة طويلة، وهو أمر يختلف بالنسبة لأيّ دولة أخرى تتصرّف نحو جيرانها وسكانها الأصليّين كما تتصرّف إسرائيل. لايمكن أيّ أمّة أنْ تعمل في فراغ أخلاقيّ دون بوصلة الرأي العامّ العالميّ، وتتوقع أنْ لا ترتطم بالصخور.[٢]

لا أدّعي أنّ لدي كلّ الأجوبة. الواقع أنّني أطرح أسئلة أكثر ممّا أعرف كيف أجيب. لليهود تاريخ معارضة طويل نبيل، ويجب ألاّ يكون أيّ موضوع، خصوصاً الدولة الصهيونيّة، مترفعاً عن النقد. اللوبي الإسرائيليّ، بكل بساطة، يفضل الطاعة العمياء من قبل مواطنيه المخلصين. لقد أصابتهم خيبة أمل مريعة من سوء سلوكي.

أرى هذا الكتاب بداية للحوار بين أفراد من خلفيّات واسعة التنوع. آن أوان أنْ يقوم الجانب السياسيّ التقدميّ بتوسيع رقعة الحوار لأكثر ممّا يدور ضمن الشريحة الواحدة، فيشمل اليهود والعرب والفلسطينيّين والمتديّنين والملحدين والمواطنين المهتمين في أيّ مكان.

سيدني، 2006

الحَنْظَل في حَديقَة الوَرد

استقبلت أستراليا السنة الجديدة بكل ما يميّز احتفالاتها، خصوصاً الألعاب الناريّة، وأشهرها تلك التي تقام في منطقة ميناء سيدني حيث يستخدم الجسر الشهير، المجاور لدار الأوبرا المميّزة، محوراً لانطلاقة هذه الألعاب. وأخذ الرّمز الذي توسط الجسر هذه المرّة شكل قلب ينبض، يبشّر بالحبّ والوئام والسلام.

تجمّع ما لا يقل عن مليون نسمة على ضفاف الميناء وتخومها، وفي مراكب على مياهها، للتمتع بمشاهد تعتبر الأفضل في العالم. ومرّ الاحتفال بسلام وسعادة كانت تنضح من وجوه المشاركين من خلفيّات ثقافيّة وأصول متعددة، وهو الخليط الذي تتميز به أستراليا، وتفاخر بتعايش أفراده وتعاونهم على بناء صرح هذه الدولة الفتيّة.

هذه المظاهر تناقض تماماً ماحدث قبلها بأسابيع، في بعض ضواحي سيدني، على الشاطىء مثل "كرونولا" حين اعتدى بعض الفتية (من أصول لبنانيّة) على منقذ بحريّ بالضرب. أدّى هذا إلى قيام تظاهرات معادية للّبنانيّين نظمها أستراليون معظمهم من أصول أنكلوسيلتيّة، في تلك المنطقة يوم الأحد 2005/12/11. إثر ذلك، تدفّق عدد كبير من الشباب اللبنانيّين إلى منطقتي "لاكمبا" و"بنشبول" (معقل الجالية اللبنانيّة) عشيّة 2005/12/12 من أجل تخطيط عمليات انتقاميّة، وكان بعضهم مسلحاً، كما تعرّض بعض الصحافيّين للإهانة من قبل هؤلاء الفتية. والواقع أنّه حصلت بعض العمليّات الانتقاميّة، مثل تحطيم عشرات السيارات في ضاحية "ماروبرا" على الشاطىء.

زاد عدد دوريّات الشرطة، وأغلقت بعض الشواطئ، وحضّت الشرطة المواطنين على عدم التوجّه إلى شواطئ معيّنة في عطلة نهاية الأسبوع التي تلت الحوادث، كما أقامت دوريّات تفتيش على مداخل تلك الشواطئ. وتصرّفت أجهزة الشرطة بناء على التقاط رسائل موجّهة بواسطة الهاتف النقّال تحضّ الفتية على التجمّع في تلك الشواطئ.

يقول بول شيهان، في مقال نشرته صحيفة "سيدني مورنينغ هيرالد" بتاريخ 2006/01/16، إنّه على الرّغم من القبض على معظم المعتدين، لكنّ بعض التوجيهات صدرت إلى رجال الشرطة بعدم التعرّض لكثير من تلك التجمّعات (لكنّ مفوّض الشرطة في الولاية صرّح في حديث إذاعيّ يوم 2006/01/20 أنّه لم تصدر مثل هذه التعليمات أبداً، بل هناك حالة واحدة كانت فيها دوريّة من الشرطة من عناصر قليلة قريبة من تجمع لحوالى سبعين لبنانياً، فآثر قائد الدورية عدم التدخل حرصاً على سلامة عناصره). هذا بالإضافة إلى أنّ طبيعة النظام القانونيّ، وبيروقراطيّة الحقوق المدنيّة تجعل من الصعب إثبات بعض التهم في المحكمة، أي سيتملص كثير من منتهكي الحرمات من وجه العدالة. ويذهب شيهان إلى أبعد من ذلك ليتهم الحكومات العماليّة برغبتها الدائمة في كسب رضا بعض الأقليّات، واعتمادها على مثل تلك العصابات في زيادة عدد المنتسبين إلى فروعها الحزبيّة. بعبارة أخرى، تشكّل هذه الفئات ورقة انتخابيّة رابحة بيد حزب العمّال.

حكومة نيو ساوث ويلز (الولاية التي تقع فيها مدينة سيدني) الحاليّة حكومة عماليّة، ورئيسها السيّد موريس يما هو النائب عن منطقة لاكمبا التي تعتبر مولداً للجرائم الإثنيّة بحسب تعبير شيهان. وبعد أكثر من عشر سنوات دون القيام بأيّ تحرّك يحدّ من هذه الجرائم، وجدنا أنّ السيّد يما استدعى برلمان الولاية لجلسة طارئة يوم الخامس عشر من كانون الأوّل الماضي ليصادق

على منح الشرطة صلاحيّات جديدة تمّكنهم من القضاء على العنف، وردع من يحاول تعكير صفو الأمن.

ويوم التاسع عشر من كانون الثاني الجاري تبيّن أنّ الشرطة لديها شريط فيديو، لم تفصح عنه سابقاً، يصوّر اعتداء، قام به بعض من تمّ وصفهم على أنّهم من أصول شرق أوسطيّة، على شابّ صدف أنّه كان مارّاً في منطقة وجودهم في "كرونولا". ويوم العشرين من كانون الثاني الجاري ظهر هذا الشابّ على شاشة التلفاز ليخبرنا عن مأساته. وفي اليوم نفسه سمعنا أنّ الشرطة قررت إنشاء "فرقة لمكافحة الجريمة الشرق-الأوسطيّة"، وهي على غرار فرقة مكافحة الجريمة الآسيويّة التي سبق أنْ تشكلت منذ زمن بعيد لمكافحة عصابات الإجرام والمخدرات الصينيّة والفيتناميّة.

كل هذا يدّل على أنّ التجمّعات التي تأخذ شكلاً إثنياً لا يمكن تجاهلها. ولكن هل هي تجمّعات عنصريّة بمعنى أنّها تقوم لغايات عنصريّة؟ في رأينا أنّها ليست كذلك، وإنّما يأخذ العنف شكلاً عنصرياً كتحصيل حاصل، نتيجة لتركيبة هذه التجمّعات. أمّا واقع هذه العصابات فهو أنّها عصابات إجرام على مختلف أشكاله. وهي تضمّ فئات مارقة على القانون ولا تريد الامتثال للمجتمع العامّ، وهي بذلك تكون البادئة بالتمييز ضدّ الآخرين حين تتشبث بأساليبها وترفض رغبة الأكثريّة.

انتهزت وسائل الإعلام التجاريّة هذه الأحداث، خصوصاً ضمن برامج البثّ المباشر التي تعتمدها بحيث تفسح في المجال أمام المستمعين للتحدّث مباشرة على الهواء للتعبير عن آرائهم، يتبعها ويسبقها تعليق المذيعين الذين لم يدّخروا جهداً في تأجيج سعير الحمّى التي انفلت بها المواطنون بعضهم ضدّ البعض الآخر، لكنْ لم تخلُ أيضاً من وقفات عاقلة. مثلاً، تحدّثت إحدى السيّدات المسنّات لتعلمنا أنّه منذ خمسين عاماً كانت عصابات من الشباب ترتاد هذه الشواطئ وتوقع الرّعب في قلوب سكان

المنطقة. هذه العصابات كانت تعرف بالـ "بانكستاونرز"، نسبة إلى ضاحية بانكستاون التي كانت في تلك الأيّام ذات غالبيّة أنكلوسيلتيّة، بينما هي اليوم أحد أهمّ معاقل الجالية اللبنانيّة. أي أنّ ما يحدث اليوم من قبل بعض الشبيبة من أصول لبنانيّة، كان يحدث في الماضي من قبل آخرين. فهل المشكلة مشكلة عرقيّة أم اقتصاديّة؟ أم هل هي مجرّد مراهقة؟

هذه المسائل أشدّ تعقيداً من مجرّد نسبتها إلى معيار واحد أو اثنين. وحتّى نوضّح رأينا في هذه القضيّة، لنتصور الوضع التالي الذي لا بدّ أنّ بعضنا عايشه، أو سمع به أكثر من مرة: صبيّ وصبيّة وقعا في الحب. كلاهما من ثقافة متشابهة، وطبقة اجتماعيّة متماثلة، وكلاهما لا يتبع ديناً معيّناً على الرّغم من أنّ أحدهما مولود على دين، والآخر مولود على دين مختلف. تزوّجا وضربا للجميع المثل الرائع في التعايش بين العقائد المختلفة طالما ضمّهما الحبّ والمصلحة المشتركة. ولا شكّ في أنّ الزواج بهذا الشكل هو أهمّ الأدلة على عدم التمييز الدينيّ. مرّت الأيّام وحصل خلاف لسبب ما بين هذين الزوجين. انفعل أحدهما وبدأ يكيل الشتائم لزوجه. أولى الشتائم حوت تعبيراً بالأصل الدينيّ لمن وقع عليه الشتم، بل ردّت كلّ أسباب المشكلة إلى ذلك الدين. فهل كان الشاتم يعني حقاً ما يقول؟

الجواب على ذلك هو مزيج من كلّ شيء. يبدو أنّ البشر عموماً يختزنون جملة من المشاعر المعقّدة، بما فيها بعض المشاعر العنصريّة التي ترقد في العقل الباطن لتطفو على السطح حين تدعو الحاجة. ومن المؤسف أنّ الحاجة غالباً ما تكون عجز الشخص عن إيجاد تهمة حقيقيّة لغريمه، فينبش في تراث ذلك الغريم ليجد ما يعتبره صفة أقلّ شأناً من صفاته التي تربّى هو عليها. ولعلّ الشيء نفسه يفسّر الحروب الأهليّة التي تأخذ صفة طائفيّة أو عرقيّة، بينما الدافع الأساس هو سياسيّ يتمّ

بتحريض عصابات لها مصالح مختلفة، سواء بالاستيلاء على السلطة، أم بالاستغلال الاقتصاديّ، أم بالاستعمار.

المأساة أنّ هذه العصابات تنجح في تأجيج المشاعر الدينيّة للجماهير التي تقع في الفخّ الذي رسم لها بعناية وتدبير. هذا لا يعني أنّ هذه الجماهير معذورة. وكذلك صاحبنا الذي تنكر دين زوجته حين دبّ الخلاف بينهما، لا يمكن أنْ يكون على درجتي النبل والثقافة اللتين ظهر عليهما حين تخطّى عقبة من أهمّ العقبات الاجتماعيّة. الآفة الكبرى تكمن في "الهيستيريا الجماعيّة" التي تنتاب الفئات المختلفة حين تشعر أنّها مهدّدة من قبل الآخرين، حتّى لو لم يكن هناك تهديد حقيقيّ، وحتّى لو كان هذا الشعور نتيجة افتعال ذاتيّ.

لا توجد أيّ مشكلة لدى معظم اللبنانيّين والشرق-الأوسطيّين الآخرين الذين يعيشون في أستراليا، ويتمتعون بحقوق غيرهم وواجباتهم، بل إنّ بعضهم برّ كلّ الأستراليّين بوصوله إلى مراكز مرموقة، ومن الأمثلة البرفسورة ماري بشير حاكمة ولاية نيو ساوث ويلز، والسيّد ستيف براكس رئيس وزراء ولاية فيكتوريا، ناهيك بعدد كبير من رجال الأعمال والموظّفين في القطاعين العامّ والخاص. هؤلاء لم ينتابهم شكّ للحظة أنّهم من المجتمع وإليه، فجاهدوا وبذلوا واستفادوا وأفادوا، وربما لم يسألهم أحد عن أصلهم وفصلهم حين كانوا يصعدون سلّم تقدمهم.

لكنّ ظاهرة عصابات الشبيبة الأستراليّين من أصل لبناني قد تكون من أغرب الظواهر الاجتماعيّة. هؤلاء الشباب مولودون في أستراليا، وارتادوا مدارسها، ويختلفون كثيراً عن أهلهم الذين هاجروا إلى أستراليا، وربما بقوا فيها على مضض. ما الذي يميّزهم عن غيرهم من الأستراليّين؟ لماذا لا يستمتعون بالشواطئ مثل غيرهم من الشباب، وما الذي يجعلهم متميزين بطريقة تحرشهم بالفتيات، وهذا سبب من أهمّ أسباب الصدامات بينهم وبين أهالي تلك المناطق التي يرتادونها؟

الأستراليّون في معظمهم شعب مسالم، يهوى الاستمتاع برخاء الحياة، وروعة الطبيعة التي وهبته إياها هذه البلاد، وحين تخرج العائلات أو الشابات إلى الشواطئ للاستجمام تكون المواجهة آخر ما يخطر على البال، فكيف إذا حصلت نتيجة تدنيس حرمة تلك الأماكن، والحرّيّة الشخصيّة للمستجمّين، وهي حرّيّة تضمنها لهم قوانين هذه البلاد، والأسس التي قامت عليها، والأهمّ من ذلك أبسط حقوق الإنسان، بأيّ عرف وبأقلّ مستوى للبداهة؟ وحين يدافع أيّ شخص عن عرضه وشرفه، لا يهمه إنْ كان المتحرش لبنانيّاً أو فنلنديّاً. أي أنّ ردّ الفعل تجاه هذه الأمور ليس عنصريّاً في أساسه.

في اعتقادنا الخاص أنّ أحد أهمّ أسباب السلوك الشاذ لدى هذا النوع من الشباب الأستراليّ من أصل لبنانيّ هو "الدَلال". الاختلاف الأساس بين شابّ أستراليّ من أصل لبنانيّ، عضو في هذه العصابات، وبقيّة الشباب، هو أنّ اللبنانيّ يتربّى في كنف عائلته (نذكّر أنّنا نشير إلى عائلات ذات تركيبة فكريّة وطبقيّة معينة) وحضن أمّه التي تسبغ عليه من حرصها وخوفها ودلالها، فتطهو طعامه، وتغسل ثيابه، وترتّب سريره، وتبادله بكلمات الحب، وتغضّ النظر عن شذوذه وجنوحه (لأنه رَجلها وبؤبؤ عينها)، فيبقى طفلها المدلّل حتّى لو تغيّب عن المدرسة، أو اقترف جريمة، وإلى أنْ يبلغ من العمر عتيّاً، تساعدها في ذلك بناتها، لأنّ العرف في تلك الثقافة أنّ المرأة تخدم الرجل.

لقد تربّى هذا الشخص وفي ذهنه راحة ذلك الملاذ الذي يلجأ إليه حيث شاء، وبذلك يجمع بين ماتوفره له أسرته وما توفره الدولة من خدمات ونظام ضمان اجتماعيّ. هذا الأسلوب يخلق لدى الشابّ نوعاً من الاتكاليّة الصرفة، تتجلّى بتصرّفاته السفّاحة خارج البيت، على الرّغم من ضعفه الداخليّ كرجل حقيقيّ. هذا الشابّ لم يتعود الاعتماد على النفس، ولم يتعلم كيف يبني نفسه ذاتيّاً. أي ترك تحقيق رجولته للكلام المعسول الذي يشهد عليه

شهود من أهله، أو لعضلاته المفتولة الناتجة عن مواظبته على برامج الكمال الجسمانيّ، بينما لا نجده يواظب على أيّ برنامج للكمال العقليّ.

هذا الشابّ لا يريد العيش خارج أستراليا، ولا حتّى في بلد أهله الأصل، لكنّه لا يعتبر نفسه "أسترالياًّ". لماذا لا يعتبر شخص مولود في أستراليا، ويستمتع بحياتها نفسه أسترالياًّ؟ ولماذا يقوم هذا الشابّ بالتحرّش بالفتيات وارتياد الشواطئ، ثم يشعر بتعصبه الإسلاميّ مثلاً حين يشتكي ضحاياه منه، مع العلم أنّ تصرّفاته وهندامه وقصّة شعره والحِلى التي يتزين بها تخالف العرف الإسلامي، بل الشريعة عينها في بعض الحالات؟ هذه أيضاً معضلة تضاف إلى كلّ تلك العوامل التي تشكّل هذه الشخصيّة المعقّدة.

يميل كثيرون إلى اتهام المجتمع الأستراليّ بالتمييز. صحيح أنّه لا كمال في أستراليا، ولا في أيّ مكان في العالم، لكنّ الصحيح أيضاً أنْ نتساءل من هو الذي يقوم بالتمييز فعلاً؟ هل هو المجتمع العامّ الذي يريد العيش بسلام ضمن القوانين المعمول بها، ولا يرغب لأحد الإخلال بها، أم ذلك الذي لا يريد الاعتراف بأستراليّته، وكلّما قام بمخالفة القوانين اتهم المجتمع بالتمييز ضدّه؟ يجب أنْ لا نغفل عن أنّ الشعور بالتمييز يكون في حالات كثيرة شعوراً مفتعلاً ذاتياًّ، يخلقه الفرد لتبرير مواقف معيّنة. هذه الحالة من أخطر الحالات المرضيّة التي تصاب بها الأقليّات، وتؤدي إلى تدهورها وتهميشها ضمن المجتمع العامّ.

ومن المؤسف أنّنا سمعنا هنا أحد المشايخ الشباب يقول إنّه من المستحيل أنْ يشعر أنّه أستراليّ. فلماذا هو هنا، يستفيد هو وأمثاله من كلّ ما تقدمه هذه البلاد، بما في ذلك حرّيّة المعتقد، إلى درجة أنّ شرطة ولاية غرب أستراليا صار لديها شرطيّات يرتدين الحجاب تحت القبعة الرسميّة، وأنّ كثيراً من فروع المصارف التجاريّة (المملوكة والمدارة من غير المسلمين)

لديها موظّفات محجّبات، مثلاً أكثر من مصرف في ضاحية أوبرن في سيدني؟ هذه التصريحات هي التي تؤدّي بالأستراليّين الذين يحبون أستراليا (مهما كانت أصولهم) إلى مواجهة صعوبة حقيقيّة في التعامل مع مثل هذه الجماعات.

لكنْ لا بدّ من التأكيد أنّ معظم الشرق-الأوسطيّين، وخصوصاً اللبنانيّين في أستراليا، هم أستراليّون مثلهم مثل غيرهم، بل في كثير من الأحيان يصعب تمييزهم، وليست لهم أيّ علاقة بتلك المجتمعات التي تنجب هذه المجموعة من السفّاحين. فلماذا تنظر الدولة إلى هذه المشاكل على أنها مشاكل "إثنيّة" أو عنصريّة؟ لماذا تتشكل فرقة من الشرطة مخصّصة للجريمة الشرق-الأوسطيّة؟ أوليست الجريمة جريمة من أيّ جهة صدرت؟ صحيح أنّ لهذه العصابات طبيعتها ومقوّماتها، ولكن أليس بالإمكان تلافي استعمال هذه النعوت في عمليّة مكافحة الجريمة؟

إذا كانت أستراليا تعتبر الجميع أستراليّين على حد سواء، خصوصاً أمام القانون، فلماذا هذا التمييز؟ طبعاً نحن ندرك أهميّة فهم العوامل النفسيّة والاجتماعيّة والإقتصاديّة المتعلقة بفئة من الناس، والتي تستوجب إقامة فرق خاصّة لفهمها والتعاطي العملانيّ معها، ولكن كان حريّاً بدائرة الشرطة أنْ تجعل هذه العمليّات داخليّة دون أنْ تعطيها عناوين علنيّة. مرتكب الجريمة يحاكم أمام القانون، وينال عقوبته وفقاً للأحكام المرعيّة، بغضّ النظر عن أصله وفصله. وفي رأينا أنّ العمليّة بحاجة إلى مزيد من الانضباط، وأنّ التشريع الأستراليّ بحاجة إلى مزيد من الشدّة في تطبيق القوانين والأحكام. الشرطة قد تكون بحاجة إلى زيادة عناصرها، ولتنسيق أفضل مع أجهزة الاستخبارات، والجاليات، ومصادر المعلومات الثقافيّة والحضاريّة، وليس بالضرورة لإنشاء فرقة تحمل اسم "مكافحة الجريمة الشرق-الأوسطيّة".

هذه الأحداث والأفكار تزيدنا إيماناً بطروحاتنا في مقالة سابقة حول ضرورة إنشاء مؤسّسة للاستخبارات الثقافيّة، يكون من جملة أعمالها تنسيق المعلومات اللازمة حول خلفيّات ما يتسبب في مثل تلك الحوادث وأبعاده وتداعياته، وتقديم النتائج للشرطة. وبما أنّ مؤسّسة مثل هذه مستقلة، وتقوم باستقصاءات تتناول كلّ الفئات، تصبح الشرطة بعيدة عن التعاطي الفئويّ المباشر، لأنّ دورها الأساس هو تطبيق القوانين سواسية.

أكدّ السيّد جون هاورد، رئيس الوزراء الأستراليّ، في تعليقه حول هذه الحوادث، أنّه لا توجد في أستراليا مشكلة عنصريّة دفينة. ونضيف أنّ ما حدث قد يتكرّر كثيراً، لكنّه سيبقى دائماً زوبعة بحجم فنجان، سيستوعبها محيطنا الكبير إلى أنْ يأتي الوقت الذي يدرك فيه الفاعلون أنّهم شواذّ هذا المجتمع، وأنّ أعمالهم أساءت إلى أصولهم ودينهم والمصالح التجاريّة التي تعطلت لفترة في تلك الضواحي الشاطئيّة، وكثير منها مملوك من قبل أستراليّين لبنانيّين وشرق-أوسطيّين.

سيدني، 2006

فَوضَى الحَواس...

ونظامُ أشياء أُخْرَى

شكراً أحلام مستغانمي لهذه العناوين الجميلة التي تختارينها بذكاء لرواياتك، وأستعير واحداً منها هنا لأنّها بالتحديد تأتي من أعمال قصصيّة فنيّة، ولأنّني أريد عرض موضوعي هذا ببعض الفوضى التي تنم عن ترابط السياسة والأدب والفن، وليس فقط لأنّ العالم اليوم يعيش في فوضى. ولذلك سأنتقل بين موضوع وآخر تجمع الفوضى بينهما، آملا أنْ يتبيّن بين السطور أنّه لا يمكن بالنتيجة فصل النوازع المختلفة للنفس البشريّة، طالما أنّ النفس الواحدة قادرة على التمتّع بأكثر من نزعة واحدة، حتّى لو كانت ترتبط بطريقة فوضويّة.

حين كنت راجعاً من عملي عصر هذا اليوم (2004/09/22)، استمعت إلى أحد المذيعين في أهمّ إذاعة خاصّة في أستراليا يعلّق على وجود الغربيّين في العراق بقوله إنّه بات يعتقد أنّه من الأفضل الانسحاب من ذلك البلد، وترك أهله لمشاكلهم. طبعاً، عمليّات الاختطاف، وقطع الرؤوس، التي لم تتوقف هي التي أدّت بمثل هذا المذيع إلى تغيير موقفه الذي كان في السابق متلائماً مع مواقف الحكومات الأستراليّة والأميركيّة والبريطانيّة في ضرورة التدخل في العراق، لتخليصه من الطاغية صدّام.

لا يمكن لعاقل القبول بتلك الوسائل التي تستعملها زمرة من المتطرفين في قتل الأبرياء باسم الإسلام، لكنْ بات واضحاً أنّ

أعمال تلك الفئة هي التي أصبحت تقلب المفاهيم، لأنّها نجحت في دبّ الذعر في قلوب البشر. ولا شكّ في أنّ بوش، سواء أدرك ذلك أم لا، أصبح الآن في مستنقع يلائم في قذارته أمثاله من المستهترين بمشاعر الشعوب وحريّاتها وقيمها، خصوصا لأنّه لا يمكن تصديق نيّاته وهو الذي يكيل بمكاييل مختلفة وفقا لمن يتعامل معهم، فلا يبدي أيّ تحفظ تجاه الطاغية شارون على سبيل المثال.

لقد قال مذيعنا المذكور ما معناه أنّه لماذا نضحّي بأبنائنا في سبيل شعب لا يريدنا هناك؟ وأثناء فترة البث المباشر، التي تلت تعليقه، أيّده كثير من المستمعين الذين ما سبق لهم بالأصل الموافقة على ما قام به جون هاورد، رئيس الوزراء الأستراليّ، من انصياع سافر للإرادة الأميركيّة. لكنّ البعض الآخر حذّر من مغبّة ترك الشعب العراقيّ بعد هذا التدخل الغربيّ، وأعرب عن مخاوفه في أنْ تسقط البلاد في هاوية تعيدها إلى نظام يشابه ما كانت عليه، أو أنْ تدخل في مرحلة حرب أهليّة مديدة.

طبعاً سيستمر بوش وبلير وهاورد في التأكيد على صحة ما قاموا به، رغم تكشّف كذب ادّعاءاتهم حول وجود أسلحة الدمار الشامل، وهي الحجّة التي استخدمت لغزو العراق. صار التبرير الجديد هو أنّ الخلاص من صدّام حسين بحدّ ذاته أمر يستحق ما قاموا به، لأنّ العالم اليوم بغيابه عن الساحة أقلّ خطراً. لكنّ هذه الحجّة السانجة سرعان ما تداعت أمام الفوضى العارمة التي يعيشها العراق اليوم، وغيره من بقع العالم التي تعاني من الاضطراب والإرهاب والجوع والمرض والديكتاتوريّة، وهي أمور يقع جزء كبير من مسؤوليّتها على عاتق الغرب الذي أسهم في دعم كثير من الفئات الإرهابيّة حين صادف أنّ أعمالها كانت تنسجم مع مصالح الولايات المتّحدة وأتباعها.

تقع مسؤوليّة الغرب الكبرى في عدم نزاهته في مسألة العدالة الإنسانيّة، فالإدارات الغربيّة، وعلى رأسها الإدارة

الأميركيّة، تكرّس مفاهيمها الديمقراطيّة بطريقة ملتوية تنحاز لمصلحة شعوب دون أخرى. مثلا تقوم الدنيا وتقعد لكون الأنظمة العربيّة أنظمة غير ديمقراطيّة، لكنّ الإدارة الأميركيّة هي الداعم الأكبر لأقل الأنظمة العربيّة ديمقراطيّة، كما أنّ هذه الإدارة هي التي تغضّ النظر عن الممارسات غير الديمقراطيّة للحكومة الإسرائيليّة، التي تتستر بديمقراطيّة الغرب، لتقوم بممارساتها المنافية للخلق والديمقراطيّة والشرعيّة في الأراضي المحتلة، وعلى أبناء شعبها من العرب.

ويذهب بوش في تطرّفه إلى ما لم يذهب إليه غيره في مقام مثل مقامه الرفيع، فيؤكّد في خطابه الأخير في الأمم المتّحدة أنّه من المهمّ جدّاً أنْ "يَسوْد" (الكلمة الإنكليزيّة التي يستعملها دائماً هي prevail)، نعم، يريد أنْ يسود البشريّة، ولكن ليس بحسن الخلق، وإنّما بالهيمنة وفرض الإرادة، خصوصا أنّه أعلنها "حرباً صليبيّة"، وما أدرك أنّه إنّما بذلك يشابه خصومه الذين يسميهم المتطرفين الإسلاميّين، فسواء أكان الصليب أم الهلال وسيلة لفرض النفوذ وسلب الحريّات، فالنتيجة واحدة بالنسبة إلى المقهورين المغلوبين على أمرهم. لكنّ بوش ينسى أمراً مهماً، ألا وهو أنّه يتصرّف هذا التصرّف وهو رئيس أقوى دولة في العالم، دولة حرّة قويّة اقتصاديّاً، وتتوافر فيها، على سبيل المثال، مستشفيات للكلاب تمتاز عن مستشفيات البشر في معظم بلدان العالم. أمّا خصومه، سواء أكانوا من المرتزقة، أم من المغرر بهم، أم من أصحاب العقيدة، فهم أبناء شعوب مقهورة محتلّة اقتصاديّاً وسياسيّاً وعسكريّاً. لا شكّ في أنّ للعقيدة أثراً مهماً في دفع بعض الفئات لتقديم نفسها على مذبح "الخلاص"، لكنّ الذي يجب أنْ ينتبه إليه الغرب (أو بالأحرى أنْ يعيه)، هو أنّ الدافع الحقيقيّ هو الشعور بالإحباط النهائيّ بعد تخاذل أنظمة تلك الشعوب وبعض فئاتها، وخذل الآخرين لها. حين يصل الفرد إلى مرحلة الإحباط النهائيّ، يسهل أنْ يحصل أحد أمرين، أو

كلاهما معاً: إمّا أنْ يقتنع الفرد بضرورة ما يسمّيه الاستشهاد في سبيل قضيّته، أو يسهل التغرير به في هذا السياق. وطبعاً نكون على قدر كبير من السذاجة، إذا أغفلنا أنّ كثيرا من أدعياء العقيدة هم من مختطفي تلك العقيدة ومطوّعيها لمآربهم الشخصيّة، أو طموحاتهم السياسيّة. كلّنا نذكر كيف قام صدّام حسين بين عشيّة وضحاها بإضافة "الله أكبر" على علم العراق وصار يرتاد المساجد، ومرّة يشبّه نفسه بصلاح الدين، ومرة بالحسين بن عليّ، علماً أنه ما كانت له في تلك الفضائل لا ناقة ولا جمل، وبدلاً من أنْ يدحر الأعداء كما فعل صلاح الدين، أو أنْ يستبسل مستشهداً كما فعل الحسين، ترك الشراذم تلتقطه من وكره كما تصطاد الفئران.

ليس الهدف أنْ نستفرد بصدّام بعد أنْ انقلب الدهر عليه، لكنّه مثال جيّد لفئة من الناس غاياتها تبرّر واسطتها، لا مانع لديها من استخدام أيّ وسيلة بما في ذلك الافتراء على الله كذباً، بل استخدام الله ودينه واجهة تستر وراءها غاياتها الحقيقيّة، لأنّ استخدام الدين عمليّة رابحة مع عامّة الناس. وما أسلوب بوش في تركيزه على "العائلة"، و"الفضيلة"، وإظهار اتّباعِه، مع عصبة من إدارته، واحداً من أشد المذاهب أصوليّة سوى وسيلة للدعاية الانتخابيّة، إذا لم توصله إلى الحكم فهي كفيلة بكسب تأييد نسبة تزيد عن أربعين في المئة من الشعب.

والأمر شبيه بالنسبة إلى رئيس وزرائنا هنا في أستراليا. فالسيّد جون هاورد رجل "عائلة" و"فضيلة" و"قيم". ولأنّه متأكّد أنّه كذلك، لا مانع لديه من اتباع أيّ أسلوب يوصله إلى الحكم، أو يبقيه فيه، بما في ذلك اتباع أساليب تناقض جمال العائلة، وتتنافى مع الفضيلة، وتفتقر إلى الحدود الدنيا للقيم. معلوم أنّ السيّد هاورد كسب الانتخابات السابقة بعد الدجل الكبير الذي استخدمه في اتهام طالبي اللجوء القادمين على ظهر المراكب بإلقاء أولادهم في البحر. وهو بذلك أراد أنْ يُظهر أنّ الحلّ الذي

قدّمته حكومته لمشكلة القادمين غير الشرعيّين لأستراليا، والمسمّى "الحلّ الباسيفيكي"، له ما يبرّره لأنّ هؤلاء القادمين إنّما هم من الوحوش. و"الحلّ الباسيفكي" يتلخّص في أنّ معاملات طالبي اللجوء تُدرس في جزر في المحيط الهادىء عوضاً عن أنْ يسمح لهم بدخول الأراضي الأستراليّة. هذه الجزر غير تابعة لأستراليا، لكنّ أستراليا تدفع لها تعويضات مقابل ذلك.

اتّضح في ما بعد أنّ الاتهامات كانت كاذبة، وأنّ الحكومة الأستراليّة سكتت عن ذلك حتّى بعد اتضاح الحقائق. لكنّ الأهمّ من ذلك هو أساليب الإدارة الأستراليّة في الإبطاء بمعاملات طالبي اللجوء، وطريقة احتجازهم في معسكرات لمدّة طويلة من الزمن قد تصل إلى ثلاث سنوات قبل البتّ بأمرهم. وفي هذا المجال، يعتقد كثيرون أنّ سياسة الحكومة الأستراليّة هذه نجحت في إرهاب من تسوّل له نفسه محاولة الحضور إلى أستراليا من طريق المراكب، لأنّ مصيره سيكون الاحتجاز الطويل، هذا إذا كان محظوظاً، ولم يبتلعه المحيط بعد غرق المركب الذي يحمل عادة ما يفوق طاقته.

ويوجّه كثيرون أصابع الاتهام إلى رئيس الوزراء هاورد على أنّه مسؤول شخصياً عن غرق مثل هذه المراكب، وموت مئات طالبي اللجوء حين أهمل إنقاذ أحد المراكب لأنّه اعتبر أنّه في المياه الإقليميّة الإندونيسيّة. واتّضح في ما بعد أنّ المركب كان في مياه دوليّة، وأنّ هاورد تجنب هذه الحقيقة. ومن المعلوم أنّ معاهدات الملاحة الدوليّة تجبر أستراليا على المشاركة في إنقاذ المراكب في المياه الدوليّة.

المتتبّع لأخبار منطقة البحار الجنوبيّة، قرب القطب الجنوبيّ، يعلم أنّ أستراليا صرفت ملايين الدولارات لمجرد إنقاذ أحد الهواة (غير أستراليّ) الذي كان يبحر وحده، وقامت بمثل هذه العمليّة أكثر من مرّة. أفليس عجيبا أنْ لا تقوم حكومة صاحب الفضيلة والقيم بالاندفاع لإنقاذ مئات النساء والأطفال؟

في ندوة حضرتها ضمّت عدداً من الكتّاب في مهرجان حمل اسم المنطقة الانتخابيّة للسيّد جون هاورد، إذ أقيمت في تلك المنطقة، وهي تجاور منطقة سكننا في إحدى ضواحي سيدني، ذكر لنا بعض كبار الموظّفين السابقين، وأحدهم كان سفيراً سابقاً لأستراليا، وآخر كان من كبار موظّفي أجهزة الاستخبارات، وقدّم استقالته احتجاجا على غزو العراق دون مبرّرات، كثيراً من عجائب تصرّفات الإدارة الأستراليّة وغرائبها برعاية الطاقم الحاليّ. ويقوم أحدهم جديّاً بدراسة إمكان تقديم هاورد إلى محكمة العدل الدوليّة بتهم جرائم ضدّ الإنسانيّة. كما تحدّث في الندوة عدد من طالبي اللجوء المحتجزين سابقا، والذين أُطلِقوا بعد سنتين، لكنْ ما زالوا دون إقامة دائمة، أي مهددين بالإبعاد في أيّ لحظة.

عبّرتُ شخصيّاً للندوة عن امتعاضي لأنّني، على عكس طالبي اللجوء المذكورين، اخترت الحضور إلى أستراليا بمحض إرادتي، ودون سابق أسباب اقتصاديّة أو سياسيّة، وإنّما كنت أتطلع إلى نموذج إنسانيّ ديمقراطيّ فكريّ يتلاءم مع طموحاتي وعائلتي، إلا أنّ بعض السياسيّين مخيّب للآمال إذا أردنا التكلم بأدب. كمّا عبّرت عن امتناني لهذه المجموعة التي ضمّت نخبة فكريّة ومجموعة انتخابيّة مستنيرة، الأمر الذي يضمن استمرار الأمل في حياة أستراليا الجميلة.

تطرّقت إلى تلك الندوة للتأكيد على الأمور السابقة، بالإضافة إلى أهمّيّة الحياة الديمقراطيّة التي نحياها هنا في أستراليا، والتي تمكّننا من التحدّث بحرّيّة، كما تمكّننا بالنتيجة انتخاب من هو غير هاورد. ولكنّ اللعبة الديمقراطيّة نفسها هي التي قد تعيد هاورد إلى الحكم، وربما بوش وبلير (ولو كنا نستبعد عودة الأخيرين). وهنا بيت القصيد من الطروحات السابقة. فالذي أريد أنْ ألفت إليه هو ما الذي يجعل الناس تصوّت لرئيس وزراء ثبت كذبه كما حصل في حالة هاورد السابقة؟ طبعاً لم يصوّت

الجميع له، ولكنّه أحرز نسبة كبيرة، ولهذا عاد إلى الحكم. إنّ نصف الشعب هو ما يحيّرني. هذا هو النصف الذي يعتمد عليه أمثال هاورد. ولعلّ سياسة بثّ الذعر هي التي تتغلّب في تلك الحالات. هاورد الآن يذكّر الناس بالخطر المحدق بأستراليا وكيف أنّه هو الغيور على مصالح مواطنيه بمشاركته الولايات المتّحدة في حملتها للقضاء على الإرهاب. وهو أيضا الغيور على مواطنيه بمنع تلك الأجسام الغريبة القادمة على المراكب من دخول أستراليا بصفة غير شرعيّة، خصوصاً أنّهم يتجاوزون دورهم، بينما ينتظر آخرون تأشيرة الدخول في سفارات أستراليا في بلدهم الأصل. كأنّ الهارب، أو طالب اللجوء يستطيع الانتظار بالدور!

يستعمل هاورد أنصاف الحقائق أو شبهها في بثّ الذعر. طبعاً، هنالك من يستغل فرصة الدخول إلى أستراليا بصفة غير شرعيّة، وطبعاً هناك خطر محدق بالأستراليّين، والعلاقة الجيّدة مع الولايات المتّحدة أمر ضروريّ، لكنّه يحذف من ذلك كلّه أنّه لو كانت الأفواج القادمة على المراكب من إسرائيل، لربّما تساهل في أمرهم أكثر. ويحذف أنّ سياسته المطيعة للأميركيّين هي التي زادت إمكان تعرّض الأستراليّين للإرهاب أضعافاً كثيرة.

تساءلت سيّدة في الندوة المذكورة: 'هل تتصورون ما سيحلّ بالعالم لو عاد بوش وهاورد إلى الحكم في الوقت نفسه؟' ضحك الجميع، لكنْ سرعان ما خيّم على الصالة صمت حزين للحظات.

قرّرنا مع اختتام الندوة توجيه رسالة إلى السيّد هاورد نعرب فيها عن قلقنا وامتعاضنا من أمور كثيرة مثل التي وردت أعلاه، كما طلبنا فتح تحقيق شامل بقضايا غرق طالبي اللجوء. وقّع العريضة كلّ الحضور، أي ما يزيد عن مئتي شخص، قرّروا جميعاً أنّهم لن ينتخبوا هاورد هذه المرة. لكنْ يجب أنْ نتذكّر هنا أنّ هذه المجموعة من المفكرين لا تمثل بالضرورة عامّة الشعب الأستراليّ، لكنّها مجموعة تعي أنّ عبء التثقيف والتفهيم يقع

على عاتقها. مثلاً إحدى المشاركات في الندوة، الدكتورة إيفا ساليس، أسهمت في تحرير كتاب "مهجر" الذي ضمّ قصصاً كتبها عدد من الأطفال واليافعين المحتجزين لدى أجهزة دائرة الهجرة الأستراليّة، يروون فيها تجاربهم الشخصيّة ومعاناتهم. والدكتورة ساليس من مؤسّسي جماعة "أستراليّون ضد العنصريّة"، وهي فئة ناشطة في تعميق الوعي العامّ، كما أنّ الدكتورة ساليس هي بين مستشاري مجلة "كلمات"، وهي مجلّة تسعى لتوظيف الكتابة الخلاّقة لمصلحة التقارب بين الثقافات.

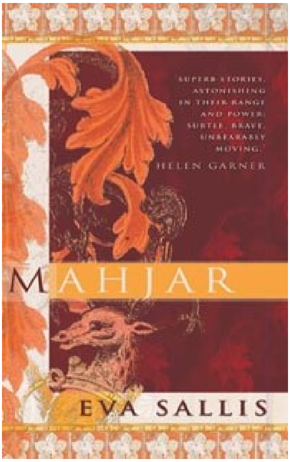

لكنْ لا بدّ أنْ نذكر أنّ المجتمع الأستراليّ (والأميركيّ) حين يدلي بأصواته، ستكون شؤون بلاده الداخليّة هي التي توجّه مسار الانتخابات، وليس الأخلاقيّة العالميّة التي تتمتع بها حفنة من المستنيرين. أي لن يقوم الشعب الأستراليّ في غالبيّته بعزل هاورد لمجرّد أنّه أسهم بغزو العراق، أو لأنّه كذب بشأن طالبي اللجوء، حتّى لو كان واضحاً أنّ هذا مناف لقيم هذا الشعب. كثيرون من أبناء هذا الشعب سيبرّرون موقف هاورد بأسباب أمنيّة، أي أنّ أسلوب الحكومة التخويفيّ يجني ثماره.

أعود إلى حيث بدأت. في البثّ الأذاعي المذكور سابقاً، علّق أحد المواطنين قائلاً: 'لو كان لدى لبنان أو فلسطين نفط، لهبّت الولايات المتّحدة لتكون هناك.' وهو يعني بالطبع أنّ سبب غزو العراق هو النفط. والواقع أنّه منذ ذلك الغزو، والحديث عن أسبابه الحقيقيّة ما زال موضع نقاش بين الناس (بغض النظر عن الفائدة العمليّة من نقاش كهذا الآن). وعلى الرّغم من إجماع كلّ

من أعرفهم على أنّ السبب الأساس لغزو العراق هو النفط، فإنّني منذ البداية تبنّيت موقفاً ذهنيّاً مغايراً. أنا أعتقد أنّ النفط أمر مكمل للعمليّة، ويأتي بمثابة جائزة أو مغنم من مغانم الحرب، وليس هو السبب الأساس لذلك الغزو على الرّغم من أهمّيّته الكبرى. يماثله في ذلك القضاء على صدّام حسين، والذي قد يكون أكثر أسباب الغزو تفاهة. بإمكان الولايات المتّحدة السيطرة على النفط بشكل شبيه لسيطرتها عليه في تعاملها مع منظمة "أوبك"، وكان بإمكانها التعامل مع صدّام حسين كما تتعامل مع أمثاله من الديكتاتوريّين الذين تحبّهم وتعشقهم وتستغلهم، أو أنْ تقضي عليه بوسيلة أخرى.

الذي غزا العراق هو نظام يمثله بوش، يساعده في الحكم ثلّة من كبار الموظّفين المتفقين جميعا على أهمّيّة وجود إسرائيل لا كبلد لليهود فقط، بل ككيان موعود يستدعيهم الواجب تدعيمه لأنّه قد يكون الخطوة التي تسبق عودة المسيح المنتظر. هذه فرضيّة. وهي ما جال بخاطري إبّان غزو العراق المتسرع. وتساءلت هل استغلت إسرائيل كعادتها هذه القضيّة فأقنعت الإدارة الأميركيّة بكلّ ذكاء أنّ الوقت حان للتخلص من أهمّ قوة واعدة قد تستخدم ضدها؟ إنّ في غزو العراق إصابة أهداف كثيرة بحجر واحد. أهمّ هذه الأهداف برأيي هو تأجيج المنطقة من جديد، ووضعها في حالة الفوضى والحرب اللتين تحيا إسرائيل عليهما، خصوصا حين تكون محكومة من قبل سفّاك دماء مثل شارون.

وهدف آخر يتمثل في كسر محور سوريا - العراق- إيران الذي كانت ستسفر عنه الظروف المستقبليّة مهما طال الزمن، وهو ما قد تكون إسرائيل وعته فخافت من احتمال حدوثه. وهنا أستحضر المؤامرة الكبرى التي أطاحت أنطون سعادة صاحب فكرة سوريا الكبرى، وهو أهمّ، وأوّل، من حذّر من خلق إسرائيل قبل بروزها للوجود. وكلّنا يعلم أنّه قضى على أيدي حكام عرب، إمّا

لغبائهم، أو ربّما كانوا يأتمرون بمشيئة إسرائيل أو عملائها المدسوسين بينهم. وفي هذا السياق أستحضر أيضا فكرة "حلف بغداد" الإنكليزيّة، والتي حاربها العرب، وأعتقد أنّها كانت عرضة للحرب من قبل إسرائيل أكثر من العرب. وأعلم أنّ القارىء سيستغرب قولي هذا، لكنّي أعتقد أنّ بريطانيا حين ساعدت على خلق إسرائيل أرادت أنْ تخلق محوراً مقابلاً حتّى لا تفلت الأمور من يديها. كلّ ما في الأمر أنّ العرب كعادتهم ساقتهم العاطفة ورفضوا أي شيء يعتبرونه من صنع الاستعمار، ولم يتقبلوا فكرة أنّ الوحدة السوريّة قد تكون أفضل الطرق لتحقيق الوحدة العربيّة، بينما لم يجدوا غضاضة من الهجوم الجماعيّ على دولة إسرائيل التي أعلنت الأمم المتّحدة عن قيامها، لينسحبوا بعد أيّام دون إحراز أي مكسب عام 1948. ولا أستغرب أنْ تكون الصهيونيّة هي التي أوعزت للملك فاروق البدء بهذه العمليّة، أو التحريض عليها، ثم التراجع بعد أنْ يَظهر للعالم أنّ العرب يريدون القضاء على ما أقرّته عصبة الأمم والشرعيّة الدوليّة. لا. أنا لا أؤمن عادة بنظريّة المؤامرة، لكنّ الظروف التي واكبت تلك التطوّرات تستحق التأمّل على منحى يختلف عمّا اعتدنا عليه، أو عمّا تم تلقيننا إيّاه في المدرسة، أو من خلال أبواق السلطة التي تتحكم بإرادتنا.

كلّ ما سبق قد يشكل جزءاً أو سبباً لغزو العراق. وقد يكون أكثر سهولة أنْ نفكر أنّ اجتماع الأسباب هو سبب الغزو، لأنّه ربّما لن نتمكن في الوقت الحاضر من معرفة الحقيقة، وربما لن نعرفها أبداً. لكنْ ليس هذا نهاية ما أنا بصدده. أريد أنْ أضيف أخيراً ما أعتقد أنّه قد يكون السبب الحقيقيّ.

ليس غريبا أنْ ينقلب التحالف بين الولايات المتّحدة وتنظيم "القاعدة" عداء. "القاعدة" لم تجبر الولايات المتّحدة لتأتي للمساعدة في حربها ضد الشيوعيّة في أفغانستان، بل إنّ الولايات المتّحدة هي التي اختارت أنْ تدعم "القاعدة" للتخلص من النظام القائم هناك، ولتفرض هيمنتها في مواجهة الاتحاد

السوفياتيّ. ومن الطبيعيّ بعد كلّ ما قام به تنظيم "القاعدة" أنْ يحاول في النتيجة الحصول على مكاسب سياسيّة وغيرها، لكنْ يبدو أنّ الولايات المتّحدة لا ترغب سوى في استغلال الآخرين واستعبادهم، وليس معاملتهم كأنداد. لعلّ أفغانستان كانت جنين المواجهة العالميّة الحاليّة بين قوى تبدو في الظاهر امتداداً للحروب الصليبيّة. ولعلّ الضربة الأقوى كانت عمليّة الحادي عشر من أيلول التي صفعت كرامة الولايات المتّحدة في عرينها.

سبقت هذه الضربة ولحقتها ضربات موجعة غيّرت مفاهيم المواجهة التي صارت صراعاً لا يعرف الحدود، ولا يمكن تحديد جبهاته لا مكاناً ولا زماناً. لكنّ تلك الضربات مجتمعة ما كانت لتعادل الانتهاك الذي حلّ بأرض الولايات المتّحدة. فجأة شعر المسؤولون الأميركيون أنّهم أشبه بمن يمشي في حلمه، يصارع أشباحاً تظهر في النور وفي الظلام، تتسلل عبر راداراته، يراها ولا يستطيع لمسها، أو لا يراها، وهي تضرب فيه، تحوم حوله، فوقه، تحته، وتدخل من النوافذ، ولا تخرج من الأبواب، لكنّها تختفي، ولا تترك سوى الدمار. يستيقظ فلا يميّز بين الحلم والحقيقة، إذ يرى بأمّ عينيه أبراجاً تذوب كمدن الملح. وحين يذهب للسبات مرة أخرى تظهر له الرؤيا من جديد، ويعلم أنّه ربّما تكون حقيقته التالية. كيف يقبض على تلك الأشباح إذاً؟ كيف يجذبها إلى نقطة واحدة في لحظة محدّدة؟

سواء بوعيه الكامل أم بمحض الحدس، ذاك الذي كان وراء غزو العراق كان في ذهنه فتح جبهة مركّزة يستقطب إليها معظم الإرهابيّين والعقائديّين و"الثورجيّين" والراغبين في الاقتناص من الولايات المتّحدة. إذا لم يكن بالإمكان تحديد الزمن تماماً، فعلى الأقل يمكن حصر المكان، ولو كان على حساب شعب كامل. ذلك المكان المختار كان العراق، لأنّه يتميّز بوفرة العوامل الأخرى المذكورة آنفا، بالإضافة إلى كونه مساحة مكانيّة محدّدة

تشكل أرض معركة بعيدة عن الولايات المتّحدة، وبأقل قدر من الخسائر الأميركيّة. وإذا صح التعبير: معركة لآخر فرد عراقي.

ومعروف عن الولايات المتّحدة مواقف كهذه، مثل ما صرّح به أحد جنرالاتها مرة، من أنّه لا مانع لديه مواصلة الحرب لآخر جندي أوروبي (إبّان الحرب العظمى، ولا أذكر المسميات). هكذا كان الأمر حين تمّ اختيار الرقعة المكانيّة التي أقيمت عليها إسرائيل. أوغندا؟ لا، فلسطين أفضل. فيها من العوامل الداعمة أكثر. مثلاً وجودها ضمن منطقة تتمتع بمخزون نفطيّ رائع، لكنّها منطقة لا يمكن لأميركا أو الغرب التجرّؤ عليها مباشرة. وجود إسرائيل يضمن عمليّة التحكم عن بعد. والذي لديه الطباخ لا يوسخ يديه. هذا بالإضافة طبعاً إلى الوجود التاريخيّ لـ"أبناء عمومتنا" في المنطقة.

مشكلة الولايات المتّحدة الآن أنّها لم تستطع وضع الطبّاخ المناسب في العراق. وغالب الظنّ أنها لن تستطيع. نحن نمر بزمن تعقدت فيه الأمور كثيراً لدرجة أنّها قد تكون تجاوزت إمكان مجرد الصراع المسلح. لقد أدّت سياسة الغرب، المتوّجة بسياسة الولايات المتّحدة، إلى ترك رواسب كامنة في المنطقة التي لا تعمل ديموغرافيتها لمصلحة إسرائيل أو الولايات المتّحدة. ولعلّ النكسات التي يمرّ بها العالم الآن ستستمر بهذا الحجم طالما استمر أمثال بوش وشارون في الحكم. الجدار الذي يبنيه شارون دليل عجز عن إيجاد حلول حكيمة، كما أنّ العمليّات الانتحاريّة دليل عجز عن إيجاد بدائل إيجابيّة، مثل توحيد كلمة المقاومة لتتمثل سياسيّا بدرجة الفاعليّة الاستشهاديّة نفسها.

لا يمكننا التخلّص من أمثال بوش وشارون إلاّ حين تقتنع الأكثريّة الصامتة من شعبيهما بضرورة تبديل مواقفها الانتخابيّة. ولا يمكن أنْ يحصل هذا إلاّ بالتوعية والتثقيف، وهذا يتطلّب عملاً دعائيّاً كبيراً من جانب العرب والمسلمين بوجه التحديد، حتّى يستطيعوا تبيان الجانب الحقيقيّ لحضارتهم.

ولا بدّ أنْ يتخذ المسلمون مواقف عمليّة معلنة من الأعمال التي تقوم بها بعض الفئات. سيعتبر السكوت علامة للرضى، وبذلك سيبقى المسلمون في قفص الاتهام على أنّهم يؤيّدون قتل الأبرياء، ما لم يضغطوا على علمائهم لإصدار فتاوى تحدّد معنى الاستشهاد والمقاومة، وما يجوز أو لا يجوز.

مؤسّسة للاستخبارات الثّقافيّة

تعتني دول العالم بأجهزة مخابراتها العسكريّة والأمنيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والصناعيّة، لكنّنا لا نجد مثيل هذه الأجهزة المتخصّصة في المجالات الثقافيّة والحضاريّة.

دُعيت مرّة للمشاركة في ندوة لمنظمة تقدم المشورة للحكومة الأستراليّة، وكان اللقاء يتمركز حول خطر الإرهاب على أرضنا، وانعكاسات المسألة على المجتمع الأستراليّ عموماً، والجاليتين العربيّة والإسلاميّة خصوصاً. ركّزت في حديثي على أهمّيّة التربية والثقافة في تبيان معالم الفروقات البشريّة في العادات والتقاليد والمعتقدات، وفي الوقت نفسه توضيح التماثل الشديد بين جوهر البشريّة، بغض النظر عن الفروقات السطحيّة.

ومن الطريف أنْ أذكر أنّه بمجرد أنْ عرضت فكرة التربية والتعليم، سارع بعضهم إلى الاستنتاج أنّ قصدي هو تعليم المجتمعات التي تفرز "الإرهاب". لكنّني بيّنت أنّ المقصد الحقيقيّ هو الثقافة الغربيّة، على مستوى الأفراد العاديّين، التي تفتقر إلى المعرفة الحقيقيّة لمعاناة الشعوب، ولا ترقى إلى تقدير حجم مسألة الخلل في العدالة على المستوى العالمي، وبيّنت كيف أنّ ابنتي التي تتلمذت على مدارس سيدني، وتخرجت من جامعتها العريقة باختصاصين ودرجة شرف، لاقت صعوبة في تحديد مكان بعض دول الشرق الأوسط حين كانت تخطط لرحلة تزور فيها مسقط رأس والديها، ووضّحت كيف أنّنا حين كنّا على مقاعد مدرستنا في دمشق، كنّا نعرف عن العالم أكثر ممّا كان العالم يعرف عنّا. ذكرت كيف كنّا نرسم خرائط الدول والقارات، بما فيها القارّة الأستراليّة، ونتباهى بتلوينها وتظليلها، ونتنافس على

معرفة المواقع وأسماء العواصم والموانئ، وعبّرت عن يقيني بأنّ التعدديّة الثقافيّة[1] أمر تاريخيّ من أمور الشرق الأوسط دون أنْ يكون مسألة "مسيّسة" أو "إيديولوجيّة" كما هي الحال في أستراليا، (طبعاً المسألة في الشرق الأوسط مختلفة اليوم، كما تثبت لنا أحداث العراق). وذكرت، من جملة ما ذكرت، كيف كان بعض أساتذتنا يتغنّى بمزايا الثقافة الصينيّة وعراقتها على سبيل المثال.

ولست أوحي هنا بأنّ نظام التعليم في الشرق أفضل من الغرب. على العكس، أحسن الغرب في تركيزه على النواحي العمليّة والجماليّة في التربية والتعليم، وتفوقت معاهده وجامعاته كثيراً، حتّى أنّ بعض الجامعات، مثل الجامعة الأميركيّة في بيروت، التي كان لي نصيب التخرج منها، كانت تفرض علينا في السنتين الأوليين متابعة مادّة تسمى "الدراسات الحضاريّة"، مهما كان اختصاصنا، نناقش فيها التطوّر الفكريّ من ملحمة غيلغامش إلى المقاومة الفلسطينيّة، أي تتيح لنا استعراض تاريخ الثقافة وتطوّرها من جوانبها المختلفة. وكان يتعاقب على إعطاء المادة أساتذة مختلفون كلّ فصل، ومنهم اللبنانيّ والسويديّ والأميركيّ والفلسطينيّ وغيرهم، كلّ له رأيه ومعتقده وطريقته، وكنّا نعتمد على المراجع، وليس على كتاب مقرّر واحد، وعلى أسلوب المناقشة والتحليل، وليس الحفظ والتسميع. طبعاً، تلك الجامعة علمانيّة المسلك، ديمقراطيّة الأسلوب.

ولذلك اقترحتُ ضرورة إدخال هذه الموادّ وهذا الأسلوب على مختلف المراحل الدراسيّة في أستراليا حتّى يتمكن المجتمع الأستراليّ فهم الإسلام مثلاً من وجوهه الأصيلة، وليس من جوانبه المشوّهة بفعل بعض المسلمين، أو وسائل الإعلام. ويمكن أنْ

[1] أنظر تعقيبي في نهاية هذا النص

يحصل هذا على أفضل وجه في أستراليا نظراً لأسلوب الحياة الديمقراطيّ هنا، والذي ينعكس على مختلف مجالات الحياة بطريقة أو بأخرى. مثلاً لا يمكن في بلد مثل أستراليا تدريس مادة شبيهة بما يقوم به بعض بلدان العالم الثالث من تسخير مادة "الاجتماعيّات" أو "التربية الوطنيّة" أو "الثقافة القوميّة" للترويج لأسلوب وطريقة وعقيدة النظام أو الحزب الحاكم.

وتأتي ضرورة تثقيف الشعب على أسس سليمة واضحة من واقع أنّ احتكار الثقافة من قبل الأكاديميّين، مهما بلغت قيمة أبحاثهم، يؤدي إلى عزلها وإلغاء دورها الفاعل في خلق عمليّة التواصل بين الشعوب، بل بين أبناء الشعب الواحد الذي ينتمي أفراده إلى أديان وقوميّات وإثنيّات وثقافات متعددة، أي كما هي حال شعب أستراليا.

العمل الأكاديميّ ضروريّ لأنّه يعتمد على أسلوب البحث العلميّ والموضوعيّة في جمع الحقائق وعرضها. ولكن هل ينتهي الأمر عند نشر البحث في مجلّات متخصّصة لا يقرؤها سوى القلّة، أم عند حصول الباحث على منحة أخرى لبحث آخر ينتهي أيضاً "على الرف"؟ بعبارة أخرى، التصرّف بالمعلومات يعادل أهمّيّة المعلومات، بل يزيد. والمسألة هي استخدام المعلومات الصحيحة في الوقت المناسب، وللجهة المناسبة. وهنا التشابه بين فائدة الاستخبارات الثقافيّة والعسكريّة مثلاً، وإن كانت الناحية العسكريّة أشدّ وضوحاً لأنّ نتائجها مباشرة محسوسة. مثلاً، المعلومة الصحيحة تؤدي إلى درء هجوم أو انتصار على عدوّ. ولن تتوضّح لنا قيمة الناحية الثقافيّة إلا بعد تكريس أسلوب شبيه بأيّ عمليّة استخبارات، ألا وهو توظيف المعلومة المناسبة في الوقت المناسب، والحصول عليها من المورد المناسب، وتصويبها نحو الهدف الصحيح. المطلوب هو التفاعل الإيجابيّ مع المعطيات الكثيرة المتوفرة وتحويلها إلى معلومات مفيدة. وهذا لا يمكن ضمن مقصدنا الحاليّ إلا باعتماد تنسيق مركزي من

طريق مؤسّسة تتشكل لهذا الغرض. وضرورة مثل هذه المؤسّسة تعزّز بسبب تشابك المصالح العالميّة، وزيادة تدخّل وتداخل الأمم بعضها بالآخر ممّا يعرّض الشعوب لتماسّ حقيقي مع بعضها نتيجة تحسّن وسائل الإعلام والاتصال، فما عاد بالإمكان عزل الشعوب عما يقوم به ساستها أو عسكريوها، وهذا يعني أنّ حسم الأمور لن يتم فقط من طريق قيام الساسة بتوقيع اتفاقيّات التفاهم وفرضها على الناس. لا بدّ من اتخاذ خطوات تضمن استمرار التفاهم، وهذا لا يتم سوى من طريق فهم الشعوب بعضها للآخر. ومن الناحية العمليّة، وبما أنّه لا يمكن لكل مواطن أنْ يدرس كلّ شيء عن العالم أو عن الآخرين، لا بدّ أنْ تناط هذه المهام بخبراء متخصصين يتولّون أمر التوعية الشعبيّة، وتقديم الاستشارات الذكيّة المدروسة لصانعي القرار حتّى تنسجم قراراتهم مع طموحات شعوبهم والتوجّهات العالميّة.

والمؤسّسة التي اقترحت قيامها في أستراليا، من الضروري من وجهة نظري أنْ تقوم في كلّ دولة من دول العالم. الاسم الإنكليزي لهذه المؤسّسة هو Institute of Cultural Intelligence، وكلمة "استخبارات" العربيّة، وهي الرديفة لكلمة "intelligence"، تفتقد عنصراً مهمّاً من عناصر الكلمة الإنكليزيّة، والتي تحتوي على مضمونين: الذكاء الخلاّق والاستخبارات. فاقتراحي يتضمن العمليتين "الذكائيّة" و"الاستخباراتيّة"، ولهذا أجد أنّ الكلمة الإنكليزيّة رائعة في جمعها للأمرين معاً، فالحصول على المعلومات يحتاج إلى فطنة وحكمة وذكاء، كما أنّ استخدام المعلومات والإفادة منها يحتاج إلى قدر أكبر من كلّ هذه الضرورات.

إنّ اختطاف الفكر من قبل فئات متطرفة قليلة، وتسخيره لشحن عواطف الناس، وتجنيد بعض الأفراد لتقديم أنفسهم متفجرات حيّة ضد من يعتبرونه عدوّاً لدينهم، هو عمليّة تعتمد على تفسيرات وتأويلات معينة للكتب السماويّة والرسائل

النبويّة. ونجد أنّه في معظم الحالات لا يوجد من الأكثريّة التي لا تؤمن بهذه الأفعال من يتعرض لهذه الأفكار بدحضها أو إيجاد ثغراتها. ويبدو أنّ القادة الدينيّين لا يتجرؤون، أو لا يعلمون كيف يجابهون هذه المعضلة. مثلاً يقوم بعض متطرفي العصر الحديث بتكفير من لا يتبع أهوائهم، أو تكفير طوائف أخرى من الدين نفسه، بينما لم نجد أيّ مرجعيّة تقف وتكفّر العمل الذي يستهدف قتل الأبرياء باسم الدين. طبعاً ظهرت بعض الإدانات لهذه الأعمال ليس إلاّ، ولكن ماهو رأي الدين الحقيقيّ بهذا الموضوع؟

لا بدّ أنْ تتوفر الإجابة بين سطور الكتب، أو في حكمة العلماء واجتهاداتهم، لكنّ الظروف التي نعيشها صارت تحتاج إلى أسلوب يتصف بالإيجابيّة الاستباقيّة، أي تحضير الأجوبة اللازمة لمجابهة الحجج التي يعتمدها البعض لتبرير فعلته. طبعاً لن يضمن مجرد عرض الحجج تغيير قناعات هؤلاء العقائديّين، ولكن يمكن التأثير على القاعدة الشعبيّة المغبونة التي قد تنظر بعين العطف إلى أهداف هؤلاء المتطرفين، وإن كانت لا تقبل وسائلهم (نتيجة نقص العدالة العالميّة، وكيل الغرب بمكيالين في تعامله مع بعض القضايا المصيريّة للشعوب). وهذا شبيه بما كان يحدث حين تتعرض البلاد لأيّ هجوم خارجي، فتلتفّ غالبيّة الشعب مع الزعيم مهما كان فاسقاً في الديكتاتوريّة والظلم.

تنسيق المعلومات ومركزيّتها من أهمّ عناصر تشغيل مؤسّسة الاستخبارت الثقافيّة. وهذا يعني تجميع المعلومات اللازمة عن موضوع معيّن والأحكام الواردة فيه، وخزنها للاستفادة منها في الوقت والطريقة المناسبين. ووجود هذه المعلومات لدى دائرة مركزيّة واحدة يسهل عمليّة التنسيق. وليس في هذا فرق مقارنة مع أيّ دائرة للاستخبارات العسكريّة مثلاً. الفرق هو في قضيّة التصرّف بالمعلومات. ففي حين تبقى المعلومات العسكريّة سريّة بشكل كامل، تهدف المعلومات الثقافيّة إلى الانتشار الكامل لتصل إلى عامّة الشعب في الوقت المناسب. وهذا الانتشار يمكن

أنْ يأتي من طريق النشر في الجرائد والمجلات، والوسائل المسموعة والمرئيّة، والندوات والمناظرات. فعلى سبيل المثال حين تطرح فكرة "الإرهاب"، لا بدّ من توفير المعلومات الكافية لتثقيف الجميع حول المفاهيم المختلفة المرتبطة بهذه الكلمة، حتّى يتمكّن المجتمع العامّ من الخلاص إلى تعريف واضح للكلمة، والتمييز بينها وبين ما اختلط معها. مثلاً لا بدّ من التمييز بين الإرهاب والمقاومة، وبين الإرهاب والجهاد، وبين حماية أمن الدولة وحماية النظام القائم.

والأمر الأكثر إلحاحاً هو ضرورة مواجهة كلّ من يتشدّق باسم أيّ دين بطريقة تخوّله تبرير أعماله المنافية للشريعة، بالدليل الشافي من دينه نفسه. ونكرّر هنا أنّ هذا من اختصاص المرجعيّات الدينيّة أصلاً، ولكن في غياب دور هذه المرجعيّات التي صارت خجولة في عصرنا هذا، لا بدّ للدول التي تريد حماية نفسها من تطويق هذا الخلل الفكريّ بالقيام بمبادرات استباقيّة. وحتّى الدول أو الشعوب المحسوبة على هذه الفئات المتطرفة، لا بدّ لها من أنْ تعلن موقفها من هذه القضايا بشكل واضح في هذا العصر الذي صار يسمّى بعصر "القرية" العالميّة.

وتبقى المهمّة الأساس لمؤسسة الاستخبارات الثقافيّة في وطن ما، توظيف قدراتها لتقديم المشورة المناسبة لأركان الحكم. ولا بدّ للنصائح التي تعطى للقيّمين على الأمر في الدول الغربيّة أنْ تتضمن فهماً حقيقيّاً للثقافات المختلفة، وحساسيّات الشعوب ومطامحها، وليس مطامح الحكومات الديكتاتوريّة التي تسيطر عليها. إنّ فشل الولايات المتّحدة في فهم هذه الحقائق هو ما أوصلها وأوصل العالم إلى هذه الحلول المبتورة لكلّ المسائل التي تدخلت بها مثل حربها في فييتنام، وتدخلها في أميركا الجنوبيّة، وإيران، وأفغانستان، وحربها في العراق، وعلاقتها بالمسألة الفلسطينيّة. لايمكن طبعاً تحميل الولايات المتّحدة كلّ أسباب معاناة البشريّة، ولكنّ العالم يأمل من دولة متقدمة رائدة

مثل الولايات المتّحدة، ومالها من أفضال علميّة وحضاريّة على البشريّة، أنْ تكون أكثر حكمة في تعاملها.

ولعلّ منظّمة الأمم المتّحدة، وجامعة الدول العربيّة، وما يشبههما من منظّمات، أفضل من يتبنّى مثل هذه المؤسّسات الاستخباراتيّة. ولنلاحظ أنّ ما تصرفه الشعوب والجهات المعنيّة على مثل هذه المؤسّسات لا يضيع سدى لأنّه أصلاً تجميع للمعلومات الثقافيّة. وشبيه بذلك أنْ تقوم المدارس الأستراليّة مثلاً بإدخال موادّ الدراسات الحضاريّة، فتكلفة هذه الأمور ستكون في محلّها تماماً لأنّها تمهد لخلق مجتمع أكثر وعياً لعصر العولمة الذي نعيشه. إنّ الخوف الظاهر من العولمة له مايبرّره الآن وذلك لسببين رئيسين في نظري. الأوّل هو عدم التواصل الذكي بين الشعوب، وسيطرة "القبليّة" على تفكير أكثر البشر. والقبليّة تأخذ إيديولوجيات مختلفة دينيّة أو سياسيّة أو قوميّة. والثاني هو الشعور العامّ أنّ الولايات المتّحدة اختطفت العولمة لمصلحتها، بنفوذها على مختلف النواحي الحياتيّة بدءاً من مكدونالد وهوليوود، ومروراً بممارساتها التعسّفيّة تجاه بعض الشعوب، وانتهاء عند اللانهاية...

لكنّ العولمة يجب أنْ لا تعني التخلّي عن التراث الخاص بالأفراد أو الشعوب، بل التفاعل مع الآخرين على أساس الاحترام والاستفادة المتبادلين بين مختلف القيم. ولو تعاملت الحكومة الأستراليّة السابقة (الليبراليّة برئاسة جون هاورد) مع الولايات المتّحدة على هذا الأساس، لما ظهرت وكأنها "منبطحة" تماماً أمام الإرادة الأميركيّة، بل كان بإمكانها التعامل بطريقة مماثلة لتعامل كندا ونيوزيلندة، الدولتين الشبيهتين بنا، مع الأوضاع التي سادت السنوات السابقة. هاتان الدولتان من حلفاء الولايات المتّحدة، لكنّ التحالف لا يعني سلب الإرادة، بل يجب أنْ يعزز الإرادة. وحتّى يكون التحالف إيجابيّاً، وبالمثل حتّى تكون العولمة إيجابيّة التأثير، لا بدّ من تطمين الأفراد والشعوب المختلفة أنّها

لن تخسر ذاتها حين تدخل في هذا الزواج الذي صار لا بدّ منه لمصلحة الكرة الأرضيّة. وهنا روعة القول: ((وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...))، فالعولمة مسألة قديمة قدم التاريخ، وإنّما أصبحنا اليوم أكثر وعياً لها (وأشدّ ذعراً) نتيجة لسهولة وسائل الاتصالات وسرعتها الضوئيّة.

بيّنت بعض الأحداث التي أصابت العالم العربيّ أنّ الغرب ليس هو المستهدف الوحيد، بل نشاهد كلّ يوم كيف يسقط الأبرياء أكثر ممّا يسقط من المتهمين بالإجرام أو الكفر أو العدوان. وهذا يعني أنّ مؤسّسات الاستخبارات الثقافيّة ضروريّة لكلّ الأمم، وخصوصاً لتلك الأمم التي تحتضن مراكز يفترض أنْ تصنع القرار، ونضرب مثلاً مؤسّسة الأزهر في القاهرة، التي يقع اليوم عبء كبير عليها في تنسيق المعلومات والأحكام، والخروج بها إلى الملأ بشكل يوضح للعالم الإسلاميّ حقيقة المراد من تلك الأحكام. أي لا بدّ من اتخاذ موقف واضح ممّا يحدث في العالم. ولا يكفي أنْ يكون الموقف مجرد "شهادة" أو "خطاب"، بل لا بدّ أنْ يكون "حكماً" مستنداً إلى أسس الشريعة الحقيقيّة. ولا بدّ لهذه الأسس أنْ تكون مسندة مدعومة، وهي بحاجة إلى مؤسّسة للاستخبارت الثقافيّة تعمل على تركيز الجهد، وتوحيد المرجعيّة، اعتماداً على براهين موثوقة من وجهة النظر الإسلاميّة في هذه الحالة. (وحتّى نكون منصفين، لا بدّ للدول التي تحتضن مثل هذه المؤسّسات أنْ تترك لها حرّيّة العمل والتعبير لا أنْ تتركها خاضعة لسلطتها.)

ليس الهدف من مؤسّسة الاستخبارات الثقافيّة "التجسس" على ثقافة الآخرين، أو متابعة سلوكهم، فهذا أمر متروك لأجهزة الاستخبارات الأمنيّة وغيرها. هذه المؤسّسة تتميز عن غيرها من مؤسّسات المخابرات أنّ كلمة "تجسّس" (بحرف الجيم) يمكن استبدالها بكلمة "تحسّس" (بالحاء). إنّ إزالة هذه النقطة قد لا تغيّر كثيراً من مظهر الكلمة، ولكن تغيّر جذريّاً من

مضمونها. عمل مؤسّسات الاستخبارات الثقافيّة يجب أنْ يتركّز أوّلاً وأخيراً على النواحي الإيجابيّة في تعزيز التواصل بين البشر، دون أنْ يهمل اختراق الثقافات الأخرى بهدف الفهم أو قرع نواقيس الخطر حين تدعو الحاجة. ونحن لا نهدف إلى التلاعب بالألفاظ، بل نؤكد على كلمة "تحسّس" (بحرف الحاء)، أو "استشعار"، لأن هذا هو جوهر ما نعرضه من جدل، وهو ما بدأنا به حديثنا من حيث عدم قابليّة بعض الدول الرائدة على تحسس مشاعر بقيّة أفراد البشريّة، كأحد أسباب هذا العصر المظلم الذي يخيّم علينا.

رأى معظم المثقفين والصحافيّين في أستراليا أنّ القوانين التي أبرمتها الحكومة السابقة بهدف المساعدة على مواجهة الإرهاب، مثل التي تتناول مسألة "التحريض على العصيان"، ستسهم في إقامة دولة بوليسيّة، لأنّ الجرأة على الكلام ستتناقص خوفاً من التعرّض للمقاضاة والسجن، فالحكومة قد تخلط بين التعبير عن الرأي والتحريض على الفتنة. وغالباً ما يخضع الكلام للتأويل والتفسير، ومهما كان المقصود أو النتيجة، ستحدّ العمليّة من الحريّات، وستعرّض أصحاب الرأي الحر لمشاكل وتكاليف جمّة، وهذا من عوامل تقويض الديمقراطيّة. فإذا أصاب القلق أصحاب الرأي من الأستراليّين الأنجلوسيلتيّين وغيرهم من أورُبيّي الأصول، فما حال الأستراليّين العرب والمسلمين؟ كيف ستتعامل هذه القوانين مع طبيعة التعبير عن الرأي، التي تختلف من ثقافة إلى أخرى، ممّا سيزيد من تعقيد المشكلة؟ وهل ستحتاج مؤسّسة الاستخبارات الثقافيّة إلى تكريس جزء كبير من مواردها ووقتها لتثقيف الحكومة حول ثغراتها عوضاً عن التركيز الكامل على مجابهة الأذى؟

وإن بدا للبعض أنّنا نتأرجح في توجيه النداء بين الغرب والشرق، نؤكّد أنّنا تماماً نفعل ذلك لأنّ المسألة ليست شرقيّة أو غربيّة، بل عالميّة. ومؤسّسة للاستخبارات الثقافيّة سيكون لها دور على كلّ صعيد. ونحن نعتقد أنّ مؤسّسة كهذه إذا اعتُمِدَت لدى

الأمم المتّحدة قد تمهد الطريق لإصلاح حقيقي ضمن هذه الهيئة التي تَطلّع العالم إليها بأمل كبير في وقت من الأوقات. وبالروح نفسها، هل يمكن ياترى أنْ تسبق جامعة الدول العربيّة فتقيم مؤسّسة كهذه لتقول للعالم إنّنا نود فهم أنفسنا بطريقة أفضل حتّى نسهم في فهم هذا العالم وإغنائه بطريقة إيجابيّة؟

أتذكّر دائماً مقالة نشرها الدكتور جورج جبور في الستينيّات من القرن المنصرم تحت عنوان "مطلوب إنشاء مؤسّسة لدراسة الوحدة العربيّة" (أو من هذا القبيل). كنت وقتها في مطلع شبابي، وكانت المقالة بداية لإعجابي بهذا المفكّر، لأنّني تلمّست النواحي العمليّة والعلميّة في اقتراحه، والتي كان العرب بحاجة لها وهم تحت تأثير مخدرات الشعارات القوميّة التي لا تتعدى الخطابة، والتي نعلم اليوم أين أوصلتنا.

شعوري اليوم أنّ العالم بحاجة لمؤسّسة (أو مؤسّسات) للاستخبارات الثقافيّة، لكنّني لا أعلم إنْ كانت ستنتهي كمقالة ذكرها أحدهم يوماً، ثم استشهد بها آخر بعد أربعين عاماً، والعالم لازال متخبطاً بين هويّاته القبليّة، وعملاق نَهَبَ منه وسيلة أمنه وسلامه.

سيدني، 2005

(تعقيب: أميل شخصيّاً إلى تكريس التعدديّة العرقيّة، والمحافظة على الثقافة الأستراليّة الواحدة. التعدديّة الثقافيّة، كمنهج معتمد، قد تؤدّي إلى القضاء على خصوصيّة وديمقراطيّة أستراليا كما نعرفها، علماً أنّ هذه الخصوصيّة لا بدّ أن تتطور لأن الثقافة كائن عضويّ لا يبقى على حاله، لكنّ التطوّر الصحّي هو ما يحصل وفق شروط النموّ التدريجيّ العقلانيّ، والذي ستشارك فيه كلّ مكوّنات المجتمع الأستراليّ.)

جَلسَة مَع لُوِيس سْكوتْ

لويس سكوت كاتب وشاعر أميركيّ من أصل إفريقيّ، سبق له الإقامة في أستراليا بضع سنوات قبل استقراره الأخير في نيوزيلندا . دائم التجوال، يمضي ستة أشهر في نيوزيلندا، ويمضي باقي السنة بين دول العالم خصوصاً الولايات المتّحدة وأفريقيا، يجمع بين حضور المؤتمرات والندوات الأدبيّة والمشاركة فيها، وبين تجارة التذكارات، فيتبضّع ما يستطيع لتزويد متجره في نيوزيلندا بالتحف الإفريقيّة.

يزورنا كلّما حضر إلى سيدني، والتقيت به مؤخراً خلال غداء في قلب المدينة استحضرنا فيه علاقتنا القلميّة يوم كان مستشاراً وكاتباً في "كلمات"، المجلّة التي كنت أصدرها.

تناولت أحاديثنا موضوعات شتّى، لكنّها صبّت جميعها في لجين واسع من الشعور بالظلم السياسيّ والاجتماعيّ الذي يسود العالم، ومسؤوليّة صانعي القرار عن ذلك، ونفاقهم سواء أكانوا من يدير دفّة هذه الكوارث متستراً بقوّة وتقدّم الولايات المتّحدة، أم من يخضع لإرادتها من حكّام العالم الثالث الذين لا يجدون غضاضة من بيع شعوبهم لأجل البقاء في الحكم. شعرنا مثلاً أنّنا لانريد الوضع الحاليّ في العراق، وما كنّا نريده كما كان، لكنْ لا بدّ أنّ هنالك طريقة أخرى يمكن اعتمادها، لا تتّكل على الاحتلال أو الاستبداد. هذه الطريقة التي تترك للشعب تأسيس وطنه وفقاً لأساليب العدالة والحرّيّة والمساواة تحتاج إلى ديمقراطيّة تتأصل في ثقافة الأمّة، وهي ما تحاول الولايات المتّحدة وحلفاؤها، ومع الأسف الشديد أبناء الوطن أنفسهم، القضاء عليه بالرجوع إلى صيغة توافقيّة عرقيّة طائفيّة.

تميّزت مواقف لويس سكوت عبر السنين بمعدنها المصقول من الكرامة والإباء، يعبّر عنها دائماً في شعره وكتاباته. طرح مسألة العنصريّة في الولايات المتّحدة، واستعرض مأساة المضطهدين السود فيها، وتعدّاها إلى السكان الأصليّين في جميع أنحاء العالم، على غرار ما فعل في مجموعته "ألوان أرضيّة"، حيث يمكننا أيضاً تلمّس مرارته الشخصيّة في نصوصه التي

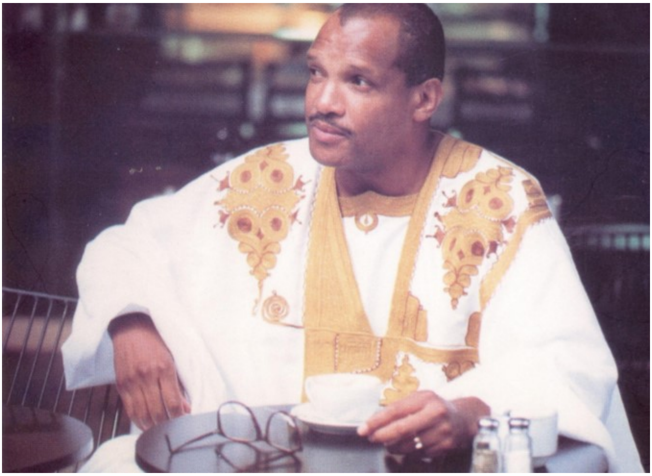

لويس سكوت بعدسة دين نيكسون

وصفت الشارع الذي كان يعيش فيه، وحيث تشارك السود واللاتينيّون بتلقي قذائف تمييز البيض ضدّهم. وتناول في المجموعة نفسها تجربته في حرب فيتنام، ومقته الشديد لها، ووصف ذلك بتهكّم شديد، وبفلسفة إنسانيّة عميقة.

وهكذا كان من الطبيعيّ لشخص مثلي، يعاني مثل كلّ العرب من تداعيات هزيمة 1967، وأحداث الحاضر في فلسطين والعراق، أنْ يهتّم ويستجيب لمعاناة لويس سكوت، وأنْ يشترك معه في حوار فكريّ إنسانيّ لا ينتهي.

من أهمّ مميزات لويس سكوت، حسبما كنت أستحضر وأنا أستمع إليه، أنّه على الرّغم من توظيفه وسائله القلميّة في

التعبير عن تلك الحالات الإنسانيّة، فإنّه يحافظ على إبداعه الأدبيّ ممّا يبعده عن أنْ يكون "ملتزماً" بالمعنى التقليديّ. بعبارة أخرى، ليس الالتزام بحدّ ذاته، ولا الإبداع وحده غاية لويس سكوت. ربّما لا يفكّر بأيّ غاية محددة، بل يعبر عن إنسانيّته مستخدماً تلك الوسيلة الراقية التي يحسن استخدامها. ربّما أناقش معه هذه الفكرة في لقاء آخر.

أهداني نسخة من مجموعته الشعريّة الأخيرة "الكلام بأكثر من لسان"، وتنبّهت أنّه اختتمها بمقالة بعنوان "جنديّ أميركيّ" تعزّز مواقفه السابقة، وتدلّ على أنّه يواصل تجربته الإنسانيّة بطريقة متكاملة، لا يعدم فيها الإنسان الشاعر ولا الشاعر الإنسان. يشرّفني أنْ أقدّم هنا ترجمتي لها:

أنا الجنديّ الأميركيّ السابق في فيتنام
وأنت الجنديّ الاميركيّ الميّت في العراق

أحيطك علماً يا قارئي أنّ عدد الجنود الأميركيّين الذين قتلوا في العراق يزيد عن عدد الأميركيّين وغيرهم من الجنسيات الأخرى الذين قتلوا يوم الحادي عشر من أيلول عام 2001 في مركز التجارة العالميّ في نيويورك، وفي البنتاغون، وفي بنسلفانيا على متن طائرة الرحلة 93. كما أنّ نقطة العلاّم الإنسانيّة المريبة هذه لا تداني، ولو باليسير، مقدار خسارة الأرواح البشريّة الأخرى التي نتجت عن الحرب التي شنّتها الولايات المتّحدة على العراق تحت وهم أنّها ستجعل العالم مكاناً أكثر أمناً "لمحبي الحرّيّة"، على حدّ تعبير الرئيس جورج بوش. صار صعباً الآن على أكثر الأميركيّين وطنيّة أنْ يستمر في المضيّ داخل هذه الصحراء من الأضاليل الآتية من البيت الأبيض

حول ما يسمى الحرب على الإرهاب التي جاءت سيئة التخطيط والتنفيذ.

قمت أخيراً بزيارة إلى الولايات المتّحدة، موطني الأصليّ، وفي المطار حصلت على نسخة من جريدة "الولايات المتّحدة اليوم". هذه الجريدة، كغيرها، تقدم نشرة يوميّة عن الجنود الأميركيّين الذين قضوا في العراق، وغالباً ما تنشر صورة الجنديّ القتيل. وفي هذا اليوم، وأمام كشك الصحف اليوميّة في المطار، وقفت وجهاً لوجه أمام الجنديّ القتيل الذي كان يرمقني من على الصفحة الأولى. العراق كانت حربه التي مضى على أساسها في خدمة وطنه، أمّا أنا فسبق أنْ كانت فيتنام. كلانا ذهب 'يحارب من أجل الحرّيّة' تحت غمامة الأكاذيب التي حبكتها حكومتنا. أعلم الآن أنّ حكومتنا كذبت علينا، أمّا الجنديّ القتيل، الذي وجهي في وجهه، لن يعرف أبداً.

كان عمره 22 عاماً. وكان عمري 20 عاماً حين جنّدوني وأرسلوني إلى فيتنام. حربي انتهت منذ 38 عاماً، عشت بعدها ما يكفي لاكتشاف الأكاذيب التي حيكت عن تلك الحرب. اليوم أرى الناس يذهبون إلى فيتنام للعطلة، وكأنّ شيئاً لم يكن. أمّا أنا فلا أرى فيها سوى مقبرة.

لو عاش الجنديّ الشاب، الذي وجهي في وجهه، لمدة 38 سنة بعد انتهاء حربه، لا بدّ أنْ يكتشف كلّ الأكاذيب التي صدرت عن رجل يتباهى وكأنّ الرب مسدّس سداسيّ الطلقات على جنبه. مات، ومهما يرى الآن، لن يرى الأكاذيب التي أدّت إلى موته. ولن يرى يوماً يذهب الناس فيه للعطلة في المكان الذي صار مقبرته، وكأنّ شيئاً لم يكن.

لو استطعت، ماذا أقول للجنديّ الميّت الذي يلبس وجهه وجهي؟

حسناً، سأقول له إنّني غادرت بلد ولادتي بعد عودتي من الحرب. وسبق لي أنْ خلّفت ورائي عديداً من القتلى في فيتنام، أعمارهم مثل عمرك. لثمت ثغر الخوف وتقيّأت، ولا شكّ عندي أنّ هذا ما حصل لك. لم أمت مثلك، لكنّ شيئاً ما مات بداخلي. ما عدت أتجوّل كالشبح، مع أنّني فعلت ذلك كلّ يوم وعلى مدى سنين عديدة بعد عودتي إلى ما كنّا نسميه "العالم" (كما كنّا نقول في فيتنام عن الولايات المتّحدة). شعرت أنّني طُعنت في الظهر جرّاء هجمة الأكاذيب التي استغلّت حياتي، لكنّني صمّمت أنْ لا تكون بقيّتي الباقية من نصيب الدولة التي ولدت فيها. لا أعلم كيف كنتَ ستسير بعد 38 سنة لو لم تمت، لكنّني آمل أنك كنت ستجد مثلي هذه الكلمات لجيمس بالدوين: 'يجب ألاّ نسمح لصانعي الدمار أنْ يكونوا أبرياء أيضاً.' حريّتي بدأت من هذه الكلمات.

لو استطعت، ماذا أقول للجنديّ الميّت الذي يلبس وجهه وجهي؟

حسناً، سأقول إنك مذ فقدت حياتك، حين سألوا الرجل الذي أرسلك إلى حربه أنْ يلقي الضوء على جانب مهم من جوانب فترته الرئاسيّة، أجاب أنّه ذهب إلى الصيد وعاد بسمكة كبيرة. مهما يكن السبب وراء هذا الجواب، حتماً لم يكن الاهتمام بحياتك. والآن زال اللحم عن عظامك؛ ولسوف يعود الرجل الذي أرسلك إلى الحرب إلى مزرعته في كروفورد، تكساس، ولا شكّ أنّه سيعكف فوراً على التخطيط لبقعة جيّدة أخرى يمارس فيها صيده. لكنّني أتذكر كلمات ريتشارد

سيلزر: 'أنْ تمعن النظر في العظام، فإنّما تتأمّل مصير الإنسان. العظام تنذكار الأرض، فهي كلّ ما يتبقى من الإنسان بعد أنْ تنوب أجزاؤه الأخرى، وتتفتت وتتسرب في أديم الأرض.' عظامك لازالت فتيّة وستبقى شاهدة على الأكاذيب.

لو استطعت، ماذا أقول للجنديّ الميّت الذي يلبس وجهه وجهي؟

حسناً، سأقول إنّنا ما كان يجب أنْ نسمح للسياسيّين المجانين أنْ يغتصبوا حياتك القصيرة بتلك الطريقة. إنْ كان ثمّة "محور للشرّ"، فلا شكّ أنّه يعيش داخل قلوب الكهول الذين يرسلون الشباب ليموتوا في حمّى البحث عن العظمة الدوليّة، وفي أتون الجشع. لايمكن تصحيح هذا الوضع بمجرد تغطية تابوتك بعلم البلاد!

لو استطعت، ماذا أقول للجنديّ الميّت الذي يلبس وجهه وجهي؟

سيدني، 2008

نُوح في أُستراليا

أستراليا، بكلّ جمالها وسحرها ورفاهيّتها، قارّة كبيرة، صحراء في معظم مناطقها الداخليّة، محاطة بغابات وأنهار وبحيرات وسواحل وشواطئ في مناطقها المحاذية للمحيطات والبحار. هذه الطبيعة تجعل الاختلاف بين درجات الحرارة كبيراً بين الليل والنهار، لكنّ هذا التباين ليس وحده ما يترك لدينا انطباعاً عن غرابة أو قسوة المناخ. هنالك ظواهر أخرى تهلّ علينا بين حين وآخر دون سابق إنذار، أو حتّى لو سمعنا من مكتب الأرصاد الجويّة أنّ عاصفة قادمة، قد لا ننشغل بالخبر لأنّ المساحات الشاسعة لهذه الجزيرة الهائلة تجعل من التقلبات الجويّة المحليّة قضيّة معقّدة، فبين التنبؤ بالحالة وحدوثها قد تحصل تغييرات تعدّل منها أو تحرف مسيرتها فيقع فيها البعض ولا يشعر بها الآخر. على سبيل المثال، حين نستمع إلى النشرة الجويّة كلّ صباح، ونحن في مدينة سيدني، تعطى درجات الحرارة لضواحٍ مختلفة، وهذا طبيعيّ في مدينة يبلغ قطرها الأكبر أكثر من سبعين كيلومتراً، وتتراوح تضاريسها بين الهضاب والسهول والأنهار والبحيرات والشواطئ والغابات.

وأستراليا ليست بمنأىً عن الكوارث الطبيعيّة التي تحصل بين الحين والآخر. مثلاً دمّر إعصار "تريسي" مدينة داروين، عاصمة المقاطعة الشماليّة، عام 1974. وفي عام 1983 اندلعت حرائق الغابات في ولاية جنوب أستراليا فيما صار يعرف بـ"أربعاء الرماد". واندلعت الحرائق ثانية في ولاية فيكتوريا منذ سنتين فيما صار يعرف بـ"السبت الأسود". وخلال عشرين سنة من إقامتنا في مدينة سيدني أذكر أنّنا في مرتين جمعنا وثائقنا

الرسميّة وألبومات الصور العائليّة في سيّارتنا استعداداً للمغادرة إذا اقتربت الحرائق منّا أكثر. ويقول "دافيد همفريز" (سيدني مورنينغ هيرالد 15-2011/01/16) إنّ حجم هذه الكوارث يجعل كلّ منها ينطبع في ذاكرة الأمّة إلى أنْ تأتي كارثة جديدة تصبح نقطة علاّم يستند إليها الناس لسنوات تليها، وهكذا. وينوّه "همفريز" بالتراث اليهوديّ-المسيحيّ في تركيزه على حادثة تتبوأ مركزاً فريداً لديه، ألا وهي "الطوفان".

لعل قصّة طوفان نوح من أهمّ ما خلّدته الذاكرة البشريّة، بل جعلته ركناً من أركان الثقافة الدينيّة، بما فيها الإسلاميّة، التي تعزو سبب إنقاذ البشريّة والكائنات الأخرى إلى العمل الخيّر الذي قام به نوح ببناء مركب جمع عليه زوجين من كلّ نوع من المخلوقات.

أستراليا أيضاً لا تفوتها الفيضانات الباهرة، ولا تخلو من

بروفيسور مانفريد يورغنسن على شرفة منزله

بشر من طينة نوح. الطوفان الأستراليّ الأكبر في الذاكرة الحديثة كان عام 1974، وأصاب يومها مدينة "برزبن"، عاصمة ولاية

كوينزلاند، وثالث المدن الأستراليّة من حيث تعداد السكان. واخترق هذا الطوفان ذاكرة الأمّة وعاطفتها وثقافتها، فنجد مثلاً أنّ "مانفريد يورغنسن" بنى روايته "عينا النمر" حوله. وكنتُ في زيارته في شقته في وسط "برزبن" منذ شهرين فقط قبل بدء الفيضانات الأخيرة. وجلسنا في شرفة داره المطلة على النهر والمرتفعة عن سطح الماء أمتاراً قليلة. كنّا نتنعّم بجمال النهر والطبيعة وهو يحدثني عن كتابه الأخير ويهديني نسخة منه. تذكّرت عندها وصفه لطوفان 1974 ضمن روايته التي سبق أنْ قرأتها، واعتقدت حينها أنّ الكاتب أعمل خياله كثيراً في وصف الفيضانات والسيول وما آلت إليه "برزبن" آنذاك، لكنّني الآن على يقين من واقعيّة أوصافه بعد كلّ ما شهدناه عن طوفان 2011 الذي غطّى ثلاثة أرباع ولاية كوينزلاند، وضرب عاصمتها. وحتّى هذه اللحظة لازال صديقي دون كهرباء أو هاتف، واقتصر اطمئناني عنه ببريد إلكتروني مقتضب وصلني منه وأنا أكتب هذه السطور!

بدأت مياه الفيضان بالانحسار لتبدأ عمليّات التنظيف والإصلاح والترميم وإعادة البناء. غطّت المياه مساحات شاسعة من ولاية كوينزلاند الأستراليّة في غضون أيّام قليلة، لتكون الحصيلة خسارات مباشرة بمليارات الدولارات، وخسارات لاحقة ستنتج عن الوقت اللازم للتعافي، وإعادة البناء والزراعة وتشغيل ما تعطّل من مصانع. أمّا الخسائر الأكبر فكانت، بلا ريب، خسائر البشر بما في ذلك الأطفال والمسنون. وصل عدد الموتى عشرين حتّى لحظة كتابة هذا النص، وهذه خسائر لا يمكن تعويضها.

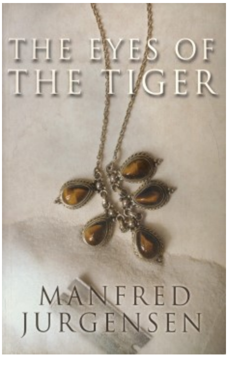

تضمّنت بعض الروايات تفاصيل مريعة لما حصل. فهذه أمّ حامل جرفتها السيول من بيتها وهي تحمل طفلتها، تمكنت من

التعلّق بأنبوب أحد المزاريب، ثم ما لبثت أنْ جرفت ثانية إلى سكّة قطار، وهناك فلتت ابنتها من بين يديها لتبتلعها مياه التيّار العاتية.

يقدّر عدد البيوت التي ستحتاج إعادة البناء بثمان وعشرين ألفاً، بكلفة تقارب تسعة بلايين دولار. ومنذ بداية شهر ديسمبر بلغ معدّل خسائر صادرات الفحم خمسمئة مليون دولار في الأسبوع. وتقدّر تكاليف ترميم المرافق الأساس (عدا مدينة برزبن)، بما في ذلك الأضرار التي أصابت القطاع الزراعيّ، بخمسة بلايين دولار. وإذا أضفنا مرافق مدينة برزبن، والخسائر السياحيّة، والأضرار في ولاية فيكتوريا، تقترب الكلفة من عشرين بليون دولار (عن "سيدني مورنينغ هيرالد" 22-2011/01/23).

وما إنْ تنفّسنا الصعداء قليلاً حتّى جاءتنا أخبار الفيضانات في ولايات أخرى، ونبقى هنا في سيدني لا يعكر علينا هدوء الطبيعة وجمالها سوى التفكير بإخواننا الأستراليّين في المناطق الأخرى. لكنّ الأستراليّين معروفون بمبادراتهم العمليّة وقت الشدة، ومؤازرتهم لبعضهم، حتّى لكأنّ نوحاً دبت روحه في كلّ رجل وامرأة وصبيّ وفتاة منهم. أي أنّهم "نوحيّون" بالفطرة. مثلاً، ما إنْ بدأت عمليّات التنظيف في مدينة برزبن حتّى هرع إليها المتطوعون من كلّ حدب وصوب لتقديم المساعدة، فبلغ حملة المكانس والمماسح مئة ألف دخلوها سيلاً من الخلاص، بعد انحسار سيل الدمار.

هبّ الجيش والدوائر الحكوميّة والمؤسّسات المدنيّة والجمعيّات والمصارف والأفراد للمساعدة، كلّ ضمن دائرة اختصاصة وقدراته وصلاحيّاته. مثلاً فتح كلّ مصرف اعتماداً ماليّاً يتلقى فيه تبرعات المواطنين لتحويلها إلى الجهات المختصّة بتقديم المعونة. خبّرتني موظّفة في أحد هذه المصارف أنّ قيمة ما جمعه المصرف من المواطنين بلغ ستّة وسبعين مليون دولار حتّى يوم 2011/01/19.

أمّا رئيسة الوزراء فرفعت إسهام الحكومة الفيدراليّة في الإعانة عشرة أضعاف ما كان مقرراً، وناشدت مدراء أهمّ مئة شركة أستراليّة أنْ يحذوا حذو الدولة. وبالطبع ستؤدّي هذه العمليّات إلى عواقب اقتصاديّة تمنع إعادة الميزانيّة إلى فائض بين 2012-2013 كما هو مخطّط، ويتوقّع الاقتصاديّون أنْ ينخفض النمو بمعدل 0.25-0.50 بالمئة، لكنّه سيبقى في حالة صحيّة تساوي حوالى ثلاثة بالمئة. وكلّنا يستعد لارتفاع أسعار الغذاء في المدى القصير، لكنّ الأوّليّات هي للصحّة العامّة، وإعادة تشغيل الخدمات. وبصورة عامّة، ومن سخريّة الموقف، تُشكل إعادة البناء والإعمار حافزاً للاقتصاد وسوق العمل. هذا شأن التجديد مهما كانت مسبّباته (الحروب مثال).

وأثناء متابعتنا للأخبار التي تداولت تطوّرات هذه الأحداث على مدار الساعة، استوقفتنا بطولات وتضحيات تمثل قمّة الإنسانيّة. فهذا أخ يوم مأتم أخيه يلقي كلمته والدموع تنهار من عينيه. لقد مات أخوه لأنّه أبى أنْ يتمّ إنقاذه أوّلاً، وفضّل أنْ تعطى الأولويّة للأخ.

ومنذ بداية الفيضانات، لم يقتصر فتح الملاجئ على المؤسّسات المعنيّة بالأمر أو البلديّات، بل شاهدنا بعض أصحاب الحانات والمقاهي يرحبون بالنازحين إليهم. وشاهدتُ منذ بداية النزوح موظّفة للصليب الأحمر تشرح لنا، عبر التلفاز، ما يقومون به من خدمات وما يعترضهم من مشاكل، وقالت بكل فخر كيف أنّ عائلة نازحة رفضت قبول الطعام الذي كان يوزّع، وطلبت طعاماً حلالاً. ما كان من الموظّفة التي حيّرها الموقف سوى الاتصال بأقرب مسجد، وتأمين الطلب.

لبّيك نوح! هذه هي أستراليا.

سيدني، 2011

المَطلوُب تكَرْيس مَفهوم

"الأخلاق البيئيَّة"

كان يا ما كان في كلّ زمان ومكان.

يحكى أنّه كان هنالك بحيرة جميلة مليئة بالأسماك اللذيذة، ترتادها مجموعة من الطيور تتغذى على تلك الأسماك. زاد عدد الطيور فصار يغطّي سطح البحيرة، وصارت الطيور تفرز مخلّفاتها الطبيعيّة فيها. هذه المخلّفات تفعل فعل الأسمدة، لأنّها تحتوي على موادّ مغذيّة للنباتات. ومع زيادة نسبة السمادات الطبيعيّة في البحيرة، زاد عدد خلايا أحد الأنواع النباتيّة فانتشر انتشاراً هائلاً خلال فترة زمنيّة قصيرة. صدف أنّ هذا النبات يفرز موادّ تضرّ بالأسماك. مات معظم الأسماك، واضطرّت الطيور للبحث عن مصدر آخر للغذاء، بل إنّ المشكلة كانت أشدّ تعقيداً من ذلك. الأسماك نفسها كانت تتغذى على نوع من القشريّات، وحين ماتت الأسماك بدأت هذه القشريّات بالتزايد ازدياداً كبيراً لأنّه لم يكن هناك من يتغذى عليها. ولكنّ هذا الازدياد الكبير في العدد سبّب للقشريّات مشكلة عظمى. ضاق المكان عليها، وزاد التنافس بين أفرادها على مصادر الغذاء نفسها المتوفرة في بيئة البحيرة. وهذا ما أدّى إلى اضطراب في حياتها، وإلى موت عدد كبير من أفرادها نتيجة لهذا الوضع الجديد.

الحكاية هذه تبسيط لما يجري في عالم البيئة الطبيعيّة، لكنّه تلخيص دقيق لعمليّة التوازن البيئيّ، وما يمكن أنْ يصيبه من خلل. وهي تدلّ على أنّ هناك حدوداً معيّنة إذا تمّ

تجاوزها قد تكون النتائج ضارّة. مثلاً دلّت الحكاية على أنّه من الأفضل للقشريات أنْ تخسر بعض أفرادها من طريق أكلها من قبل السمك، على أنْ تزداد إلى أعداد تفيض عن قدرة احتمال البيئة في تلك البحيرة. وبعبارة أخرى، أدّى التطوّر الطبيعيّ عبر ملايين السنين إلى إيجاد نوع من التوازن المقبول في البيئة، ولعلّ أهمّ ما يخلّ بهذا التوازن من عوامل طبيعيّة هو الكوارث العظمى التي تحصل بين الحين والآخر، مثل الزلازل والبراكين وحرائق الغابات. ويعتقد تاريخياً أنّ حادثة عظمى أدّت إلى زوال الديناصورات التي ازدهرت في فترة من الفترات، كانت خلالها سيّدة الكرة الأرضيّة.

أمّا أهمّ خلل عاديّ في البيئة الطبيعيّة فهو ذلك الخلل الذي بدأ الإنسان يحدثه منذ أنْ بدأ حياته المدنيّة. لقد ساعدت أصابع الإنسان على استعمال الوسيلة، وتطويرها إلى آلة ميكانيكيّة، وبعد ذلك أدّت اكتشافات الإنسان إلى مزيد من التطوير، فصارت الآلة كهربائيّة وإلكترونيّة، وأدّت زيادة الاتصالات والمكتشفات إلى تسريع عمليّات التصنيع وتبادل المعرفة، فازدهرت الاختراعات التي سخّرها الإنسان لبناء مدنيّته والترف بأسباب حياته.

فإذا ما نظرنا إلى ماحدث مثلاً في أستراليا في السنين الأخيرة، نجد أنّ إصدار غاز ثاني أكسيد الكربون (أو ثاني أكسيد الفحم) إلى الجوّ قد ازداد من 48 مليون طن عام 1971، إلى 71 مليون طن عام 1988. وبذلك تكون أستراليا في عداد الدول التي تؤثّر تأثيراً مباشراً على كميّة هذا الغاز في الجو. وأستراليا تأتي بعد بريطانيا والولايات المتّحدة الأميركيّة وكندا في هذا الإصدار، لكنّها تسبق السويد وهولندة. وثاني أكسيد الكربون غاز ينتج عن عمليّات الاحتراق المختلفة التي يقوم الإنسان بها، سواء كانت صناعيّة أم ترفيهيّة، مثل شواء اللحم.

وتزيد أستراليا أيضاً عن كثير من الدول المتقدمة في استخدامها للسمادات الزراعيّة الآزوتيّة. زادت كميّة الاستخدام هذا من أربعمائة كيلوغرام لكلّ كيلومتر مربّع عام 1970 إلى ثمانمائة كيلوغرام عام 1988. والسمادات التي تفيد الزراعة من ناحية، قد تؤثر تأثيراً ضارّاً على البيئة المائيّة من ناحية أخرى، ذلك أنّها تنجرف مع مياه السيول، وبعمليات الرشح الأرضي إلى الجداول والأنهار، فتساعد زيادتها على ظهور أعداد هائلة من الخلايا االنباتيّة التي تغطي مساحة الجسم المائيّ مسبّبة أضراراً في نظامه البيئيّ. وبعضها يفرز موادّ سامّة تؤثر على سلامة المواشي التي تشرب من الأنهار، وعلى الصحّة العامّة.

زاد عدد سكان أستراليا من حوالى 12.8 مليون نسمة عام 1970 إلى حوالى 16.7 مليون عام 1990. وحين كان عدد السيّارات المستخدمة عام 1970 حوالى 3.8 مليون سيّارة، تزايد العدد فصار 7.6 مليون سيّارة عام 1989. ولا شكّ أنّ هذا العدد هو الآن أكثر من ذلك بكثير.

هذه الزيادة الاستهلاكيّة تترافق عادة مع تناقص مستمر في المناطق الطبيعيّة، مثلاً نجد أنّ توسّع مدينة سيدني تم على حساب مناطق طبيعيّة رائعة الجمال، وعظيمة الأهمّيّة البيئيّة، نظراً لكون أستراليا قارّة جرداء في معظمها، ولهذا نجد أنّ هناك محاولة من المجتمع الأستراليّ لإقامة مناطق محميّة مثل المنتزهات الطبيعيّة وإحداها "رويال ناشونال بارك". ولكنّ محاولات الإنسان في الحفاظ على البيئة لازالت متواضعة مقارنة مع الأضرار التي سبّبها. نجد مثلاً أنّ مساحة الغابات التي تغطي أستراليا قبيل الاستيطان الأوروبي فيها كانت أضعاف ما هي عليه الآن.

لا بدّ للإنسان أنْ يسعى لإقامة حياة جيّدة له، ولكنْ عليه أنْ يفكّر في الحدود التي يجب أنْ لا يتعداها. أي يجب عليه أنْ يقيم توازناً بين احتياجاته واحتياجات البيئة المحيطة به.

فالإنسان يعتمد اعتماداً أساسيّاً على الموارد الطبيعيّة لحياته. وتوفير هذه الموادّ واستمرارها يعتمد على ترشيد استخدامها واستغلالها. أي لا يمكن تجاهل الرابطة الكبيرة بين الإنسان والأرض على الرّغم من تقدّم الإنسان العلميّ والصناعيّ، وقدرته على التحكم في أمور الطبيعة. يجب أنْ لا نتجاهل حكمة الفلاّح البسيط! لقد أساء الإنسان عبر السنين فهم هذه العلاقة، واعتبر أنّ الموارد الأرضيّة والبحريّة معين لا ينضب، لكنّ الحقائق بدأت تتضح وهي أنّ هذه الموارد محدودة، وأنّ الإنسان يستغلها بشكل متزايد دون أنْ يحسب حساباً لمستقبل البشريّة. أساء الإنسان فهم البيئة حين اعتبر أنّ الأرض والبحار يمكن أنْ تستخدم كمستودعات كبيرة لنفاياته دون أنْ تتأثـّر. لكنْ بدأ يتّضح له أنّه حتّى الموادّ التي تستخدم على مستوى الفرد أو المنزل، مثل الموادّ الفلوركلوروكاربونيّة المستعملة في البرادات وعلب رش الموادّ (قاتل الحشرات مثلاً)، تؤثـّر على تركيب الغلاف الجويّ المحيط بالأرض، وذلك بالقضاء على طبقة الأوزون الواقية.

إذا استعملنا مثلاً تقليديّاً: الكرة الأرضيّة سفينة واحدة تسبح بنا في الفضاء، وكوننا لا نرى كلّ الركّاب دفعة واحدة لا يعني أنّه لا تربطنا بهم علاقة حميمة. هذه العلاقة تتجلّى في أنّ سلامة المسافرين هي من سلامة السفينة. المسافرون هنا ليسوا فقط أهل الأرض الحاليّين، بل أيضاً الأجيال القادمة التي يحق لها التنعم بالعيش الرغيد. وكما هي حال السفينة المبحرة، يكفي أنْ يقوم شخص واحد بإحداث ثقب أو ضرر ليعرّض كلّ المسافرين للخطر. ومن هنا فإن الضرر الذي يحدثه كلّ فرد في الكرة الأرضيّة لا يظهر مباشرة، لكنّ الأرض تحوي ملايين البشر، وفيها ملايين العمليّات الصناعيّة والتوسعيّة. ولهذا، ما يجب أنْ نحسب حسابه هو الضرر الناجم عن محصّلة هذه العمليّات. هل ننتظر حدوث الضرر الكلّي ونحن نعلم أنّ الإسهامات المتفرقة ستؤدي بالنتيجة إلى اضطراب كبير؟ أي هل يقول كلّ فرد لنفسه إنّ

الضرر الذي أحدثة ضئيل جداً، ولن يؤثر على البيئة، أم يجب أنْ يفكّر بالقضيّة ككل؟ الإجابة الواضحة هي أنّ كلّ فرد يجب أنْ يعتبر نفسه مسؤولاً مباشرة عن سلامة الكرة الأرضيّة. المسألة تبدأ في المنزل، فالعمل، فالمجتمع، فالدولة، فالكوكب كله. ذلك أنّ أيّ فرد قد يصبح يوماً في موضع المسؤوليّة، وزيراً، رئيساً، وربما رئيساً لهيئة الأمم المتّحدة. فهل هذه المناصب تعكس المسؤوليّة، أم أنّها تهتم بعدد الأصوات التي يحرزها السياسيّ للبقاء في منصبه؟ المسؤوليّة أكبر من السياسة، وأكبر من عدد الأصوات، وأكبر من شخص واحد. وحتّى يعي الإنسان الذي توصل إلى موضع المسؤوليّة هذه الأمور، لا بدّ أنْ يكون تربى على أصول المسؤوليّة، وترعرع في مفاهيمها لأنّه لا يمكن استيرادها استيراداً عند لحظة الفوز بالانتخابات، أو لحظة السيطرة على الحكم. ومفاهيم البيئة هي من أكثر المفاهيم حاجة للتأصّل في النفس منذ نعومة الأظفار.

ماذا نعني بمفهوم الأخلاق البيئيّة؟

درجت العادة أنْ يتكلّم الإنسان عن الأخلاق في مجال التربية السلوكيّة، مثلاً أنْ يحسن الكلام، والهندام، والتعايش مع الناس، ويتحلّى بفضائل يعتبرها المجتمع ضرورة. ولقد اختلطت هذه المفاهيم في كثير من المجتمعات مع المفاهيم الدينيّة، فصار التديّن معياراً للأخلاق، وصارت الفضيلة مقرونة حصراً بالممارسة الدينيّة. لهذا نشطت التعاليم الخلقيّة (وبالأخص الدينيّة) على مستوى المنزل والمدرسة، يتلقّاها الطفل مع حليب أمّه، وفي مدرسته ومجتمعه، حتّى أصبحت متأصّلة فيه من حيث المبدأ على الأقل. الطفل في بعض المجتمعات يفتح عينيه على كلمات مثل: "عيب"، "حرام"، أي أنّه يُهيّأ للانخراط في تلك السلوكيّة التي يحاول المجتمع فرضها عليه. كان هدف المجتمع دائماً التوصل إلى تربية الأفراد تربية يعتبرها أساساً في تدعيم قواعد تقدّمه ورخائه. ولقد دعت المجتمعات إلى أهمّيّة الإعداد

في تأصيل المواطن لخدمة المجتمع. وتجلّت هذه الأهمّيّة أحياناً بالتركيز على إعداد دعائم مهمّة في المجتمع مثل إعداد الأمّ التي اعتبرها الأدباء والشعراء العرب محور الأسرة، كما قال حافظ إبراهيم: 'الأمّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق.'

ولعلّ الاهتمام بالبيئة من أهمّ ما يتطلبه الإعداد والتثقيف المبكر، لأنّه لا يكفي فقط أنْ نعلم بالمشكلة، بل لا بدّ من أنْ نتعلم كيف نسهم في حلّها، وبعد ذلك لا بدّ أنْ نشارك عمليّاً في حلّ المعضلات البيئيّة. وإذا ما تمّ الحصول على منجزات في هذا المجال، لا بدّ أنْ نحاول الحفاظ عليها، وأنْ ندعم استمرارها، لأنّه لا فائدة من إيجاد حلول موقّتة فقط. حتّى يتمّ ترسيخ وتكريس مفهوم الأخلاق البيئيّة، لا بدّ من القيام بسلسلة من العمليّات يمكن تلخيصها تحت العناوين التالية:

1- الوعيّ البيئيّ (فهم المشكلة)
2- التثقيف البيئيّ (نشر الفكرة)
3- الممارسة البيئيّة (الإسهام في الحلول)
4- الحماية البيئيّة (القانون)

هذه العمليّات وثيقة الصلة ببعضها ولا يمكن فصلها إلاّ لأسباب عملانيّة بحتة. وعْيُنا لمشكلة البيئة يجب أنْ يدفعنا إلى النقاش حولها، ونقل مفاهيمها إلى الآخرين، والتشاور معهم في إيجاد الوسائل الكفيلة بمعالجتها. وحين ندرك المشكلة وطرق علاجها، لا بدّ من أنْ نسهم في حلّها. ويكون الحلّ أكثر فاعليّة إذا كان القائم على الحل مدركاً لأبعاد القضيّة كلها. وبما أنّ المجتمعات تحوي دائماً عناصر سلبيّة، أو عناصر لا تقوم بواجباتها كاملة، كان لا بدّ من حماية المنجزات البيئيّة بسنّ قوانين مناسبة تسهم في ردع المواطن أو الشركات المخالفة، والأهمّ من هذا سنّ الشرائع التي تكفل الحفاظ على بعض المناطق الطبيعيّة، والشرائع التي تخوّل الشركات القيام بإنتاجها وفق عمليّات لا تضرّ بالبيئة. وكلّما ترسّخ الوعيّ في النفوس، وكلّما كان التثقيف والإعداد مواكبين لنشأة

الأجيال الجديدة، سهلت عمليّة حماية البيئة. مثلاً الشركات المثقفة بيئيّاً ستعمل جاهدة على اتّباع وسائل لا تضر بالبيئة، وستوجّه جهدها نحو حصر المشكلة قبل وقوعها. وعلى الصعيد العمليّ حاليّاً، ثبت لكثير من الشركات أنّ اتّباع وسائل إنتاجيّة بيئيّة قد يساعد أيضاً على تخفيف الأعباء الماديّة على الشركة. لا بدّ من القول إنّنا لازلنا حاليّاً في مرحلة "الوعيّ البيئيّ"، على الرّغم من وجود بوادر عمليّة بشأن الممارسات البيئيّة، وقوانين خاصّة بالبيئة في البلدان المتقدمة. ليس غريباً أنْ تأخذ هذه المرحلة وقتاً طويلاً، فالفكرة كلّها حديثة العهد، وتعود بوادر الوعيّ البيئيّ بشكله الحاليّ إلى السبعينيّات من هذا القرن حين أدرك العلماء أنّ الكرة الأرضيّة ليست معيناً لا ينضب، وليست مستودعاً لا يمتلئ. ومنذ السبعينيّات إلى الآن تطوّرت وسائل التقنيّة الصناعيّة والعلميّة تطوّراً هائلاً زاد عن أيّ فترة تاريخيّة سابقة. تركّز هذا التطوّر على استغلال الإنسان للموارد الطبيعيّة، دون أنْ يواكب ذلك تطوّر مماثل بالنسبة إلى إيجاد حلول بيئيّة تتناسب مع حجم الاضطراب الذي أحدثته تداخلات الإنسان في البيئة. الوعيّ البيئيّ الآن في أوجه، ولن يستطيع الإنسان الاستمرار في تجاهل ما اقترفه من ذنوب تجاه البيئة.

كيف يمكن للإنسان العاديّ أنْ يتحلّى بالأخلاق البيئيّة؟

يسأل البعض: ماذا يحصل إذا رمى طفل ورقة على أرض الغرفة؟ الجواب: لا يحصل شيء. ولكن ماذا يحصل إذا رمى الطفل قصاصة كلّ يوم، وتركت الغرفة دون تنظيف، فامتلأت بالأوراق؟ ماذا لو نام هذا الطفل يوماً بين الأوراق ودخلت إلى فمه قصاصة ورق سدّت مجاريه التنفسيّة وقتلته؟ الطفل يجب ألاّ يرمي ورقة في الغرفة، والسبب ليس منظر الغرفة المليء بالأوراق، ولا حتّى الاحتمال البعيد في أنْ تتسبب قصاصة مشكلة للطفل، ولا كيف سنستقبل الضيوف في هذه الغرفة. يجب أنْ لا تُرمى الورقة في الغرفة حتّى نكتسب عادة عدم رمي القمامة إلاّ في

المكان المخصص لها، وهو ما يجب أنْ يتعلّمه الطفل. وأهمّ وسائل التعليم أنْ يكون المعلّم قدوة. أي يجب على الأهل أنْ يتصرّفوا أمام الطفل كما يريدون أنْ يتصرّف الطفل أمامهم، فلا فائدة من أنْ ننهى الطفل عن القيام بعمل يرانا نقوم به. يجب أنْ نكسب ثقة الطفل. يجب على الأستاذ أنْ يكسب ثقة التلميذ، ويجب على السياسيّ أنْ يفي بوعوده السياسيّة إذا أراد أنْ يثبت أنّه أهل للثقة، وأنّ ما يقوله له قيمة. يجب أنْ يقوم أفراد العائلة بمساعدة البلديّات التي تحاول التخلّص من الفضلات بطريقة سليمة. فطالما أنّ هناك يوماً لجمع المخلّفات الورقيّة، ويوماً لجمع الزجاج، وآخر للبلاستيك، علينا المساعدة بإبقاء كلّ نوع على حدة، إلى أنْ يحين يوم جَمعه.

العائلة التي تعتني بنظافة المنزل عليها أنْ تعتني أيضاً بنظافة وحماية المرافق العامّة. فكون العائلة تخرج في نزهة إلى الحدائق العامّة، أو على شاطئ البحر، لا يعني الانفلات من تلك السلوكيّة الجيّدة، بل على الأهل إعطاء العبرة لأولادهم بعدم ترك النفايات على الأرض، فيجب عدم تلويث الأرض بقشر الفاكهة، أو قشور المكسّرات من بزر وفستق. هل تصوّر أحد لو قامت كلّ العائلات المتنزّهة بتلويث الأرض على هذا الشكل ما ستكون النتيجة؟ طبعاً، المناظر والروائح الناتجة لن تترك مجالاً للآخرين للقيام بنزهة ناجحة. هنالك أمور أشدّ خطراً. يدأب بعض الأفراد على تغيير زيوت سيّاراتهم بأنفسهم، فأين يتخلصون من هذه الزيوت؟ وهل كان ابنك ينظر إليك بافتخار وأنت تصون سيّارتك؟ هل شاهدك حين تخلّصت من الزيت في المجاري العامّة؟ لقد قمت بجريمتين: أولاهما أنّك لوّثت البيئة، وثانيتهما أنّك علمت ابنك كيف يلوّث البيئة. الزيوت التي تُرمى في المجاري العامّة تزيد من كميّة الموادّ العضويّة في المجاري، ومن تكاليف معالجة المياه، ومن مشكلة التلوّث على الشاطئ! ولهذا تنعكس المشكلة بالنتيجة على كلّ مواطن سواء من الناحية الصحيّة أم

الاقتصاديّة، أي إنّ إبعاد المشكلة عن ناظريك، ورميها في مكان آخر، لا يعني أنّ المشكلة ستختفي من حياتك. وإذا كنت تعمل لدى الدولة، إحترمْ ما ائتمنك عليه المواطنون. إنّ اقتصادك في الورق وعمليّات الطباعة والتصوير، يسهم في الحفاظ على البيئة بالتقليل من النفايات وتوفير الموارد.

وبما أنّ سلامة الإنسان من سلامة البيئة، وبما أنّ الهدف الأساس يبقى حماية الإنسان وراحته، فإنّ من أهمّ الأمور التي يجب ملاحظتها هو قضيّة التلوث بالضجيج. هل فكّرت بأعصاب الناس وما يحصل لها نتيجة الضجيج؟ هل تعلم أنّ هذا يسبّب أمراضاً نفسيّة وقلبيّة تنعكس بالسوء على الفرد والمجتمع؟ لماذا لا تهذّب النفس بتخفيض صوت المذياع والتلفاز؟ والأهمّ من ذلك الاعتناء بعادم سيارتك وتخفيض ضجيجه، وإنّه من اللافت للنظر أنّ ظاهرة عوادم السيّارات المرتفعة الصوت منتشرة في أستراليا، وتزيد عن دول العالم الثالث، هذا على الرّغم من وجود قانون يمنع ذلك، وعقوبة ماليّة لمن يترك سيارته على هذه الحال.

من أغرب العادات الأستراليّة "التزمير" بالسيّارة لحظة الوداع نهاراً أو ليلاً، وهذه عادة لم أجدها في أيّ بلد آخر. ماذا تعني حين "تزمر" مودّعاً؟ ألم تقل لصديقك إلى اللقاء؟ فهل يجب أنْ تقول له ذلك سيّارتك أيضاً؟ لنتخلّ عن هذه العادات الكريهة، التي تأصّلت تاريخيّاً لدى الناس يوم لم تكن في الحيّ سوى سيّارة واحدة يتباهى بها أصحاب الجاه والثروة. أمّا الآن فلا أحد يحتاج النظر إلى سيّارتك، ولا يهمّه هذا الأمر، خصوصاً هنا في أستراليا.

يأخذ التلوّث، إذاً، أشكالاً عديدة، فهناك تلوّث الجوّ، وتلوّث الماء، وهناك التلوّث الكيميائيّ، والتلوّث الفيزيائيّ (مثلاً الغبار)، والتلوّث بالضجيج. مهما تعددت الأنواع، تمتّ إلينا بصلة وثيقة، ونحن جزء من هذه العمليّة، ومن أهمّ مسبّباتها. الاختيار هو اختيارنا قبل أنْ يكون اختيار القانون. الردع يجب أنْ ينبع من ذاتنا قبل أنْ يردنا من الآخرين. ولهذا نطلب تكريس مفهوم

"الأخلاق البيئيّة". فهل تكون مجتمعات المهاجرين إلى أستراليا، التي تحمل معها عراقة حضارات أصيلة هي القدوة في ذلك؟

سيدني، 1993

في يَد جبران

نصّ الكلمة التي ألقاها الدكتور رغيد النحّاس، ناشر ورئيس تحرير مجلّة "كلمات"، بمناسبة تسلّمه جائزة جبران العالميّة، التي منحته إيّاها رابطة إحياء التراث العربيّ في أستراليا، تقديراً 'لإسهاماته في حقل الكلمة'، في حفل أقيم في قاعة بلديّة غرانفيل في سيدني، يوم الأحد 2005/04/17. نُشرت في النهار البيروتيّة 2005/04/19، والسنونو (حمص)، العدد 6، 2006.

أجمل التكريم يأتي من الأقران وزملاء المهنة، فشكراً لهذه الالتفاتة التي أعتبرها تكريماً لكلّ من خطّ حرفاً في "كلمات"، أو أسهم في ترويجها أو تمويلها. أمّا أنا فلم أكن سوى الوسيلة التي تشرّفت بحمل هذه الكنوز النفيسة وعرضها على العالم، يدفعني إلى ذلك إيمان قويّ بأنّ الكلمة باب الإرث الحضاريّ والكتابة مفتاح ديمومته.

أمّا هؤلاء الذين كانوا وراء هذا التكريم، فسبقونا إلى حمل تبعات العمل الصحفيّ في أيّام أكثر صعوبة، وبوسائل أقلّ استجابة، وعلى هذا فإنْ كان من يستحقّ أيّ تكريم، فاسمحوا لي من ركني المتواضع أنْ أتوجّه إلى الرعيل الأوّل الذي حطّت رحاله في أستراليا بخالص محبتي وتقديري.

عنوان كلمتي هذه "في يد جبران" عبارة مباشرة، ولم أتقصّد التفكير بها لتلائم ما أنا بصدده هنا، بقدر ما أنّها اعترتني لحظة شرعت في كتابتها. شعرت من ناحية أنّ يد جبران تمتد

لتبارك يدي، ومن ناحية أخرى أنّ أموراً عديدة ممّا أقدمنا عليه في مشروع "كلمات" هي في يد جبران، لأنّ يده هي القالب الذي صُبّت فيه، ولعلّنا ندور في كفّه حتّى يومنا، سواء وعينا هذا أم لا. وأقرّ أنّه لولا هذه المناسبة لما خطر ببالي هذا التشبيه. فما الذي نعنيه تماماً؟

حين انطلقت "كلمات" كان الهمّ الأكبر، بالإضافة إلى الاحتفاء بجمال الكلمة وروعة الإبداع الفكري، هو اختراق الثقافة الغربيّة في عقر دارها، بمعنى الولوج في موكبها، والسير معها كرديف يحمل إرث حضارة خالدة يمكنها أنْ تسهم في إغناء فكر أستراليا، الوطن الجديد الذي اخترناه، والذي يتيح لنا في الوقت نفسه الاستفادة من الثقافات المتعدّدة المحيطة بنا، ما يزكي عمليّة التواصل بطريقة

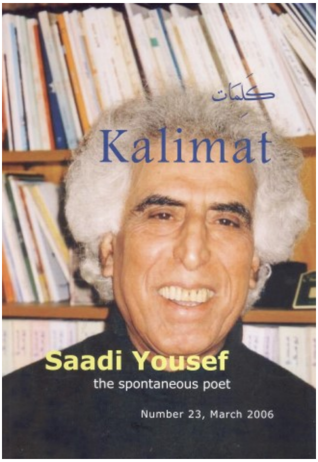

تُصان فيها كلّ ثقافة بحدّ ذاتها على الرّغم من تمازجها بالثقافات الأخرى. هذا التمازج ليس تمازجاً كيميائيّاً بالضرورة، بل هو أقرب إلى التمازج الفيزيائيّ الذي يخلط بين العناصر المختلفة في بوتقة واحدة من دون أنْ يفقد أحدها خواصّه المميّزة. ولعلّ في هذا النوع من الاتحاد فضائل تطغى على أيّ مزايا للوحدة الكاملة التي ستقضي حتماً على الخواصّ المميّزة للأطراف المتواصلة، وفي أغلب الأحيان ربّما تجعل خواصّ طرف معين هي الخواصّ الرابحة على حساب الآخرين. من هنا كان حرصنا على الفصل بين إصداراتنا الإنكليزيّة والعربيّة، فعلى الرّغم من إيماننا بأهمّيّة التواصل، نحن حريصون على صيانة خصوصيّة كلّ لغة، وعلى

أمانة الترجمة، وعلى أنْ تنتقل إلى اللغة الأخرى كما قصدها كاتبها فكراً وتوجّهاً، ولكن بلبوس اللغة الجديدة.

ولعل طريقتنا هذه تتوافق مع منحى جبران في جمعه بين اللغتين، ومقدرته الفائقة على عدم المزج بينهما. جبران حين كتب بالعربيّة كانت لغته عربيّة أصيلة، وحين كتب بالإنكليزيّة كانت لغته إنكليزيّة أصيلة. والأهمّ من ذلك أصالة الفكر، وصيانة النوعيّة في كلا الحالين. وفي رأينا هذا ما يميّز جبران عن غيره ممن حاول الكتابة باللغتين. لكنّ الجميع يعلم أنّ أهمّ إنجاز لجبران كان "النبيّ" الذي أطلق جبران على المستوى العالميّ. جبران وعى أهمّيّة الكتابة بلغة البلد الذي اختاره موطناً آخر. وموضوع الكتاب فكرة على قدر كبير من العبقريّة، ولست أدري إنْ كانت مقصودة، أي فكرة النبيّ، أم هذا ما شعر به جبران فكتب عنه. وسبب عبقريّة الفكرة هو تزامنها مع حالة المجتمع الأميركيّ في ذلك الوقت، مجتمع لازال يتخبّط بين مواريثه الدينيّة ومغريات الحياة الجديدة التي برزت فيها القيم الماديّة، وبرّت غيرها من القيم، مجتمع متعطش إلى الهداية، لكنّه كان بحاجة لحكمة جديدة بعد أنْ ملّ من تلك المواريث التي خيّل له أنّها تخطت تاريخ صلاحيتها.

وجاء النبيّ الجديد:

سبق للمصطفى، الصفيّ المختار، أجمل فجر لأيّ نهار، أنْ مكث اثني عشر عاماً في مدينة أورفليس، ينتظر عودة سفينته التي ستقلّه إلى جزيرة مولده.

وفي السنة الثانية عشرة، في اليوم السابع من أيلول، شهر الجني والحصاد، تسلّق الهضبة خارج أسوار المدينة، ونظر باتجاه البحر؛ فأبصر سفينتة تأتي مع السديم...

ثم انفتح رتاج قلبه، وحلّق حبوره مدى البحر، وأغمض عينيه، وصلّى في كلّ ركن خفيّ من أركان روحه.

هذه ترجمتي لبداية ما جاء في المقدّمة التي افتتح بها جبران نبيّه، وسأورد لاحقاً ترجمتي لمقتطفات أخرى. أتعجّب لماذا اختار صديقي نويل عبد الأحد حذف المقدّمة من ترجمته للنبي. واختار أيضاً حذف الخاتمة، ويقول في مقدّمة ترجمته إنّه تعمّد الدخول في لبّ الموضوع من دون الزوائد والحواشي.

أشهد أنّ الحجج التي قدّمها عبد الأحد، مبرّراً قيامه بترجمته تلك، منطقيّة صائبة، وتوضّح قصور الترجمات السابقة في بعض الأمثلة التي أوردها. وأشهد أنّ ترجمته دقيقة، لكنّني لم أشعر أنها حملتني إلى أجواء النصّ الأصليّ، على الرّغم من شهادة كثيرين أنّها أفضل ترجمة لكتاب النبيّ.

أنا أعتبر الترجمة الأدبيّة عمليّة تشويه في أفضل حالاتها، وقد يتفاجأ البعض إنْ قلت إنّني لا أتهافت عليها، بل أفضّل صرف الوقت في الكتابة. لكنّها لا شكّ ضروريّة لنقل الأفكار والتواصل، لأنّها في بعض الحالات الوسيلة الوحيدة للقيام بذلك. ومن هنا كانت المسؤوليّة الواقعة على عاتق المترجم مسؤوليّة كبرى، وإنْ كان لا يعي تلك المسؤوليّة، ما عليه سوى قراءة مقدمة نويل عبد الأحد ليجد أمثلة من المطبّات التي وقع فيها ميخائيل نعيمة في ترجمته للنبيّ.

على الرّغم ممّا نوّهت به، وعلى كثرة الترجمات المختلفة للنبي، أشعر أنّ النبيّ يدعوني لمواجهة هذا التحدي والقيام بترجمة جديدة. شعور ما كان ليعتريني لولا أنّ هذه الجائزة تحمل اسم جبران، وأريد أنْ أردّ له شيئاً بنقل رسالة نبيّه بالطريقة التي أتصوّر أنه أراد لها أنْ تنتقل بالعربيّة. فالأفكار التي نقلت أكثر من مرّة، غدت معروفة، إلاّ أنّ الجانب الفنّيّ ظلّ مهملاً. وجبران فنّان

في صنعته، ولا بدّ من وجود ترجمة عربيّة تنقل لنا لوحة النبيّ بريشة أقرب ما تكون لما كان في يد جبران، والأهمّ من ذلك لغة النصّ الأصلي: لغة تجمع بين البلاغة والجمال. الأمانة تتطلب إنصاف جبران، حتّى لو شعر البعض أنّه أكبر من الإنصاف، وأنّه الجمال كلّه والبلاغة عينها.

جسّد جبران في ما أتى به على لسان نبيّه ما كان يختلج في نفسه المبعثرة في أرجاء الكون. فهو بذلك يروي قصّة المنفيّين الفكريّين في كلّ زمان ومكان، كونهم لا ينتمون إلى أيّ زمان ومكان. يحدّث النبيّ نفسه وهو ينزل الهضبة:

كيف لي أنْ أغادر بسلام، من دون أنْ تعتريني ذرّة أسى؟
كلاّ، فثمّة جرح سيقرّح نفسي وأنا أترك هذه المدينة.
أمضيت بين أسوارها أيّام عذاب طويلة، وطويلة كانت ليالي وحدتي؛ فمن يستطيع الانفلات من آلامه ووحدته من دون أسف؟
ما أكثر ما بعثرت في شوارعها من شظايا الروح، وما أكثر أبناء تَوْقي يمشون عراة بين هذه التلال، فكيف أتركهم من دون أنْ أكون مثقلاً بالألم؟
ليست هذه المدينة ثوباً أخلعه اليوم وأمضي، بل جلد أمزّقه بذات يدي.
وهي ليست فكرة أخلعها ورائي، بل قلب حلاّهُ الجوع والعطش.

ليس حنين جبران إلى الوطن الأمّ حنيناً تقليديّاً، وعلى الرّغم من أنّه كتب وهو بعيد عن موطن ولادته، في ما يُسمى "المهجر"، فأنا لا أعتبر أنّ جبران كاتب مهجريّ بالمعنى التقليديّ. جبران كاتب عالميّ. والحنين الذي نستشفه من عباراته السابقة هو حنين إلى مواقف إنسانيّة تتخطى الأوطان. وهو موقف إنسانيّ يجعل من

جبران مهاجراً سرمديّاً، نتيجة للسموّ الفائق في درجة وعيه وشعوره. النبيّ لا يترك أورفليس لمجرد شوقه إلى الوطن الأمّ، بل الأسباب معقدة على درجة تعقيد ذهنيّة صاحبها:

البحر الذي يدعو إليه الأشياء كلّها يناديني، ولا بدّ لي من أنْ ألبّي.
فبقائي، على الرّغم من تألّق الليل بحريق ساعاته، يُجَمّدني، يُبلورني، يُقَوْلِبني...
وددت اصطحاب كلّ شيء هنا، ولكنْ كيف؟
لا يحمل الصوت لساناً أو شفتين، بل ما أكسبوه من جناحين. بهما وحده يقصد الأثير.
ووحده، من دون عشّه، يمخر النسر عباب الفضاء.

لمقدّمة كتاب النبيّ أهمّيّة خاصّة لما فيها من دلالات حول إشكالات الهويّة والانتماء، وإن كانت تلك المقدمة تنتمي بحد ذاتها إلى فكرة عالميّة تتخطى حدود وطن واحد. واضح من حديث النبيّ استفادته من وطنه الجديد، وإعجابه به لدرجة تمنيه لو استطاع أنْ يأخذ معه كلّ شيء في رحلة عودته.

ما أراد هذا المهاجر (أفضّل أنْ أطلق عليه "الرحّالة") أصلاً أنْ يتقوقع في موطن ولادته، كما لم يرد التجمّد في موطن هجرته. ولنلاحظ العبارات المستعملة لتوضيح الأفكار. اللسان والشفتان تُخرج الصوت الذي ينطلق خافقاً عبر الأثير. الصوت نتيجةٌ، لكنّه حرّ طليق له خواصّه ومواصفاته وعوامل طيرانه بذاته. وكأنّ النبيّ يقول: تُخلق الأشياء لتصبح خلاّقة.

أعتقد أنّ جبران كان يحنّ إلى عمليّة تخليق دائمة. ولم يكن بالإمكان احتجازه ضمن وطن معيّن حتّى لو كان ذلك الوطن أرض مولده. ولو عاد جبران ألف مرّة إلى حضن الأرز الشامخ، لظلّت

روحه توّاقة للانطلاق من جديد، والارتفاع نحو المقام الأعلى الذي يناسبها. ولعلّه كان في الظاهر رهين محبسين: لبنان وأميركا. يكرّ ويفر بينهما من دون قرار. ويمكن القول إنّه كان أيضاً رهين تلك الصفة التي يحب العرب إطلاقها على كلّ من كتب في البلاد الأخرى: كاتب مهجريّ. أمّا الواقع، في رأيي، فهو أنّ جبران ليس بكاتب مهجريّ، بل هو كاتب ومفكر أينما حلّ وأينما ارتحل. روح جبران كانت كبيرة على الكون، تشعر بالضيق أينما حلّت، وتتوق للانعتاق حيثما ارتحلت. ولذلك جاء النبيّ...

وصرخت روحه فيهم، فقال:
يا أبناء أمّي العريقة، يا من ركبتم الأمواج... لكَم أبحرتم في أحلامي. والآن تُقبلون عليّ في يقظتي، وهي حلمي الأعمق.

لا أريد هنا أنْ أتعمق في فلسفة جبران التي تواكب عباراته، سوى التوقف لحظة عند عبارة أنّ يقظته هي حلمه الأعمق، التي تتطابق مع ما أكدّته سابقاً من حيث كون جبران مهاجراً سرمدياً في حالته الذهنيّة وليس على الطريقة التقليديّة. جبران لا يستطيع الاستقرار في الحلم ولا في اليقظة؛ حلمه بشير بيقظته، ويقظته نذير بأحلامه. وإن بدا هذا متناقضاً لأكثر الناس، فهو ليس كذلك لمن يعي أهمّيّة إدراك شموليّة الكون. وجدير بالذكر أنّ للأحلام أهمّيّة خاصّة في الميراث الثقافيّ للشعب الأبوريجنيّ، تبدّد الفروق بينها وبين الحقيقة.

بقدر ما نقرأ بين سطور جبران توقاً للانطلاق والانعتاق، بقدر مانكتشف رغبتة في التعلّم والتمسّك والمشاركة:

أتأهّب للرحيل، ولهفتي تنصب أشرعتها في انتظار الرياح...

وحين تطلب منه "ألميترا" أنْ يحدّث أهل أورفليس قبل رحيله، نراه لا يبخل عليهم بشيء، وهذا ما يشكل فصول كتاب النبيّ الذي يحدّثهم عن الحبّ، والزواج، والتعليم، واللذة، وغيرها من شؤون وشجون الحياة، وصولاً إلى الموت.

لقد اكتشفتُ عظمة النبيّ، وجبران، متأخّراً. لا تستغربوا! فليس من عادتي الانسياق مع الركب، والإيمان بما يؤمن به الجميع. لكنّني دفعت ثمن ذلك غالياً، وهو تجاهلي لجبران مدّة أربعين سنة إلى أنْ حدث ما فتح عينيّ عليه من جديد.

منذ سنوات قليلة كنّا في جلسة دوريّة مع بعض الأصدقاء المقربين، وكعادتنا في مثل هذه السهرات، جمعنا بين العشاء والشراب والموسيقا والمزاح والنقاش في أوجه الفكر المختلفة من سياسة وأدب وفنّ. وجاء ذكر جبران حين طرحته السيّدة رُوث البرازي (التي غيّبها الموت منذ عامين)، وفي سياق الحديث ذكرتُ كيف أنّ معرفتي بكتاب النبيّ كانت حين قرأتُه بالعربيّة أوان كنت مراهقاً، وأنّني ما استسغت ما قرأت من الناحية الأدبيّة، واعترفت أنّ الظروف لم تسمح لي بقراءة النصّ الإنكليزيّ. ما أحببت عندها أنْ أقول إنّ الترجمة أبعدتني عن جبران، لأنّني لم أكن متأكداً من ذلك بعد.

كان أفضل ردّ يمكن أنْ تقوم به سيّدة لبقة مفكِّرة هو ما قامت به رُوث. حين اجتمعنا في المرة التالية، قدّمت روث كتاب النبيّ، بالإنكليزيّة، هديّة لزوجتي، وهي تعلم أنّه لن يفلت من يدي، شأن أيّ كتاب يصل منزلنا.

قرأتُ الكتاب كلّه ليلتها بنهم شديد... واكتشفت جبران بنفسي بعيداً عن مخزون شهرته الواسعة. أحببت ما قرأت، وتأكدّت عندها من التأثير السلبيّ لبعض الترجمات.

وهذا جبران يعود اليوم لينتشلني من متاهة هذا التخبّط، وليغفر لي عقوقي وتمردي، ويبادلني نكرانه بتمييزي، وليس في الأمر أيّ غرابة: تلك هي صفات الأنبياء.

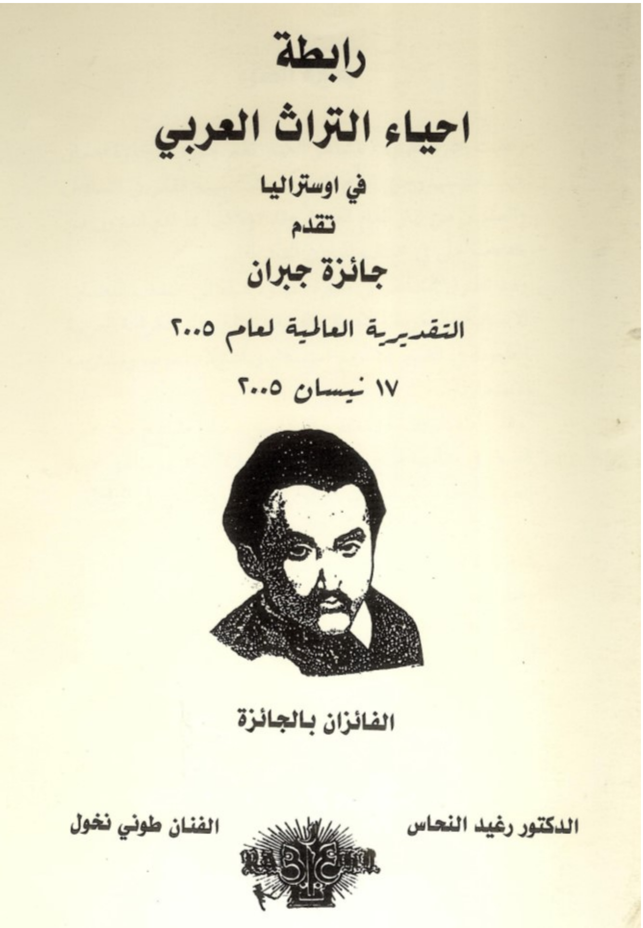

اخْتراعَات مِن أَجل البَهْجَة

نحن الآن عائلة أستراليّة نبتهج لكلّ الأعياد مهما كان دينها أو مصدرها. ومصدر بهجتنا الناحية الإنسانيّة حصراً. وحتّى حين كنت طفلاً في دمشق القديمة، وكانت أعياد المسلمين والنصارى واليهود تتلاقى ضمن فترة زمنيّة قصيرة في بعض السنين، كان والدي يصحبني معه في جولة "معايدات"، نخرج فيها من بيت مسلم إلى بيت مسيحيّ، ثم من بيت يهوديّ إلى أنْ تكتمل الزيارات التي سمح بها ذلك اليوم. وكانت "العيديّة"، والملابس الجديدة، والحلوى من مباهج العيد، لكنّ شجرة عيد الميلاد، والهدايا المتّكئة على جذعها، والأضواء المتراقصة على أغصانها، والصور الفاعلة في خيالنا عن "بابا نويل"، الذي يحلو له التسلّل من مداخن البيوت ليضع الهدايا للأطفال "الشطّار"، على الرّغم من شكّنا في سلامة القصّة، لأنّ بيوت دمشق لم تكن لديها مداخن البيوت الأوروبيّة نفسها، مصدر هذه الأسطورة، لكنّ تلك الشجرة إذاً كانت ولازالت أهمّ رمز للبهجة في العيد.

المحظوظون مثلي، والذين تربّوا في كنف دار عربيّة عريقة، كانوا جزءاً من ممارسة رائعة أثناء الإعداد لعيد الفطر. كنت أمضي الأيّام السابقة للعيد في دار جدي، وكانت جدّتي وعماتي يبدأن بإعداد حلوى العيد في فترات السحور، حين كنت أستيقظ خصّيصاً لمشاهدة ما يفعلن، وأنّا أشمّ روائح السمن البلديّ المنبعثة من عجينة "المعمول" و"العجوة"، وماء الزهر المنبعثة من حشوات الفستق الحلبيّ والجوز والسّكر، التي كان يجري تحضيرها لتوضع ضمن العجينة في قوالب خشبيّة تعطي قرص الحلوى شكله المميّز، وبعد طَرق القالب على المنضدة

يخرج الوليد الصغير وعلى ظهره نقوش القالب، ليصطّف بعدها في صينيّة سوداء كبيرة، يأخذها رجال العائلة إلى "فرن الشاويش" القريب في حيّ القيمريّة، ليتم خبزها فجراً. لكنّ الحقّ أقول إنّ هذه الذكريات تتجسد جميلة في ذهني الآن أكثر، أمّا سحر شجرة

الميلاد فأشعر أنّه كان وقتها أكثر فعلاً في نفسي ممّا هو عليه الآن، لِما كانت تضفيه من بهجة، خاصّة على الصغار. لم تكن شجرة الميلاد تقليداً في بيت أبي، لكنّي كنت أستمتع بمشاهدتها في بيت أصدقائنا ومعارفنا. وحين رزقنا بابنتينا في بريطانيا، صارت الشجرة تقليداً لدينا. وكنّا في يوم الميلاد ندعو الأصدقاء ونعدّ وجبة الديك الرومي التقليديّة تعاضداً منّا مع المجتمع الذي ضمّنا لفترة بين جناحيه. وكنّا ندعو الأصدقاء أيضاً في فترة الأعياد الأخرى، ونعدّ الحلوى الدمشقيّة التي كانت تثير استحسان البريطانيّين والعرب على حدّ سواء.

من معارفنا في سيدني سيّدة فاضلة، عميدة لعائلة من أصل لبناني، من خيرة العائلات الأستراليّة. هذه السيّدة معروفة

بورعها ودينها، لا تقطع فرض صلاة، ولا تتوانى عن أداء زكاة، ولولا تقدّم العمر، وضرورات الصحّة، ما كانت لتقطع صيام يوم من أيّام رمضان. منذ أنْ حضرنا إلى سيدني منذ عشرين عاماً، نجتمع في دار تلك السيّدة عشيّة الرابع والعشرين من كانون الأول، أي ليلة عيد الميلاد، من كلّ عام. تستضيف هذه الفاضلة عائلتها الكبيرة، ومجموعة من الأصدقاء المقربين، كبارهم وصغارهم، في حفل عشاء توزّع بعده هدايا لكلّ فرد من الحاضرين الذين سيبلغ عددهم هذا العام خمسين فرداً. تنادي السيّدة الفرد بالاسم، فينطلق نحوها راقصاً على أنغام شرقيّة لتسلمه هديّته التي أحضرتها على نفقتها. طبعاً يتفنّن البعض في الرقص، يخجل البعض، ويسخر الآخر. النتيجة جوّ من الحبور، وما تقدّمه هذه السيّدة هو اختراع من اختراعات البهجة، يليق بليلة يليها اليوم الذي ولد فيه واحد من أهمّ رموز المحبّة والتسامح والإنسانيّة: يسوع الناصري ابن الإنسان، 'لتكون لهم حياة وتكون حياة أفضل'.

فاجأني مرّة صديق دمشقيّ عزيز، زارنا في سيدني منذ أكثر من عشر سنوات، قبل أسابيع من عيد الميلاد، بتعليقه على شجرة العيد التي نصبناها تحضيراً للمناسبة. استغرب الصديق كيف نقوم بذلك العمل الذي لا يمّت إلى تقاليدنا بصلة. طبعاً كان عندي له سيل من الإجابات حول مظهره الغربي، والاختراعات الغربيّة التي يستعملها، بما في ذلك الطائرة التي حملته إلى أستراليا، وبيّنتُ له أنّ الشجرة لا تفرق عن ذلك، وكونها ترتبط ببهجة دين معين، لا تعني أنّها لا تمّت إلينا بصلة، خصوصاً أنّ الإسلام يعترف بكلّ ما سبقه من الأديان، وأنّه أصلاً لا علاقة حقيقيّة بين الشجرة وبين الدين، لأنّها ابتكار تجاريّ محض. عندها جابهني صديقي أنّ هذا يزيد من مقته لتلك الشجرة. استغربت ذلك خصوصاً أنّ صديقي يتعاطى التجارة. أتساءل: ما ضرر أنْ تكون الشجرة فكرة تجاريّة؟ أوليست صناعة الحلوى، وشراء الملابس والهدايا والعيديّة والتنزه ممارسات لا يمكن أنْ

تنفصل عن التجارة؟ أوليست التجارة عصب الحياة، حلّلتها ونظّمتها الشرائع الدينيّة والإنسانيّة؟ يبدو أنّنا نتحدث عن الاستغلال التجاري لأنّه سهل الإدراك، وهو ما يؤثّـر مباشرة على جيوبنا، لكنّ الاستغلال الفكري أشدّ خطورة. وهو نوع من الاستغلال يبرع فيه العنصريون فوصل الحد ببعضهم مثلاً أنْ يستغل الاستقامة السياسيّة التي يمارسها الغرب المتسامح، خصوصاً في معرض التكفير عن فظائع المحرقة النازيّة، فيطالب مجلس بلديّة سيدني أنْ يعمل على حجب مظاهر الاحتفاء بعيد الميلاد حرصاً على مشاعر الأقليّات! وغريب أنّ هذا الأمر أخذ على محمل الجدّ، لكنّه لم يفلح طبعاً، فلازالت المدينة تزدان كلّ سنة بحلّة تناسبها، ولازلنا نودّع العام بأجمل وأهمّ الألعاب الناريّة في العالم. طوبى للتاجر الذي ابتكر الشجرة، وخلق بابا نويل، وحرّك التجارة بهدايا العيد. لا عيب في هذه التجارة لأنّها في عالم الغرب تخضع للاختيار الشخصيّ، ولا يجبرك أحد عليها، وحتّى لو لم تَنصب شجرة، لا يمنعك أحد من التمتّع بمشاهدة الشجرة، والتمشي في شوارع الفرح، والاحتفاء بالأمل.

قرأت مؤخراً مقالة للدكتور عبد الرحمن محمّد الأيوب بعنوان "أنحني احتراماً للمسيحيين" تتوسع بطرح هذه الأفكار، وتنتقد فتوى أحد كبار علماء المسلمين الذي حرّم استعمال المسلمين للشجرة لأنّها تقليد مسيحيّ. هذه المقالة أوحت لي باستحضار الأحداث التي قدمتها هنا، وجعلتني أستغرب هذه الفتوى التي تأتي في القرن الواحد والعشرين، بينما كنّا في خمسينيّات وستينيّات القرن الماضي نحتفل بكلّ أعيادنا وأدياننا في دمشق القديمة التي كانت يوماً عاصمة للإمبراطوريّة الأمويّة.

أقمت في أوائل السبعينيّات من القرن الماضي في بيروت حين كانت "ست الدنيا". وكنت قبيل عيد الميلاد أقصد الأسواق التجاريّة، لا لأتبضّع، بل لأستمتع بمشاهدة أشجار الميلاد وأضوائها، وأستمع إلى التراتيل الموسيقيّة المنبعثة من كلّ مكان.

كنت أشعر بالنشوة، وأنّي أسبح في ملكوت الكون. كنت سعيداً. والآن أعلم أنّ هناك ابتكارات كنت أنعم بها، وأحسّ بتأثيرها دون أنْ أدرك أنّها اختراعات للبهجة. هذه الاختراعات أضافت إلى حياتنا ولم تتطلب من أحد يوماً أنْ يتخلى عن أساليب حياته. هي أمامه إنْ أخذ بها أخذ، وإنْ لم يأخذ فلن يكفّره أحد. أيّها المتدينون، دينكم شأنكم. أما الإنسانيّة فهي شأننا كلّنا، ومن حقها علينا أنْ نعطيها القيمة التي تستحق، وأن ندرك أنّ الحياة مليئة بالجمال والخير، على الرّغم من انتكاساتنا الحاليّة، وأنّ البهجة من حقنا جميعاً.

سيدني، 2010

الإلهام، وليس التنافس فقط

من أفضل ما سمعت هذه الفترة، مقولة عن الموسيقار بنجامين زاندر، وهو قائد أوركسترا معروف بأسلوبه المختلف في تعامله مع تدريب عناصره، وشاهدته على التلفاز ينتقل بين الموسيقيّين، يحرّضهم بحركاته ورقصاته وأصواته. فهو ليس القائد الذي يحبس نفسه على سدّة عالية، ويقتصر على حركات يديه، وينتظر أنْ تقوم عصاه بفعل السحر والعجائب في إنجاز تلامذته. وفوجئت أنّ بعض شركات ومؤسّسات الأعمال الراقية تدعوه الآن ليلقي محاضرات على مدرائها وموظّفيها في أسلوب الإدارة التي تحسّن الأداء. ومختصر فلسفته أنّ التنافس، الذي لا يمكن نكرانه، يجب ألاّ نخضع له كأساس وحيد في دفع الأداء قُدماً، بل هناك ما هو أهمّ، ألا وهو "الإلهام". أي أنْ يكون القائد قادراً على إلهام الآخرين، ونقل الروح الإيجابيّة لهم. أي لا يكفي أنْ يكون القائد مُلْهَماً، بل لا بدّ أنْ يكون مُلْهِماً أيضاً.

وأستطيع بكلّ اعتزاز أنْ أقول إنّني خلال حياتي المهنيّة كرئيس لمجموعات وأقسام، ومدير لفروع ودوائر، كنت دائماً على طرف نقيض مع كثيرين من زملائي في الإدارة لأنّني كنت أؤمن بضرورة الإدارة الإيجابيّة، لا السلبيّة. وتولّدت لدي هذه الأفكار خصوصاً في مواجهتي مع نظام الإدارة الأستراليّ الذي يستخدم التنافس بصورة سلبيّة، برأيي، فمثلاً حين يتم اختيار الموظّفين، تجري عمليّة تصفيّة يشار إليها بكلمة "culling"، وهي الكلمة نفسها المستخدمة حين يتمّ التخلص من الحيوانات المريضة والإبقاء على السليمة. وفي هذه الطريقة يخضع المتسابقون للأسئلة نفسها (بدعوى المساواة بين الجميع)، ثم تتمّ "الغربلة"

باختيار من أجاب بالطريقة المحددة المطلوبة. هذه الطريقة تتغاضى عن أهمّيّة الفروقات بين البشر، وبين كفاءاتهم، وضرورة امتحان الخصوصيّة المميزة لكل متسابق. أمّا طريقتي فكانت تعتمد على دراسة السيرة الذاتيّة لكل شخص، وتكوين مجموعة من الأسئلة تساعدني في اكتناه قابليّته على تحقيق ما يدّعيه. هذه الأسئلة لا يمكن أنْ تُطرح ذاتها على شخص آخر له خبرات أو أساليب مختلفة. وبما أنّنا كلّنا نتمتع بالإيجابيّات والسلبيّات، تنهج الغربلة السائدة نهج اكتشاف السلبيّات لتحقيق نتيجة سريعة في عمليّة الاختيار. لكنّي أعتقد أنّ الاختيار يجب أنْ يكون إيجابيّاً، أي أنْ يتعدى منطق الغربلة بحد ذاته إلى التبصّر بالمزايا التي يمكن للشخص تقديمها أو تطويرها.

ولا أستغرب أبداً أنّ قائد أوركسترا هو الآن من يعلّم الإداريّين أسلوب حُسن الإدارة. فأنّا ممن يؤمنون بمنطق "التكامل"، أو "الشموليّة" في الحياة، وأنّ الأدب والفنّ والعلم، مثلاً، لايمكن بالنتيجة عزل كلّ على حدة، فلا بدّ للأديب الناجح من أنْ تكون لديه بعض لمسات الطريقة العلميّة، ولا بدّ للعالم الناجح أنْ تكون لديه بعض اللمسات الفنيّة.

هذه الأفكار القديمة الجديدة تؤكّد لنا أنّ التخصص هو أسلوب "عملانيّ" في التركيز على جزء من المهمة الحياتيّة للإنسان، لأنّه لا يمكن لفرد واحد أنْ يلمّ بكل شيء. "الإلهام"

الحقيقيّ (تأثـّراً وتأثيراً)، يعني أنْ لا ينغلق الإنسان في تخصصه ويعمى عن أهمّيّة التواصل مع الآخرين.

وهنا تحضرني ابتسامة صديق عزيز فيه من روح التكامل أشياء كثيرة، ظهرت لديه حين كنّا على مقاعد المدرسة، وكنّا نذهب ليلاً لدراسة اللغة الإنكليزيّة في "دار اللغات" بدمشق. كان صديقي يهوى الهندسة التي قرّر أنْ يتخصّص فيها، وكان يعلم اتجاهاتي نحو العلوم الحيويّة. ذات ليلة تطرّق درس اللغة الإنكليزيّة إلى بعض الأجهزة الطبيّة. وحين كنّا عائديْن سيراً على الأقدام نحو منزلينا، بادرني بقوله وعلى وجهه ابتسامة إعجاب وانتصار، ما معناه أنّه قرأ مؤخراً بحثاً بعنوان "الهندسة في الطب"، يتطرّق إلى آخر ما توصلت إليه العلوم الهندسيّة في تحسين وسائل التشخيص، والقياس، والعلاج الطبيّة. لن أنسى أبداً وجه صديقي، الذي أصبح دكتوراً في الهندسة، وأستاذاً في الجامعة، الذي لقنني درساً من أوائل دروس "الشموليّة" في مساء ليلة من ليالي دمشق، في أواخر الستينيّات من القرن العشرين.

سيدني، 2004

مئةُ سَنةٍ وسَنة:

حِكايتي مَعَ الدكتور يوسُف سمَارَة، عاشقُ دمشقَ والشمسَ والكلمة

أذكر قامته النحيلة، والهدوء الذي يظهر في تصرّفاته، لكنّ قسمات وجهه الأنيقة كانت تقول لي إنّ وراء ذلك بركاناً من القدرة لم أكن في وضع يسمح لي بمراقبة تخبّطاته. كنت مجرد تلميذ مدرسيّ في دمشق أقصد مكتبتين بغية تحصيل كتب لا توجد لدى المكتبات الأخرى، خصوصاً الكتب الإنكليزيّة. المكتبة الأولى "مكتبة صايغ"، تركّز على كتب التدريس. المكتبة الثانية، "مكتبة أطلس"، تمتاز ببيع مجلاّت وجرائد أجنبيّة وكتب في شتّى مجالات الحياة، بلغات مختلفة. ولي حكاية مع أشخاص كلّ من هاتين المكتبتين، لكنّي الآن بصدد الشخصيّة التي كنت أراها وأتعامل أحياناً معها في مكتبة "أطلس".

ماكنت أعرف اسمه ولا من هو، وما كان هذا من ضرورات الموقف. أنا شابّ صغير، وهو في عمر والدي. أذكر، في مرّات زيارتي للمكتبة في الستينيّات من القرن المنصرم، أنّه كان دائماً يجلس على كرسيّ أتخيّل أنّه في وسطها. وأذكر مرّة واحدة على الأقل قام فيها وساعدني في تفهّم بعض المحتويات، وانتقاء كتاب. غريب ما في الأمر أنّه كان مهيباً جادّاً في تعامله، لكنّني أحببت ذلك فيه، وانطبع في ذهني كلوحة زيتيّة لرسام عظيم.

ويبدو أنّ هذه اللوحة انتقلت إلى عقلي الباطن لتبقى فيه فترة طويلة دون أنْ أستذكر ملامحها تحديداً، على الرّغم من تأثيرها على مجال التلقي الحياتيّ لدي.

حين قابلته في بيته في دمشق في أوائل التسعينيّات من القرن المنصرم، كان في الثمانينيّات من عمره، وكنت أنا تجاوزت الأربعين. أمضيت معه ساعة من العمر، وما ربطتُ بين يوسف سمارة، والد صديقتنا الدكتورة لين المقيمة في أستراليا، والذي ذهبتُ للتعرف إليه أثناء زيارة لدمشق، وبين يوسف سمارة صاحب مكتبة "أطلس"، الذي سبق أنْ تعاملت معه وترك فيّ انطباعاً خاصّاً، مع أنّهما الإنسان نفسه.

يوسف سمارة، والد صديقتنا، ترك في نفسي انطباعاً مشابهاً، لكنّه الآن أكثر عمقاً. أنا الآن وجهاً لوجه أمام هذه الشخصيّة التي ناء جسدها بأحمال سنين من العلم والثقافة والعمل. ولا زلت أرى في ملامحه التصميم على المواصلة، فهو في تقاعده لجأ إلى تعليم الألمانيّة للمتخرجين، والرسم، والنحت، وجمع الآثار. أهداني إحدى القطع التي نحتها، لكنّه كان فخوراً بغرفة الاستقبال الرسميّة في بيته، والتي كانت كلّها مشغولة من النجارة الدمشقيّة العريقة، بما تحتويه من نقوش وخطوط وفسيفساء كست الجدران والأبواب وقطع الأثاث.

ودّعته، وفي ذهني لوحة زيتيّة ثانية للشخص نفسه، دون أنْ أعلم. استرجعت هذه اللوحة الأخيرة من عقلي الباطن مرّات عديدة، لأسباب لا أعلمها سوى أنّ يوسف سمارة، مع نخبة من معارفي يتجلّون لي بين الحين والآخر، أسترشد من وحيهم حكمة وبهجة.

وجاء يوم خبّرتني صديقتنا لين أنّها بصدد الذهاب إلى فرنسا، حيث أقام والدها يوسف في الفترة الأخيرة من عمره، للاجتماع بكلّ أفراد العائلة، وذلك للاحتفاء بعيد ميلاده المئة في شهر أيار 2010.

كان يوسف مبتهجاً باجتماع شمل عائلته المبعثرة بين أصقاع الأرض، فرأى ابنه وبناته وأحفاده وأولاد أحفاده. وبفضل مكانته، وجهود ابنته الدكتورة رانية، الأستاذة في جامعة السوربون، أقامت بلديّة باريس حفل تكريم له ألقت ابنته رندلى خلالها كلمة بالفرنسيّة لخصّت لنا فيها أوجهاً من عبقريّة الدكتور يوسف سمارة، أقتبس هنا لماماً ممّا قالته.

'كان يوسف سمارة فيلسوف حياة، رجل تأمّلات، رسّاماً، شاعراً، لغوّياً، بارعاً في الأعمال اليدويّة. كان على ثقافة علميّة وأدبيّة كبيرتين، يعشق السفر عبر الزمن بالمعنيين الفيزيائيّ والماورائيّ. مثلاً، كان يبحث في القطع الأثريّة والأعمال الفنيّة وأوراق الشجر وأغصانها. ولع بالتاريخ، الحقيقيّ منه والأسطوريّ، ولم تمنعه الجغرافيا من السفر إلى بلد وآخر، على الرّغم من تجاوزه الخامسة والتسعين، بما في ذلك زيارته لابنته وابنه وحفيديه في أستراليا. كان يتناول وجبات متوازنة فيها كثير من الخضار، ويغذّي عقله بقراءات كثيرة بشتى الوسائل. كان يعشق البحث اللغويّ، وأصول الكلمات، ويكتشف العلاقات بينها. حفظ الشعر وردّده تكريماً للشعراء الذين كان بعضهم صديقاً له في مسيرة حياته، كما أنّه كتب الشعر محبّة بالشعر فقط. ألّف المقالات، والمحاضرات، والكتب، وترجم المعاجم. تميّز بحبّه وتعمقه في فلسفة المسيح، وجبران خليل جبران، وغيرهما من الفلاسفة والكتّاب. أحبّ الرسّامين الكلاسيكيّين و"دالي"، الذي كان يحظى لديه بمكانة خاصّة، مع أمثاله ممن طرحوا أسئلة كونيّة معقدة. كان يسأل دائماً عن ماهيّة الزمن. هذا هو يوسف سمارة الذي حصل على الدكتوراه في الاقتصاد السياسيّ من جامعة السوربون منذ سبعين عاماً، وشهد معظم أحداث القرن العشرين، من اكتشاف الكهرباء، واختراع المذياع والهاتف والتلفاز والطائرة والهاتف الجوّال، وتصنيع البلاستيك، ونشوب الحروب والثورات. كان محامياً، وقاضياً، وناشراً، وبائع كتب، ومؤسّساً

للسياحة في سوريا، ومديراً لها، ومساعداً لوزيرها. وفوق كلّ هذا كان الابن والأخ والزوج والأب والجدّ والعم والصديق. أنحني يا أبي أمام شجاعتك التي تخطيّت بها تحديات الحياة التي واجهتك، وأمام إخلاصك وحماسك وإلهامك لمن تترك وراءك. ياحبيب دمشق والشمس والكلمة. أنحني إجلالاً للمعلّم الذي وجدته فيك.'

يوسف سمارة بعدسة ابنته لين

منذ أيّام خبّرتني صديقتنا، الدكتورة لين، أنّ أباها غادر هذه الحياة، وكان لبقاً حتّى في وداعه، فانتظر إلى نهاية الأعياد، واطمأن إلى سعادة الأبناء والأحفاد، واستقبل العام الجديد في ذمة الكون العريض، إذ أدركته المنيّة في اليوم الأوّل من هذا العام.

وحدّثتني لين كيف أنّ شقيقتها رانية قد تكتب سيرته الذاتيّة يوماً، وهي أستاذة الأدب والترجمة في السوربون، وهي التي اعتنت به خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة.

ابنه، الدكتور فارس، طبيب عيون مارس مهنته في ألمانيا لمدة عشر سنين، ثمّ حضر إلى أستراليا. عمل مبدئيّاً مع الراحل فرد هولوز، ثمّ عمل طبيباً عامّاً، وأتْبَع ذلك باختصاص في

شؤون الكحول والمخدرات، كما أنّه يدير عيادات تعنى بالسكان الأصليّين.

تقول لين عن أختها يولاندا إنّها ربّما تكون أكثر الأخوة فطنة وسحراً وفناً. يولاندا متخصّصة في هندسة العمارة من السوربون في باريس. تركت سوريا في منتصف العشرينيات من عمرها، وعاشت بين باريس ولندن وروما تعيل ابنها وابنتها. وخلال السنوات العشر الأخيرة تخصّصت في العلاج الطبيعيّ باستخدام القوى الحيويّة.

أمّا رندلى، أصغر الأولاد، فخرّيجة أدب فرنسيّ، وتخصّصت في مسرح الأطفال في باريس. بعد ذلك تخصّصت في علم السيراميك والفخاريّات من أكاديميّة مدريد. عاشت بين فرنسا وإسبانيا وبلجيكا، وعادت لتستقر مع عائلتها في كان الفرنسيّة. وتصفها لين على أنّها أكثر الخمسة إبداعاً وملائكيّة.

لين كانت في دمشق طبيبة أطفال متخصّصة من بريطانيا، وهي الآن في أستراليا تمارس الاختصاص نفسه في عيادتها الخاصّة وفي المستشفيات. ربّت ودرّست ابنيها عبر ثلاث قارات، وهما الآن في أستراليا يمارسان الحياة العمليّة بعد تخرجهما من أفضل الجامعات، بأحسن النتائج. وتقول إنّها ستتذكر دوماً ماقاله لها والدها إبّان زيارته لها في أستراليا عام 1997، إنّ هذا العصر هو عصر التخصّص، وكيف أنّه لم يبرع في شيء محدد لأنّه لم يركز على اختصاص معين. وكرّر دوماً كيف أنّه فخور بأنه أنجب عائلة من "الدكاترة"، معترفاً بأنّ "أناه" كبيرة جداً، وأنّ أولاده امتداد له، وهكذا سيبقى جزء منه حيّ بعد رحيله.

وتضيف لين، مستشهدة بكلمات رالف والدو إمرسون، أنّ ما يهمّ في النهاية هو 'أنْ تضحك كثيراً ودائماً، أنْ تكسب احترام الفطناء ومحبّة الأطفال، أنْ تحصل على تقدير النقّاد الشرفاء، وتتحمل خيانة الأصدقاء المزيّفين، أنْ تقدّر الجمال، أنْ تكتشف الأفضل في الآخرين، أنْ تترك العالم أفضل قليلاً عما وجدته، سواء

بولَد صحيح الجسم والعقل، أو حديقة صغيرة، أو إصلاح اجتماعيّ، أو مجرد أنْ تعلم أنّ مخلوقاً تنفس بسهولة أكثر بسبب حياتك. هذا هو معنى الحياة.' وتضيف أنّ أباها، الدكتور يوسف سمارة، عاش حياة طويلة ناجحة وفق هذا التعريف.

الحديث الذي جرى بيني وبين لين كشف لي ما استتر من حكايتي مع يوسف سمارة، ولكأنّ الموت هو ما وحدّ أخيراً الصورتين المحفوظتين في عقلي الباطن لرجل تسرب إلى قلبي دون أنْ أعيه حقّ الوعيّ، وربّما أحبّه الآن أكثر مع زيادة وعيي له. وأتمنى أنْ تصله ومضة من احترامي وتقديري، أحمّلها على بحيرة الضوء التي تغطي الكون.

سيدني، 2011

اللِحَاف...

مستشار "كلمات"، المجلّة التي أنشُرها وأحرّرها، الأستاذ **نويل عبد الأحد**، يقيم في الولايات المتّحدة الأميركيّة، ونتحدث هاتفيّاً كلّ أسبوع للتشاور في أمور المجلّة، لكنّ الحديث غالباً ما يأخذ أبعاداً تتطرق إلى مختلف نواحي الفكر، وحتّى شؤون وشجون الوضع الإنسانيّ عامّة، والفكر العربيّ المعاصر خاصّة.

يتميّز عبد الأحد بخصائل شتّى يجمع فيها بين النظرة التحليليّة الثاقبة، واللمسة الإنسانيّة البديعة، سواء على صعيد حِرفانيته كأديب وناقد ومترجم، أم على صعيد تعامله كإنسان وصديق. ولذلك صار صوته الراقي، الذي يأتيني عبر المسافات ناقلاً وهج أفكاره، مصدراً مهماً لغذائي الروحيّ والفكريّ لأنّ حواراتنا تحرضّ الذهن، ليس فقط بإعطائه الشحنة المناسبة، وإنّما بدفع "محركاته" إلى مسارات فيها من التحدي ما يكفي لإعادة الشحن والحركة.

والجميل أنّ كلّ هذا يحدث في إطار من الطرافة والدعابة في كثير من الأحيان، فمرّة أرسلت له ترجمة لمراجعتها فقام بتصليح الأصل الإنكليزيّ، ظانّاً أنّه الترجمة. واليوم جاءني صوت ضحكاته وهو يعلّق على هذه الحادثة التي جعلته يضحك في نفسه كثيراً. وكالعادة تطرّقنا إلى الهمّ العربي العامّ فعلّقت بقولي إنّ من أهمّ الصفات المأساويّة للذهنيّة العربيّة هو هذا "اللحاف" الذي يغطينا جميعاً فلا يجعلنا نرى عيوبنا ونعترف بأغلاطنا، بل نميل دائماً إلى اتهام العدو، ونؤثر نظريّة المؤامرة على ضرورة إرساء قواعد الديمقراطيّة السليمة وتعزيز مبدأ المحاسبة.

ضحك كثيراً، وتعجبت إلى أنْ بيّن لي أنّ كلمة "اللحاف" أعجبته، وأنّها قد تكون من أكثر الكلمات ملاءمة لوصف الحالة العامّة.

وأريد أنْ أجعلك تضحك أكثر يا صديقي العزيز إذ أقول إنّ اللحاف يفيد أحياناً حين يقينا من البرد، أو حين يوحّد في ما بيننا بشكل إيجابي. واللحاف مفيد دائماً إذا كان مصدر رعاية وصيانة، وهو رائع حين يكون ذخراً للتغطية الفكريّة النيّرة، شأنه شأنك أيّها المستشار الكريم، فكم أحبّ أنْ أحسّ أنّك لحافي! وكم هي محظوظة "كلمات" بتلك النخبة من الأغطية الفكريّة والعمليّة الممثلة بالكتّاب والمستشارين والأنصار...

والطريف أيضاً أنّه بعد برهة قصيرة من حديثنا الهاتفي، حمل إلي الفاكس عبارات جميلة من ضمنها الكلمات التالية لعبد الأحد:

> يفتّق الحوار بصورة عامّة، أذهان المتحاورين، ويفتح لهم مغاليق كانت ستظلّ مغلقة بدونه؛ إنّه أشبه بحجر الصوّان الذي تُضرم نيرانه، حين يُقدح بصوّان آخر.
>
> لقد أذهلني وصفك العفوي عندما استخدمت كلمة "اللحاف". اللحاف الذي يغطّينا جميعاً، فيحجب عن أعيننا عيوبنا، فلا نعترف بأغلاطنا. هذا اللحاف هو إرثنا الجماعي، نقدّسه على علاّته، على أخطاء ورثناها ممن سبقونا، نقدّم لهم القرابين، دون تمحيص أو نقاش... ننفخ فيه حياة جديدة – حياة مستقبلنا إيّاها – كما فعل آباؤنا من قبلنا، وأجدادنا من قبلهم، ثم نرتديه كزيّ، نفاخر به، ولا نقبل عنه بديلاً.
>
> العلّة المستحكمة في ذهنيّتنا، كعرب، هي الماضي الذي انزرع في أذهاننا منذ الصغر. زرعته في صميم إدراكنا القوى المختلفة كافّة، المتضافرة على

استثمار لين تلك الطفولة، سواء أكانوا سياسيّين فاسدين، أم رجال دين أفّاقين، وغيرهم ممن يحاولون الحفاظ على هذا "الإرث"— وسيلتهم الوحيدة، في استمراريّتهم، بالاستثمار والهيمنة، والإبقاء على "ذهنيّتنا العربيّة" مخدّرة ومشلولة.

إذاً نحن نتابع الماضي، نجتّر تجارب ورؤى تطلعات آبائنا وأجدادنا، بعد أنْ دجّن المستثمرون فكرنا، ومكّنوا "الزمن" ضد "اللا زمن"— رمز التجديد والتحوّل... فأُجبرنا – دون أنْ ندري – أنْ نسلك دروب "الامتثال" حتّى غدا هذا الامتثال واقعنا بشكل لم نعد معه نقوى على رفضه، خشية مواجهتنا المجهول؛ أي اللا أمان.

ولكن ما السبيل إلى تحرّرنا من هذا اللحاف، وتسيير دفته من الحالة السلبيّة إلى الحالة الإيجابيّة، بحيث 'يقينا من البرد، ويوحّد فيما بيننا؟' أستأذن أخي الدكتور رغيد بأن أوجّه الدعوة، نيابة عنه، إلى الأدباء والمثقفين، للإسهام في إبراز الأسباب التي من شأنها أنْ تحررنا من تلك "الذهنيّة" المحنطة.

حزيران 2004

وَدَاعاً نويل

كلّما كان يأتي صباح سبت أو أحد كنت أتصل بصديقي نويل عبد الأحد، لنلتقي سيدني مع فينيكس، فيتحدث أستراليّ عربيّ من أصل سوريّ-لبنانيّ، مع عربيّ من أصل فلسطينيّ يعيش في الولايات المتّحدة. أمّا الحديث فيتجاوز عتبة الزمان والمكان، ولا يعبأ بطغيان التاريخ أو الجغرافيا، لأنّه حديث شخصين جمعهما الفكر المنفتح الخلّاق الذي يجتاز الحواجز ويختصر المسافات.

الأحاديث كانت تستمر لأكثر من نصف ساعة كلّ مرّة، وربما تجاوزت الساعة مرّات، نتناول فيها الأوضاع العالميّة، ثم نركّز على شؤون الفكر والأدب، خصوصاً حين كنت أصدر مجلة كلمات التي كان نويل عبد الأحد أحد مستشاريها. ومن تواضعه رفض إرسال صورة شخصيّة لنستعملها في موقعنا الإلكتروني، ما اضطرني لإيجاد رسم له بريشة الفنان المخرج السوريّ نبيل المالح، حصلت عليه من طريق شقيق نويل، الأستاذ يوسف عبد الأحد.

حمل نويل معي همّ المجلة منذ صدورها، وبذل جهداً راقياً كبيراً في الترويج لها في الولايات المتّحدة، وحول العالم. وحين كنت أكلّفه بمراجعة وتقييم بعض موادّ المجلة كان يستجيب مباشرة، وينهي مهمّته قبل الموعد النهائيّ، وغالباً خلال

يوم أو يومين. كان يقدّم مراجعاته بموضوعيّة وحرفانيّة متناهيتين.

قدم نويل لـ"كلمات" إسهامات كثيرة، خصوصاً ترجماته الشعريّة. كانت أولاها ترجمته الإنكليزيّة لقصيدة "في العلياء" للشاعر حكمت العتيلي الذي كان يعيش في الولايات المتّحدة أيضاً إلى يوم وفاته العام الماضي. وقدّم بعدها ترجمات إنكليزيّة أخرى للعتيلي، ولشعراء آخرين مثل محي الدين اللاذقاني، مي مظفر، كمال خير بيك، نوري الجراح، زكي الجابر، عيسى البطارسة، شوقي مسلماني، سعديّة مفرح، فدوى طوقان، غادة السمّان، سلوى السعيد، ميلود لقاح، عصام ترشحاني، أحمد فضل شبلول.

أمّا ترجماته إلى العربيّة فتناولت أعمال شعراء مثل غليندا فوكس، كلاريبل أليغريا، جون شبرد، دنيس بيرنشتاين.

ومن مقالاته واحدة عن جبرا إبراهيم جبرا، وأخرى عن بطرس عنداري.

أمّا أعماله خارج كلمات فهي أكثر من ذلك بكثير، ودائماً يُذكر نويل بترجمته لكتاب النبيّ لجبران. كما ربطته صلات فكريّة ومهنيّة وثيقة مع بعض كبار الكتاب أمثال السيّدة غادة السمّان.

منذ شهرين لم أعد أحظى بالحديث مع نويل. كلّما اتصلت كان الهاتف يرّن دون جواب. كثـّفت محاولاتي، وأمضيت أحد الأيّام أتصل كلّ ساعة إلى أنْ جاءني صوت نويل، وكانت الساعة منتصف النهار في مكان إقامته. قال إنّه حضر للتو ليلملم بعض الحوائج، ويعود إلى منزل أحد أقاربه الذي يستضيفه لفترة. علمت من حديث نويل أنّه اضطر لدخول المستشفى عدّة مرّات، لكنّه أكدّ لي أنّ كلّ شيء على ما يرام. كنت أعلم أنّ تواضعه وحساسيّته تمنعه من تحميلي أعباء المحنة التي يمر بها. أمّا أنا فما كان يهمني هو سماع صوته بخير، لذلك لم أسأله عن تفاصيل القضيّة.

منذ ذلك الحين أتّصلُ كلّ سبت وكلّ أحد، دون أنْ أحظى بردّ نويل وسماع صوته العذب ذي التأثير المريح للأعصاب، لما فيه من أناقة وتهذيب. علمت في قرارة نفسي أنّ الأمر خطير، لكنّني ما تصورت أنّ هاتفي سيرنّ ليقدم لي صديقي الشاعر شوقي مسلماني التعازي بوفاة نويل عبد الأحد، نويل الذي تعاون معي على ترجمة ديوانين للشاعر مسلماني.

نويل كان مهذّباً راقياً في حديثه وفي تعليقاته ومراجعاته. كان يقبل النقد، بل يسعى له، ويحكم على الأمور بمنتهى الموضوعيّة، وهذا ما جعله يقبل بتغيير ترجمات قام بها بمجرد أنْ تنجلي له صدقيّة من يقدم له النقد.

تعود إليّ صباحات يومي السبت والأحد الآن وفي القلب غصّة، وفي الفكر فراغ.

وداعاً نويل. إنْ كان هناك منزل آخر، فلا أشكّ أنّ صدر الكون سيكون لأمثالك. وإنْ كان سيكتب لنا لقاء آخر، فعسى أنْ نرتفع إلى مرتبتك لنحظى برؤية وجهك الكريم، ونسمع صوتك الرخيم.

سيدني، 2007

(نويل عبد الأحد 1939/01/31 – 2007/10/28)

عبد المعين الملوحي
والدفاع عن الغرب

علمت بوفاة الأستاذ السوريّ الكبير عبد المعين الملوحيّ بعد أسابيع من غيابه، وسبق أنْ استوقفتني مقالة له، قلّ كلامها وكبرت دلالتها، بعنوان "دفاع عن الغرب"، نشرتها مجلة "السنونو" التي تصدر عن رابطة أصدقاء المغتربين في حمص، في عددها السابع (شباط 2006). وأردت أنْ أعلّق على مقالته مؤيّداً وشاكراً، وكان ودّي أنْ يقرأ تعليقي عسى أنْ أوفيه بعض ودّه الذي أبداه تجاه مجلة "كلمات" من طريق المراسلة، فأنا لم تسمح لي الظروف بلقائه، وكم عاتبني في رسائله كيف أحضر إلى دمشق ولا أزوره. غاب الملوحي، وحرمت أنا من شرف زيارته، وكذلك مجرد نقل رأيي في كلامه إليه، لكنْ عسى أنْ يكون لتأكيد مقولته بعض صدى.

يمهّد الملوحيّ لمقالته بذكر أنّ الأفكار السائدة في المشرق هي أنّ الغرب مغمور بالماديّة ويفتقد إلى الروحانيّة، بينما الشرق هو موئل الأخلاق والروحانيّات. لكنّ الملوحيّ يقول إنّ 'كلّ ما يقال عن روحانيّة الشرق أسطورة من الأساطير، والغرب رغم كلّ ما يقال عن ماديّته أكثر روحانيّة من الشرق، والإنسان في الغرب أكثر إنسانيّة من إنسان الشرق... وما نزال نعيش على منجزات الغرب في الصناعة والعلوم التقنيّة، بل ما نزال نستورد منه وسائل الدفاع والغذاء والدواء.'

ويضيف أنّ الغربيّ يتمتع بما لا يتمتع به إنسان الشرق، مثل الحرّيّة والتعليم والصحة والشبع والرفاه الماديّ ووجود

مؤسّسات الرعاية لكلّ عيّنات المجتمع. أمّا الآفات الغربيّة من وجود العصابات والقتل والإرهاب، فهي آفات يؤكّد الملوحيّ أنّها موجودة في الشرق أيضاً.

أمّا عن العلاقات الشخصيّة والاجتماعيّة، فيبيّن الملوحيّ أنّ مستلزمات الحياة العصريّة والتقنيّة تفرض نمطاً معيّناً من المسلكيّة الغربيّة التي لا بدّ ستصيب الشرق مع تطوّره التقانيّ. هذا مع العلم أنّ الشرق الآن حافل بكثير من سوء العلاقات، بما في ذلك خيانة الأخ أخاه، وقتل الابن أباه. ثم ينتقل إلى نقطة مهمة، وهي انتقال 'الرحمة الفرديّة التي تكتفي بإعطاء درهم لفقير في الشرق، إلى رحمة جماعيّة في الغرب، تقوم على بناء المستشفيات والمؤسّسات العامّة...' ويضيف أنّ 'الحنان الفرديّ تحول إلى تضامن اجتماعيّ راق...'

استوقفني هذا الكلام لسببين، أوّلهما أكثر أهمّيّة من ثانيهما: الأوّل هو أنّه يأتي من إنسان من صميم الشرق، وما زال قاطناً فيه. الثاني هو أنّني شخصيّاً ممن يتبنون هذا الكلام، خصوصاً أنّني اخترت أنْ أكون في أستراليا البلد الجاثم في أقصى الشرق جغرافيّاً، وفي صميم الغرب فكريّاً وعمليّاً. أستاذنا الملوحيّ يستحق تهنئة كبيرة على شجاعته وصراحته، بل على وثبته الفكريّة الهائلة التي برّ فيها مجتمعه بتبنيه النقد الذاتيّ الموضوعيّ، وهو من أهمّ وسائل الوصول إلى المجتمع الديمقراطيّ العادل. لو تخلّى العرب عن أوهامهم، وواجهوا حقيقة أمرهم مثلما وضحّها الملوحيّ، لعاد الأمل في إحياء نهضة الأمّة العربيّة من جديد. لقد جسّ الملوحيّ بكلامه نبض المشكلة الكبرى التي جعلت من الشعب العربيّ شعباً كسيحاً. وهو بهذا الفكر يعلن تقدميّته وانفتاحه، أي أنّه يبزّ أيضاً كلّ الأجيال التي تصغره بعشرات السنين، والتي نراها الآن ترتد نحو التزمّت والتعصّب على أنواعهما، عوضاً عن أنْ تقود الأمّة نحو مستقبل

يغسل آفات الماضي، ويفتح الطريق أمام الانفراج الذهنيّ الضروريّ لمواكبة العصر الذي نعيش فيه.

وقد يتعجّب أستاذنا القدير لو علم أنّ من "الشرقيّين" الذين عناهم من حطت رحاله في بلاد الغرب، لكنّ معظمهم ما زال يعيش على أوهام بلد المنشأ، وينكر على البلاد التي انتهى إليها تقدّمها وفضلها وحريّتها، بل يتقوقع على نفسه مع أمثاله، ويرفض الانسجام مع مجتمعه الجديد دون أنْ يكتفي بذلك، بل يتّهم مجتمعه بالتمييز ضده، دون أنْ يدرك أنّه بانعزاله قد بدأ التمييز، وأنّ المجتمع الغربيّ الذي منحه سمة الدخول، والإقامة، والجنسيّة، لايمكن أنْ يكون قد ميّز ضده من الناحية العمليّة.

وأشدّ غرابة من ذلك أنْ نجد من أبناء بعض "المهاجرين" أو "المغتربين"، الذين ولدوا في بلد مثل أستراليا، من يرفضون اعتبار أنفسهم أستراليّين على الرّغم من عدم انسجامهم التام مع أصولهم. ووصل الأمر في أستراليا إلى تشكيل بعضهم عصابات إجرام ممّا دعا شرطة ولاية نيو ساوث ويلز تشكيل فرقة لمكافحة ما صار يعرف هنا بـ"الجريمة الشرق-الأوسطيّة". وطبعاً هناك فرق كبير بين أنْ يرتكب الجريمة فرد بصفته الشخصيّة، وفي هذه الحال يوصف الفرد بأنّه أستراليّ مهما كانت أصوله، وأنْ يرتكبها أفراد عصابة منظّمة تضم أفراداً من خلفيّة معينة واحدة. حين تصبح الجريمة منظّمة، وتأخذ العرق أو الدين ستاراً لها، تصبح المبرّرات كافية أمام المجتمع لإعطائها صفة إثنيّة. وإلاّ ما تفسير أنْ ينتمي عدد من المجرمين من الخلفيّة نفسها لتنظيم واحد ينتهك حرمة المجتمع؟

وما يثير الدهشة أنْ نرى معظم المهاجرين العرب يشكلون تكتّلات باسم بلدهم الأمّ سرعان ماتنضوي تحت إمرة السفارة المعنيّة، وفي حال دول الحزب الواحد القائد، تخضع هذه التكتّلات لنفوذ ممثل الحزب. وإن فكّرت فئة من تلك البلاد تشكيل تجمّع جديد، تقوم قيامة التكتّل الذي يعتبر نفسه الوحيد المخوّل

تمثيل الجالية المعنيّة. وعلى الرّغم من أنّ معظم أفراد الجاليات المندمجة مع المجتمع الجديد لا يملك الوقت للدخول في هذه المتاهات، نجد أنّ أولئك الذين يحبّون المشاركة ينضوون تحت لواء ما يفرض عليهم لأنّهم بعد سنين من القمع والاستكانة في بلدهم الأصل، لا يدركون أنّهم الآن أحرار في بلدهم الجديد، بل يتصرّفون بالعقليّة نفسها التي فرضت عليهم. بعبارة أخرى يكون أهمّ إنجاز لهذه التكتلات شلّ ما تبقى من حرّيّة الأفراد، والادعاء بتمثيل كلّ الجالية، وقطع الطريق على إظهار الجاليات على أنّها جزء من المجتمع الجديد، والإبقاء عليها كأبواق للسلطة الموجودة على بعد آلاف الكيلومترات، طبعاً كلّ هذا تحت شعار محبّة الوطن.

ويبيّن الملوحيّ في هذا السياق كيف أنّه من المهمّ أنْ لا نبكي من أجل الفقير، بل أنْ ننقذه لأن 'البكاء سلبيّ والإنقاذ إيجابيّ'. وهذا ينطبق تماماً على محبّة الوطن: التطبيل والتزمير والهتافات تبقى سلبيّة جوفاء ما لم تقترن بالعمل. ومثال الإيجابيّة في حب الوطن هو إصدار مجلّة "السنونو" التي ورد فيها مقال الملوحيّ. هذه المجلّة، التي تروّج الأدب والفنّ بين أهل الوطن والمغتربين، هي خدمة للوطن أكبر بكثير من مجرد نطق عبارة 'أحبّك يا وطني'.

وما زالت العقليّة القبليّة تسيطر على عقول كثير من العرب حتّى يومنا هذا، وحتّى من تواجد منهم في بلد مثل أستراليا. مثلاً، نسمع كثيراً من العراقيّين الذين فقدو أهلهم على أيدي الطاغية، الذي حكمهم عقوداً عدة، يقولون الآن إنّ حكم طاغية 'مسلم' أفضل من حكم 'الكفرة الأميركان'. ويقول غيرهم من العرب القبليّين أيضاً ما مغزاه: لترحل أميركا ونحن ننزع شوكنا بأيدينا.

صحيح أنّ الحل المثالي هو أنْ لا تكون أميركا ولا صدّام. لكنّ أكثر من ثلاثين عاماً مرّت والعرب لم يستطيعوا وحدهم

التخلّص من آفات حكّامهم وفسادهم. وبغضّ النظر عن صحّة ما قامت به الولايات المتّحدة (التي ستخرج من العراق لا محالة)، ما الذي يمنع الشعب العراقيّ الآن من الانضواء تحت راية الوطن الواحد، تاركاً لكلّ فرد حريّته في التعبّد؟ لماذا لا يكون العراق علمانياً يحكمه من هو كفيّ بغضّ النظر عن طائفته أو قوميّته أو عرقه؟ إنْ كان هذا الكلام مثالياً لأن واقع الأمر يحتم ما يحدث من صدامات، وإنْ كانت العقليّة التكفيريّة هي المسيطرة على بعض الفئات، وإنْ كان بعض الفئات يريد الاستئثار ببعض الموارد، لأنّه وضع فئته في المقام الأوّل، ووطنه في المقام الأخير، فأين ولاؤه للعراق الوطن الواحد الذي يفترض أنّه للجميع؟ وكيف يمكن حلّ المشكلة دون تدخل خارجي؟ وهل الجميع من السذاجة بمكان بحيث يعتقد أنّ دولاً مثل الولايات المتّحدة وإسرائيل ستقف مكتوفة الأيدي حين تسنح لها فرصة الاستغلال والتخريب؟

من الطبيعيّ جدّاً أنْ تحاك المؤامرات على شعوبنا، وأن يحاول الآخرون استغلالنا، لكنْ لماذا ينحصر انشغال بالنا في هذه الأمور، ولا نحاول التفتيش عن عيوبنا لاقتلاع أسباب الخلافات والفساد؟ ما الغريب في أنْ يقوم العدوّ بالتسرب كالنمل من عيوبنا على حدّ تعبير نزار قبّاني؟ الغريب أنْ ندمّر أنفسنا بأنفسنا، باستغلالنا للدين أو العرق. الغريب أنْ ينعت البعض بالرافضة، وآخرون بالزنادقة، لمجرّد أنّهم يتبنون منهجاً فكرياً وعقائدياً مختلفاً. والغريب أنْ يقوم بعض العرب في ديار الهجرة بتكرار الحماقات التي تسببت أصلاً في مغادرتهم أوطانهم، وأنْ يقبلوا على أنفسهم البقاء على هامش مجتمعهم الجديد، مبرّرين ذلك بمحافظتهم على التراث، أو غير ذلك من أساليب خداع النفس، عوضاً عن أنْ يكونوا جزءاً من تركيبة مجتمعهم الجديد فيغنوه بتراثهم، ويستفيدون من خبرته وتقدّمه وديمقراطيّته استفادة إيجابيّة، أي ما يؤدّي إلى بناء أنفسهم كأشخاص ذوي اعتبار، وليس كمنفلتين مهمّشين لمجرّد توافر الحرّيّة، وعندها تصبح

استفادتهم سلبيّة تعود بالوبال عليهم أوّلاً، وبالنتيجة على أولادهم والمجتمع كلّه.

وجدير بالذكر أنّ بعض السياسيّين، في بلد مثل أستراليا، لا مانع لديه من قيام التكتلات الإثنيّة الانعزاليّة، بل يشجّع عليها تحت شعار التعدديّة الثقافيّة التي تم استغلالها بصورة سيّئة من جميع الأطراف. والسبب في ذلك واضح جداً، ألا وهو أنّ بعض هؤلاء الساسة عنصريّ إلى درجة أنّه لا يريد للمهاجرين الجدد إحراز أي كسب ضمن المجتمع الأستراليّ الكبير، أي يفضّل أنْ تتقوقع تلك الفئات حتّى لو تمّ ذلك بمساعدتها بإعانات حكوميّة تدعم تكتلاتها الفئويّة، وهكذا تظهر الحكومة أنّها تحترم التعدديّة، وتتمتع باستقامة سياسيّة. وفي الوقت نفسه تقع الجاليات في الفخّ الذي نُصب لها فتقبل المنحة الماديّة المتواضعة، بينما تخسر الكنز الأكبر فيما لو أنّها سعت لتكون بمستوى بقيّة الطبقات الأستراليّة.

ولنعد إلى منطقة الشرق الأوسط، ولا أشكّ يا أستاذنا الكبير في أنك لو كنت حيّاً الآن لشاركتني الرأي أنّ مصلحة إسرائيل الكبرى قيام دويلات طائفيّة في المنطقة، وأنّ التطرف الذي تحاربه إسرائيل علناً هو ما تدعمه سراً، وأنّ إسرائيل تفوق بذكائها بوش وزبانيته الذين ارتضوا أنْ يكونوا دمى متحركة بين يديها، ولذلك تنصب الأفخاخ لفئات كثيرة، وتتبع أساليب غير مباشرة في ترسيخ وجود التطرّف الذي يؤدّي إلى شرذمة ما تبقى من المجتمع الإسلاميّ والعربيّ. ولأنّ شعوبنا تهتم بالشعائر التافهة، وتبتعد عن جوهر حضارتها، لن تستطيع إدراك موقفك هذا في فهم أفضليّة الغرب.

في كلامك دعوة مبطّنة لإعادة النظر، بل وإعمال العقل من جديد، والاجتهاد الذي نسيناه منذ قرون، كي نحرّر أنفسنا من أنفسنا. وإن كان لا بدّ أنْ ننعتق نحو التراث والماضي، فجدير بنا أنْ يكون انعتاقنا نحو السموّ الإنساني، لا نحو القشور التي نتخذها

اليوم كتعابير سياسيّة لنعوّض عن هزيمتنا الثقافيّة والسياسيّة والمدنيّة الفادحة أمام الغرب الذي خرّ يوماً عند أقدام صلاح الدين، فما كان منه سوى الرفعة والتسامح، حتّى ليشعر المرء أنّ المسيح تجسد فيه حبّاً وكرامة.

سيدني، 2006

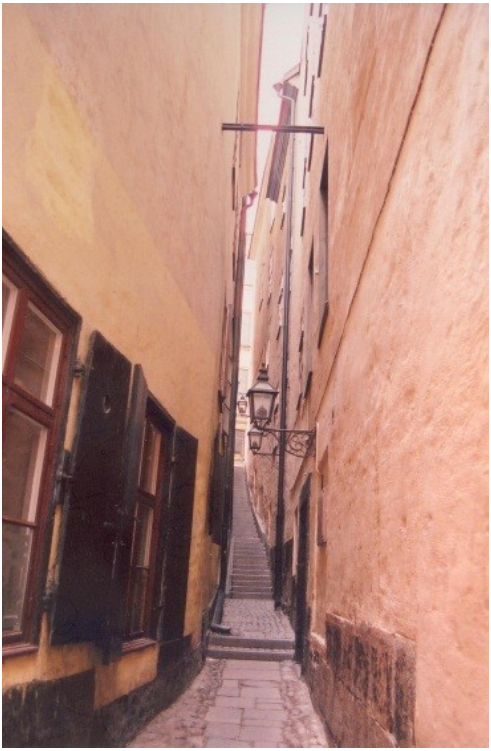

آه.. أبو زياد

عرفت عن بطرس العنداري (أبو زياد) قبل لقائه بسنين عديدة. كان ذلك في العام 1988، وأنا على وشك الهجرة إلى أستراليا. زوّدني الصحافي اللبنانيّ المعروف جهاد الزين ببطاقة شخصيّة عليها كلمات تعريف بي، وسألني أنْ أبرزها للأستاذ بطرس في أستراليا فهو من معارفه يوم كان بطرس في لبنان.

حضرنا إلى أستراليا، ملبورن أوّلاً لسنة ونيّف، ثم استقرّينا في سيدني بحكم عملي العلميّ، وما كنت حينها على معرفة أو اتصال فعليّ مع الجالية العربيّة، أمّا البطاقة فوجدت طريقها إلى سلّة المهملات قبل ذلك بكثير.

اجتمعت بأبي زياد صدفة في إحدى المكتبات، لكنّ لقاءنا العابر لم يثمر عن أيّ علاقة، إلى أنْ تكرر لقاؤنا من طريق أصدقاء مهتمين بالكتابة خصوصاً بعد أنْ كرّست أنا لذلك وقتاً أكثر، وبدأت بالنشر.

تعزّزت علاقتي مع بطرس من خلال دعمه المعنويّ والماديّ لمجلّة كلمات التي كنت أصدرها وأرأس تحريرها في سيدني، ونشأت بيننا علاقة عائليّة سمحت لي بغور أبعاد تلك الشخصيّة المعروفة من قبل أكثر العرب في أستراليا، لكنّني كنت من المحظوظين الذين ارتقت العلاقة بيني وبين هذه الشخصيّة الفذّة إلى درجة الصداقة العميقة في فترة قياسيّة بسيطة.

منذ يومين فقط قبل وفاته، اتصل بنا ليطمئنّ عن ابنتنا المقيمة في لندن، وقبلها بأيّام سبق له الاتصال لنفس الغرض، ومنذ أسابيع قليلة كان بطرس وشَريكَةُ عُمْرِه لمياء، وثلّةٌ من أصدقائنا المقربين، مجتمعين في دارنا نتشارك الشراب والطعام

والنقاش، كالعادة، في الأدب والفنّ والسياسة. ويمكنكم تخيّل روعة جلساتنا هذه، فهي بحضرة بطرس الذي قال مرّة: 'ولو خُيّرت بين متمسّك بعقيدة أكرهها، وبين تقيّ مجامل... لاخترت العلاقة مع الأوّل بسرعة.' وهو من قال أيضاً: 'إنّ العقل العربيّ هو عقل إلغائيّ لا يعترف بالآخر...' وفي موضع آخر قال: 'الأمّيّة في المفاهيم والممارسات، وليست بوجود نسبة كبيرة من جاهلي القراءة والكتابة...'

أفكار بطرس، وكلامه، ونبراته، وملامح وجهه، وتعليقاته، وابتسامته، لوحات معلقة في مهجتي تذكّرني بلوحاته التي صوّرها في كتابه "كي لا ننسى".

جمع بطرس الإنسان في ذاته بين البعد المنهجيّ والبعد الأخلاقيّ. كان مثابراً، متفهّماً للعمل المؤسّساتيّ ما نتج عنه تأسيسُه ومتابعتُه لبعض المشاريع الصحافيّة، ومواصلتُه الكتابة والمشاركة لآخر لحظة في حياته.

قال بطرس: '...فلو كنّا نملك الذهنيّة المؤسّساتيّة وأقدمت مجموعة متحضّرة على إنشاء دار صحافيّة تطلق صحيفة عربيّة يوميّة وأخرى أسبوعيّة باللغة الإنكليزيّة، واجتذبت

فقط نصف المبلغ الذي تدفعه الجالية بدل إعلانات، لنجحت بمهمّتها، وأحرزت ربحاً معقولاً، وأخرجت المعمعة الإعلاميّة إلى جوّ من الاستقرار والرقيّ، كم نحن بحاجة إليه.'

وتجلّت هذه المنهجيّة بتخطيها الأنانيّة الشخصيّة، ليستغلها بطرس في دعمه للآخرين أيماناً منه بأهمّيّة ما يقومون به، وبالتالي بالانعكاسات العمليّة لذلك على المصلحة العامّة للجاليّة ولأستراليا.

هذه المناقبيّة تجلت في أقواله وأفعاله، مثلاً قال مرة: 'ضعيف وجبان من لا يحاور ويناقش ويفتح صدره للجميع.' لم تكن لدى بطرس مركّبات نقص، وكان متواضعاً يقبل المناقشة والرأي الآخر، وهو من القلائل الذين يمكن لك أنْ تختلف معه مبدئيّاً دون أن يفسد ذلك ما بينك وبينه من مودّة. قال بطرس: 'إنّ بلوغ الدرجات الأولى من الرقيّ الحضاريّ يتأكّد بتعالي الإنسان عن الأنانيّة والحقد...'

وسبق أنْ نوّهت في كلمتي بمناسبة توقيع كتابه "كي لا ننسى"، منذ سنوات، أنّني أجد في بطرس قيمة مضافة هامّة، ألا وهي أنّه وإن كان بنظر الجميع علم من أعلام الجالية اللبنانيّة، ويحاولون تخصيصه بها، إلاّ أنّ منْ يتمعن في كتاباته وتصرّفاته يمكن أنْ يجد الكثير ممّا يبيّن أنّ بطرساً يتخطى ذلك إلى المرتبة الإنسانيّة الشاملة، فهو بذلك إنسان وأستراليّ بقدر ما هو لبناني. قال مثلاً: 'علينا نحن بناة التعدديّة الثقافيّة ودعاتها أنْ نفهم الفريق الرافض لمجتمع أستراليّ متعدّد الثقافات والعادات، وعلينا أنْ نفتح قلوبنا وعقولنا ونحاورهم مركّزين على أنّ الحضارة الأنكلوساكسونيّة هي الركيزة الأساسيّة للمجتمع الأستراليّ، والتعدديّة الثقافيّة قادرة على إغناء هذه الحضارة ومدّها بآفاق ومفاهيم جديدة.'

وقال مرّة: 'هل يجرؤ حاكم عربيّ على إقامة تمثال ليهودي منوهين أو لوالده في عاصمته؟ هل تجرؤ جامعة عربيّة

على دعوة نعوم تشومسكي ليقول رأيه أمام المثقفين والنخب؟ طبعاً لا.' من قول بطرس هذا، يتضح لنا السموّ الفكريّ الذي وصل إليه بطرس، فهو هنا يتحسّر على عدم دعم أمثال منوهين وتشومسكي، الاسمين اليهوديّين الكبيرين في عالم الموسيقا والألسن، صاحبَي المواقف المشرفة إنسانيّاً، والمناوئة للتصرّفات الصهيونيّة، ويقول تأكيداً: 'يطلب العرب عطفاً عالميّاً وتأييداً لقضاياهم، ونراهم يتهربون من احتضان أهمّ شخصيّات تخدم الحقيقة، وتسفّه الأكاذيب الصهيونيّة والأميركيّة.'

تطرّق بطرس في كتاباته إلى نفاق العرب، فقال مرّة: 'نتساءل: لماذا استجاب العرب الأشاوس – ومعظمهم من تنظيمات دينيّة متطرفة – لنداء الأفغان والأميركيّين، وتدربوا بإشراف جواسيس واشنطن، ولم نر واحداً منهم يتطوّع للقتال ضد الغزاة الصهاينة، حتّى لم يقترب هؤلاء إلى صفوف مقاتلي حزب الله الذين لم يتجاوز عددهم ألف رجل؟'

بدا بطرس لي أنّه يمضي حياته وهو يخطو دائماً في طريق النزاهة الفكريّة التي نستشفها من الأمثلة السابقة من كتاباته، لكنّني تلمّست فيه هذه النزاهة في معاملته وتصرّفاته على صعيد العلاقات مع من حوله.

كتابات بطرس وجلساته لا تخلو من الدعابة. مثلاً، في آخر عشاء حضره في منزلنا وقع الكأس من يده فاندلق النبيذ على شرشف الأغبانيّ الذي يغطي طاولة الطعام. سارع بطرس إلى الاعتذار من زوجتي، لكنّها أكدّت له أنّ هذا النوع من القماش يَنْظَف بمجرد غسله، ولا حاجة لقلقه. فأجابها إنّما تأسَّف على فقد النبيذ، وليس على الشرشف!

بطرس رجل عائلة وصداقة ومحبّة. وشعوري نحوه شعور أخ وصديق ومحبّ. لذلك ما إنْ رنّ هاتفي صباح الأحد السابع والعشرين من هذا الشهر، وجاءني صوت صديقنا المشترك طوني متهدّجاً يخبرني الحقيقة المُرّة أنّ بطرساً قضى نحبه الليلة

السابقة، حتّى أصابني جمود غريب. ما كنت قادراً على استحضار مشاعري لترقى إلى حجم هذا الموقف.

لا أبكي عليك يا بطرس، بل أحتفل أنّني حَظَيت يوماً بصداقتك.

أيار 2012

(بطرس عنداري 1938 – 2012)

التانغو الأزليّ

قالت زوجتي إنّها متعبة تلك الليلة، ولذلك لن ترافقني مباشرة إلى مقهى الفندق حيث كنّا هذا العام في رحلة استجمام على شاطئ البحر المتوسّط في جنوب الأندلس.

خلال الأيّام التي قضيناها هناك، كنّا كلّ ليلة نمضي بقيّة السهرة في مقهى الفندق الذي يقدّم برنامجاً موسيقيّاً راقصاً متنوعاً، يختلف موضوعه بين يوم وآخر، لكنّ المواضيع كلّها تحتفي بالغناء والرقص والموسيقا والمسرح، ثم تُترك الساحة للنزلاء ليمارسوا الرقص على مزاجهم على أنغام الفرقة الموسيقيّة الحيّة التي تبقى إلى ما بعد منتصف الليل.

تركتها على أمل أنْ تتبعني متى أخذت قسطها من الرّاحة بعد العشاء، وتوجّهت متتبّعاً آثار الموسيقا التي تنامت نغماتها الراقصة في جسدي مع اقترابي من حديقة المقهى حيث بدأت الطاولات باستقبال الساهرين، لكنّ الوقت كان لازال مبكراً، ولن تمتلئ الأماكن إلاّ بعد أكثر من نصف ساعة.

الطاولات اصطفت في جهات ثلاث، تشكّل أضلاع مستطيل حول باحة بمثابة مسرح في الهواء الطلق. ويمكن تصوّر أنّ الضلع الرابع الذي يُكمل هذا المستطيل هو خطّ وهميّ يصل بين بعض الشجيرات، ومدخل للراقصين، وبداية بار كبير إلى يمين المدخل.

ومع أنّني لمحت بعض رفاق الرحلة من العائلات مجتمعاً حول طاولة واحدة، آثرت أنْ أختار مكاناً آخر لأنّ زوجتي لم تكن معي بعد، ولأنّني بطبيعتي أحبّ أنْ أحتفظ لنفسي بخلوة تأمليّة خاصّة بادئ الأمر.

وجدت طاولة خالية في الصفّ الأماميّ للجانب المواجه

مباشرة لفسحة الرقص، وهو صفّ يتكون من طاولات أعدّت الواحدة منها لشخصين. ولحسن الحظّ أنّها كانت مجاورة مباشرة لطاولة في وسط الصفّ تماماً يرتادها يومياً رجل في السبعينيّات من عمره، وربّما يقترب من الثمانين، كنت أرقبه في الأيّام الماضية وأردت أنْ أعرفه أكثر، سواء بالتحدّث إليه أو على الأقل العيش مع تصرّفاته عن كثب.

كعادته كلّ ليلة، جلس وعلى طاولته زجاجة شراب وكأسان. يشرب من كأس، والكأس الآخر مملوء، لكنّ الكرسيّ الآخر خال، يلاصق الكرسيّ الخالي الذي أمام طاولتي، والذي أعلم أنّ شريكتي ستملأه في أيّ لحظة.

يمرّ أمامي أميركيّ وزوجته، تعرفنا إليهما أثناء الرحلة، فأطمئنهما أنّني سأنضّم إلى المجموعة حالما حضرت زوجتي. وحين يتّجه مع زوجته إلى حيث يجلس رفاق الرحلة، يكتشف أنّه بحاجة إلى المزيد من الكراسي فيأتي باتجاهي، لكنّ معرفته بإمكانيّة حضور زوجتي لتشاركني الجلسة جعلته يطلب من "جاري" السماح له بأخذ الكرسيّ إنْ لم يكن بحاجة إليه. وبصورة عفويّة، وكما يحدث في مثل هذه الحالات، سبق للأميركي أنْ وضع يده على الكرسيّ وهمّ بحمله في اللحظة نفسها التي كان يستأذن فيها، فما كان من العجوز إلاّ أنْ انتفض بعصبيّة وانحنى نحو الطاولة في حركة تنم عن محاولته مسك الكرسيّ، وقسمات وجهه تدل بوضوح أنّه لا يسمح للكرسيّ بمغادرة المكان. قلت للأميركيّ أنْ يأخذ الكرسيّ الذي أمامي، ففعل.

عاد الهدوء إلى وجه العجوز، واعتدل في جلسته معتمداً بمرفق ذراعه اليمنى على الطاولة، وطارحاً ذراعه اليسرى على كتف الكرسيّ الذي يجلس عليه، وبدأ يجول ببصره حول المكان استمتاعاً وتأمّلاً كما أوحت لي عيناه الثاقبتان كعيني صقر، لكنّ في حركاته وقار يدّل على أنّه بقايا مجد قديم، كما أنّ في هندامه ومظهره ما يعزز ذلك. شعر رأسه لا زال كثيفاً على الرّغم من مرور

السنين، لكنّ لونه الرماديّ الأبيض دليل قاطع على مرورها الذي ترك آثاره أيضاً على قسمات وجهه، وإنْ لا زالت تحتفظ بأناقة "الجنتلمان". هندامه أنيق ينمّ عن ذوق رفيع، على الرّغم من كونه مجرد "بلوزة" صيفيّة نصف كم، بألوان برتقاليّة وكحليّة أنيقة، وبلطال، وحذاء جلديّ مناسبين. الثياب ليست جديدة، ولكنّها بحالة جيّدة، ومن المحتمل أنّ قياسها الذي يبدو أنّه يزيد قليلاً عن قياسات العجوز الحقيقيّة، إنّما هو نتيجة خسارة العجوز بعض الوزن. لكنّ صحّة العجوز بخير.

تتوقف الموسيقا لحظات... ثم تدّوي إيذاناً ببدء استعراض الليلة، معوّلة على لحن "غرانادا" الشهير، حين تدخل إلى الحلبة ثلاث راقصات فلامينغو بفساتين خمريّة اللون، وبعد فترة من الغنج والدلال، يدخل نجم الليلة الراقص بقوّة: رجل وسيم، ممشوق القامة، أسمر البشرة، أسود الثياب، تشعّ إسبانيا كلّها من قسماته العنيدة، وتعابيره الفتّاكة، فهل هو المصارع أم الثور أم الفرس؟ يصعب تمييز ما كنت أرى، وقد فعلت الموسيقا في النفس فعل الخمرة، وكان تناسق الرقص مع الطرب والحركات والقسمات ينقل إلى الفؤاد مشاهد متتابعة تزيد من الأشواق وتلهب الذكريات.

جاري العجوز يتأمّل. أصابعه تنقر على الطاولة. قدماه ترقصان دون أنْ تغادرا مكانهما. في وجهه تحفّز وقلق، وثمّة سنون من اللوحات المتلاحقة. ينظر بين الحين والآخر إلى الكرسيّ الخالي أمامه. يرفع نظره فتقع عيناه على عيني، ثم يشيح ببصره نحو الراقصين ثانية.

تأتي زوجتي، على وجهها ابتسامة ارتباك، وهي تشقّ طريقها بين الطاولات لتصل إليّ. أتذكّر أنّه لا يوجد على طاولتي كرسيّ لها، أهبّ كالمجنون، وهي تحاول البدء باستئذان جاري لأخذ كرسيّه الخالي، فأقول لها بالعربيّة بنبرة سريعة: 'دعيه... دعيه... هاك... هاك...' وأكون قد التقطت بسرعة البرق كرسيّاً من طاولة ورائي، بعد استئذان أسرع. أحسست أنّ جاري ارتاح لتداركي الأمر، ورأيت

أنّ أساريره انفرجت بشكل ملحوظ.

جلستْ قبالتي، فصارت بيني وبين جاري، ما فسح لي المجال أنْ أراقبه أكثر بحجّة أنّني أنظر إليها بشكل طبيعي. خبّرتها عما حدث حين حاول الأميركيّ أخذ الكرسيّ الذي وراءها، فأجابتني دون اكتراث أنّ جارنا العجوز رجل غريب الأطوار، وذكّرتني بتصرّفاته اليوميّة، ثم قالت متهكّمة: 'يبدو أنّ الليلة حافلة، لنر ما سيقوم به، خصوصاً أنّه لا زال شغلك الشاغل منذ وطئنا هذا المكان.'

أنهى نجم الليلة الشابّ استعراضه، ليبدأ الحفل بالهبوط من الأوج الذي عرج إليه المشاهدون انجذاباً فامتلأت شحناتهم حدّ الحاجة إلى التفجير، وصاروا على استعداد لبلوغ ذروتهم الخاصّة، بعد أنْ بلغها راقص الفلامينغو نيابة عنهم. لكنّ قلّة منهم ستجرؤ على الدخول إلى المسرح مباشرة، عدا العجوز الذي ما كان لينتظر انتهاء الحفل وخروج الراقصات، بل اندفع كعادته كلّ ليلة إلى شغل زاوية يرقص فيها بمهارة وثبات يدعوان إلى الإعجاب، وكأنّه في منافسة مع المحترفين والمحترفات من الراقصين والراقصات، الذين لم يمانعوا وجوده على الحلبة قبل مغادرتهم.

كان رقصه يتركّز على "المراقصة"، فحركات جسمه ويديه توحي أنّه يراقص سيّدة بين يديه. المشهد الذي يوحيه أصيل لدرجة أنّه يمكن تصوّره وكأنّه لقطة سينمائيّة أصلها رجل وامرأة يرقصان، لكنّ عامل المونتاج قام بإخفاء الراقصة وترك الراقص.

كان يستمرّ في رقصه كذلك حتّى تغادر الفرقة المسرح تماماً، وهذا أمر قد يستمر أكثر من نصف الساعة، دون أنْ يتقدم أيّ من الساهرين إلى الحلبة للرقص. لكنْ في تلك الليلة، قرّرت السيّدة الأميركيّة (رفيقتنا في الرحلة)، وهي سيّدة في الستينيّات من عمرها، من أصول جنوب أميركيّة، وبارعة في رقص التانغو ومشتقاته، أنْ لا تنتظر مغادرة الراقصين، أو أنْ تعتمد على زوجها الذي لا يحبّ الرقص، بل أنْ تُجامل هذا العجوز البارع الذي ربّما كان متعطشاً لرفيقة له في الرقص. اتجهتْ إلى الحلبة وبدأت

الرقص متدرّجة نحو صاحبنا العجوز الذي لا شكّ فوجئ بهذه المبادرة، لكنّه تماسك مواصلاً رقصه، وجاملها قليلاً بالمكوث إلى جانبها، دون أنْ يتخلى عن رفيقته الوهميّة، وسرعان ما تدرّج بعيداً كأنّه يقول دعوني وشأني.

شعرتُ بارتياح كبير لكياسة وذوق السيّدة الأميركيّة، في محاولتها مشاركة هذا الرجل بعض هواياته، ولم أستطع الشعور بالنقمة عليه لأنّه لم يستجب لتلك الكياسة. شيء ما في تصرّفاته كان يبرّر له ما يفعله. أو هكذا أقنعنا أنفسنا. بل إنّ براعته المتناهية، وعدم محاولته التدخل في شؤون الآخرين أو استغلالهم، تُضاف إلى مبرّرات الشفاعة له.

اندفعتُ نحو السيّدة الأميركيّة وراقصتها وشكرتها على كياستها وحكمتها، فواصلت ابتسامة ما غادرت شفتيها منذ ابتداء المساء. لم نكن بحاجة لمناقشة أمر الرجل، والتساؤل عن مسببات تصرّفاته. هل كان في يوم من الأيّام راقصاً شهيراً؟ هل كانت له رفيقة عزيزة فقدها، ولا زال يعاني من هذا الفراق، أم أنّه يحتفي كلّ يوم بحبّها على الرّغم من غيابها الجسدي؟ هل يحتفي بوجوده؟ بمشاعره؟ مهما كان الجواب، لا أعتقد أنّ أحداً يشكّ في صدق هذا الرجل. حركاته لا تزييف فيها. أوهام؟ وما يهم إنْ كان الوهم حقيقته الكاملة؟

عاد الرجل إلى طاولته بعد ليلة حافلة، كان فيها نجماً لا يقل أهمّيّة عن النجم الذي أتوا به ليحيي الحفلة.

بعد أنْ بدأت الليلة تقترب من الانتهاء، كما توحي به مغادرة بعض الساهرين المكان، وتوقّف الفرقة الموسيقيّة، واستبدالها بموسيقا مُسَجّلة، دخل المكان راقص الفلامينغو، وعبر الحلبة التي خلت سوى من أزواج قليلة من الراقصين والراقصات، متّجهاً نحو العجوز، ولما صار قرب الطاولة انحنى له محيّياً باحترام بليغ، فتبادلا بعض الكلمات بالإسبانيّة. حين مدّ الراقص يده ليصافح العجوز مودّعاً، وقف العجوز وربت على كتف الراقص الذي

انحنى ثانية بتواضع كبير، وغادر.

جلس العجوز على طاولته يشرب من كأسه وأمامه كأس آخر ما مسّته شفة ملتهبة، وكرسيّ ما احتضن جسد امرأة دافئ، لكنّه كان يواصل الرقص في كلّ نبضة من نبضاته.

الأندلس، 2004

القَمَر . . أُغنيَة إلى الأبد

هل القمر ذكر أم أنثى؟

يناجي الحبيب حبيبته، فيراها كالقمر. وتناجي الحبيبة حبيبها، فتراه كالقمر. ومعلوم أنّه في التراث الأدبيّ العربيّ، يمكن استخدام ألفاظ الذكورة في وصف الحبيبة تحبباً، أو لضرورة الشعر! لكنّ المعلوم أيضاً أنّ القمر لفظ مذكّر لغويّاً. هذا في اللغة العربيّة. أمّا في اللغة الإنكليزيّة، فعلى الرّغم من أنّ كلمةً مثل "القمر" لا تخضع للتذكير أو التأنيث من الناحية اللغويّة، لأنّها مع كلّ أسماء "الأشياء" تنتمي إلى فئة خاصّة يستعمل لها ضمير خاصّ لايدل على تذكير أو تأنيث، فإنّ الشعراء مثلاً حين يشيرون إلى القمر يستخدمون ضمير المؤنث. القمر في الإنكليزيّة مؤنث، وهذا خلاف العربيّة. (الشمس في العربيّة مؤنث، بينما في الإنكليزيّة مذكّر.)

والجدل القمريّ لا يتوقّف عند الاستهلاك اللغويّ، والانبهار بالقمر لا يقتصر على الناحية الجماليّة الرومنسيّة، ولا على الناحية الهندسيّة العلميّة التي أوصلتنا إلى سطحه. ونريد فيما يلي استعراض لمحات من الذهنيّة الغربيّة حول القمر.

كتبت آنجي شوفون[2] في هذا المجال أنّ شعبيّة القمر لدى الفنّانين لا تعود فقط لجماله (أو جمالها) الغريب، بل أيضاً لما يشاع حوله من حكايا حول تدخّله العابث في حياة البشر، الذي

---

[2] الملحق الثقافي لصحيفة "سيدني مورنينغ هيرالد"، 27-28 آذار/مارس 2004، ص16.

يمكن أنْ يكون قاتلاً في بعض الأحيان. ’وجودها في سماء الليل لا يجعلها شاهداً فقط، بل شريكاً في جنون النشاطات الليليّة.‘

في إحدى قصائد سيلفيا بلاث، يُعطى القمر صورة الوحدة، والذنب، والاكتئاب القَلِق. وفي مسرحيّة شكسبير "حلم ليلة في منتصف الصيف" للقمر وجود دائم، يكون فيه شاهداً على عبث البشر. جاء على لسان "تاتيانا": ’يبدو لي أنّ القمر تنظر بعين دامعة؛ وعندما تبكي، تفيض دموعها بكلّ زهرة صغيرة.‘

تتحدث آنا فينبرغ في روايتها "ضوء مستعار" (1999) كيف تشبّه "كاليستو" نفسها بالقمر: ’تتأمّل في حياة القمر. تتبع مسار كوكب، كأنّها كلب برَسَن؛ المدار القديم نفسه، الجوار المألوف نفسه. تمشي وتلتقط أشعّة الضوء كأنّها عظام رمتها النجوم. أنا قمر.‘

تعرّض عدد كبير من الأغاني الغربيّة إلى فكرة غرابة القمر وعبثه وجماله. فهناك أغنية عن "القمر القاتل"، وأخرى عن "القمر الورديّ" الذي سينال من الجميع. وتقول كلمات أغنية "شروق القمر الشرّير" التي انتشرت عام 1969: ’لا تتجول في هذه الليلة / لأنّها ليلة ستودي بحياتك / فهناك قمر شرّير يطلع.‘

لكنّ أغاني الحب المتعلّقة بالقمر لا حصر لها. فهذا "فرانك سيناترا" يطير إلى القمر بسبب قبلة (1964)، و"سافيج غاردن" مستعد للطيران إلى القمر والرجوع، إذا ما وافقت الحبيبة على أنْ تكون له (1997). أمّا "فان موريسون" فيتحدث عن "رقصة القمر" في ليلة ’تكون فيها نجوم العلياء في عينيكِ‘ (1970).

وتضيف آنجي شوفون، أنّ أروع أغاني الحب المتعلقة بالقمر هي أغنية "نهر القمر" كما أدّتها أودري هيبورن في فيلم "ترويقة عند تيفاني"، والأغنية في الأصل من أعمال هنري مانسيني وجوني ميرسر.

ونهجت بعض الأفلام السينمائيّة منهجاً مماثلاً للأغاني، كفيلم "المستذئب الأميركيّ في لندن"، من إنتاج عام 1981، وفيه نجد العلاقة واضحة بين القمر والاستذئاب. وشبيه بذلك فيلم جاك نيكلسون "الذئب"، عام 1994، والذئب هنا الإنسان المستذئب، الذي يرتكب الجرائم بتأثير البدر الساطع.

وعلى صعيد آخر يذكرنا فيلم "أبولو 13" (1995) بالجهد الذي يبذله البعض لغزو القمر، واكتشاف أسراره. والواقع أنّ غزو القمر خلق معضلة نفسيّة لدى الذاكرة البشريّة التي تعودت فيما سبق الغزو أنْ تحمل الوجه الرومنسيّ الغريب للقمر. لكنّ هذه الصورة تشوهت في أذهان البعض بعد الغزو القمريّ. وعلى الرّغم من ذلك رأى البعض الآخر أنّ القمر سيبقى محتفظاً بجلاله وجماله إلى الأبد رغم المخاوف، وليس أجمل دلالة على ذلك من قصيدة الشاعرة الصحافيّة الأستراليّة (النيوزلنديّة المولد) إليزابيث ريدل، والتي قمنا بترجمتها ونشرها،[3] ونوردها هنا:

بعد لونيك-2

كأنّها انعتاق من الحبّ، خضّة حزنٍ
ألمٌ معلومٌ، قلقٌ، وأسف
كما في نهاية الصيف، ريشة متألقةٌ
مرميّة على العشب بعد رفرفة الطيور.

نوعٌ من قسوةٍ، وبعضُ عذاب
رعْدَةٌ في الأوصال، لكنْ
طفا القمر الصافي وُريقةً تلك الليلة

---

[3] رغيد النحّاس 1999. همسات الجنوب البعيد، ترجمة لمختارات من الشعر الأستراليّ. دار الأبجديّة، دمشق. بدعم من المجلس الأستراليّ للآداب والفنون.

رطباً، شاحباً، مألوف التقاسيم
ناصعاً بين نجومه والغيوم.

على خدّه ما كانت وقاحة السهم علامة،
وما كشفت جرحه دمعة أو قبلة قرمزيّة،
بل عبَرَ تخومَه المظلمة
إلى هاوية النهار الخضراء العميقة،
ترافقه مخاوفي وأحزاني إلى كهوف النوم.

هذه القصيدة تركت أعمق الأثر في نفسي نتيجة لواقعيّتها الممزوجة مع منتهى الرومنسيّة، وحين قرأتها وقمت بترجمتها كانت القشعريرة لا تغادر أعمق مسابر أحاسيسي، وذكّرتني بوضع شبيه في تأثيره، حين كنت ليلة على مدرج بعلبك في لبنان أشاهد أعمالاً للرائعة فيروز والرحابنة العظماء. فجأة توقف كلّ شيء، وانطفأت الأنوار. سكون باهر خيّم على المكان. وبعد لحظات انطلق صوت فيروز لوحده أوّلاً، ثمّ تبعته الموسيقا: 'نحنا والقمر جيران...' كان القمر بدراً ساطعاً فوقنا يغسّلنا بضوئه الممزوج مع عطر الصوت الفيروزي.

لكلّ ساقِطَة لاقِطَة

نعمد كلّ صباح، قبل ذهابنا إلى العمل، إلى ترك كميّة من بذور "عبّاد الشمس"، وفي حديث آخر "دوّار القمر"، كوجبة يوميّة داعمة للطيور التي تزور حديقتنا، والتي يمكن القول إنّها صارت من أهل البيت، طالما أنّها تنقر أحياناً على النوافذ بمجرّد أنْ نكشف الستائر، ويظهر نشاطنا.

وهكذا تبدأ المنافسة على الطعام على الرّغم من وفرته فتنشأ حرب يوميّة بين فصائل الببغاوات المختلفة، وبالتحديد بين نوعين: "لوريكيت" و"روزيلا"، تكون الغلبة دائماً للوريكيت التي تنعتها زوجتي أنّها أبناء عمومتنا لما تتحلّى به من أنانيّة وقوة، وحتّى ضمن فصيلها الواحد، تقوم حرب طاحنة ينتصر فيها واحد أو اثنان، بينما ينتظرهما الآخرون للتناوب على اختطاف ما تبقّى. ويالـه من مشهد! ببغاوان من اللوريكيت "يفصصان" البذر ببراعة، وعدد آخر ينتظر على أغصان قريبة جداً، بينما أفراد فصيل الروزيلا تنتظر على مسافة أبعد بكثير، أو أنّها تغادر لتعود بعد فترة.

وهناك فصيل "السلام"، طائر "الحمام"، فعلى الرّغم من أنّه لا يحارب، لكنّه لا يخسر كثيراً، بل يوظّف تقانة مختلفة: يمشي على الأرض مقترباً تحت ساحة المعركة ليلتقط ما يتساقط من علٍ خارج أطراف الصحن الذي دبت فيه أقدام أصحاب المأدبة، ورفرفت فوقه أجنحتهم، وهم يحاولون طرد الآخرين، أو التمسّك بالمزيّة التي سعوا لها.

أذكر في إحدى عطلنا الأسبوعيّة، حين كنا نتناول إفطارنا في الحديقة، ونحن نكتشف هذه المشاهد، كيف تألّقت عينا زوجتي حبوراً، وتندّرت ضاحكة: "فعلاً، لكلّ ساقطة لاقطة!"

استحضرت هذه المشاهد حين أعلنت البلديّة هذا العام عن أوّل موعد من اثنين تقوم فيهما بالتقاط ما يتركه السكّان على قارعة الطريق من الأدوات المنزليّة والأثاث التي قرروا التخلص منها. ويكون هذا في أحد الأسابيع تبدأ بيوم أحد، فيكرّس المواطنون عطلة نهاية الأسبوع تلك لتحضير ما يستغنون عنه، وترتيبه أمام منازلهم. تبدأ القطع الفائضة بالظهور أمام المنازل تدريجياً لتتراكم، لكنّ بعضها يختفي بمجرّد ظهوره لأنّ حافلات مواطنين آخرين تبدأ بالتجول في الحيّ المعنيّ بغية التقاط ما يمكن أنْ يكون ذا منفعة،

خصوصاً تلك الأدوات التي يمكن إعادة إصلاحها، أو الأثاث الذي لازال بالإمكان استعماله، إنْ لم يكن في مكانه الأصليّ في غرف المنزل فربّما في المرآب، وهكذا. ولعلّ أهمّ من يجول في التقاط بعض هذه المخلّفات، المشتغلون ببيع الأثاث، أو الأدوات المستعملة، يأخذونها مجّاناً فيصلحونها، أو ينظّفونها، ثم يبيعونها.

تركنا على قارعة الطريق عدداً من الأشياء التي ما عادت تلزمنا. اختفى بعضها خلال ساعة، وبقي بعضها بما في ذلك شاشة

جهاز حاسوب من النوع القديم، غير المسطح، لازالت تعمل كأنّها جديدة، ولذلك تركنا معها السلك المناسب لتوصيلها بالحاسوب أملاً في أنْ يأخذها من هو بحاجة إليها، فيشغّلها دونما كلفة أو عناء.

اختفت بقيّة الأشياء قبل غياب الشمس، لكنّني رأيت من النافذة أنّ تلك الشاشة لازالت على الأرض. لم نتعجب كثيراً، ففي مجتمعنا الاستهلاكي هذا يسعى الناس إلى ما هو جديد، خصوصاً ما يتعلق بالإلكترونيّات، وحتّى لو حوى داخل الجهاز قطع غيار يمكن الإفادة منها، فتكاليف العمل هنا أكبر من تكاليف القطع الجديدة، خصوصاً بعد اكتساح المنتجات الصينيّة السوق.

أثناء خروجنا للتمشّي تلك الأمسية، انتبهت إلى أنّ السلك قد اختفى، بينما الشاشة لازالت هناك. تأثّرت لذلك لمعرفتي أنّ هذا النوع من الأسلاك أكثر قيمة من تلك الشاشة القديمة التصميم، والتي لن تصلح من دون السلك. لكنْ لاشكّ أنّ الذي أخذ السلك يعلم ما كان يفعل، كاللص الذي يلتقط الجواهر ويترك البرّاد أو الغسّالة. أمّا سبب تأثري، فهو من سيأخذ الشاشة من دون سلك. حين عبّرت عن ذلك أمام زوجتي قالت: ’لا تثريب عليك، لا بدّ للشاشة أنْ تختفي أيضاً. تذكّر: لكلّ ساقطة لاقطة!‘ وضحكنا ’ضحك طفلين معاً‘، ومشينا.

سيدني، 2008

فليمِنْغتُن ماركِت

كثير من اللوحات الفنيّة يجذب المتفرجين لجمال في الشكل أو لعمق في الموضوع، وكثير من الأحداث اليوميّة يصلح ليكون موضوعاً ناجحاً للوحة جميلة. وهنا أطرح السؤال التالي: كم لوحة من تلك اللوحات تمنّى المتفرج أنْ يكون هو عنصراً فيها؟

أعتقد أنّ سوق سيدني الشعبي الشهير المعروف بسوق "فليمنغتن"، الذي يكتظ أيّام السبت بالباعة والمشترين الذين يتداولون الخضر والفاكهة والأسماك ومتفرقات أخرى، يصلح لإبداع مئات اللوحات.

وسؤالي الثاني: هل أريد التفرّج، أم أريد أنْ أكون داخل اللوحة، أم الاثنين معاً؟ أم تراني أحاول الرسم؟

السوق يطفح بأشكال وألوان ما تشتهيه النفس، وما يحتمله الجيب في هذه الأيّام العسيرة من تسعينيات القرن العشرين، لما فيها من كثرة البطالة، وقلّة الدخل. ويعجّ السوق بصنوف البشر من تلك الأعراق والشعوب المختلفة التي تشكل المجتمع الأستراليّ المتعدّد الثقافات. الجولة في أرجاء هذا السوق رحلة أمميّة مختصرة، لكنّها مليئة بالبهلوانيات.

الخطوة الأولى تبدأ بعد أنْ يجد المرء مكاناً لإيقاف السيّارة. وبما أنّني لا أجد مانعاً من المسير قليلاً، أوقف سيّارتي عند أوّل مكان أجده حتّى لو ابتعد عن مركز السوق قليلاً. أبدأ بالمسير نحو السوق، فتصادفني حارات مليئة بالسيّارات عليّ تجاوزها، وعلى الرّغم من استعمالي الأماكن المخصصة لعبور المشاة، لا بدّ من وجود سائقين حملوا معهم عادات بلادهم الأصل، فلا يتقيّدون بقواعد المرور، وبذلك يعرّضون حياة المارّة للخطر.

أضف إلى ذلك عرقلة السير الناتجة عن التسابق على صف السيّارات في أماكن معينة، والخلافات الحادة التي تنجم عن ذلك، فتسمع الشتم المتبادل بلهجة مألوفة مفهومة أحياناً، وغير مفهومة أحياناً أخرى. هكذا يبدأ النهار.

أدخل حرم السوق فتطالعني أمواج البشر، ولا يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتّى أستنتج أنّ عليّ السباحة عكس التيار في

أيّ اتجاه اعتمدت، أو أيّ أعماق قصدت، والناس حولي كأسماك القرش تنهش من لحمي ومن كرامتي. فهذا قدمٌ يدوس على قدمي، وتلك عربة تدكّ أوصالي دكاً. لفافة تبغ تحرق ساعدي، دخانها يتسرّب إلى رئتي، رمادها يهطل على رقبتي. هذا طفل يعلق بين ساقيّ، وتلك سيّدة تصفع وجهي غلطاً، لأنّها كانت تخاطب صاحبها بالإشارة.

كلّ هذا وما سمعت كلمة اعتذار واحدة، ولهذا بدأت أشكّ بتصرّفاتي، أو على الأقل بسلامة مداركي وردود فعلي، خصوصاً

أنّني كنت أنا أعتذر من أولئك الذين أصطدم بهم. كلّ هذا وما مضى على وجودي داخل السوق سوى ربع الساعة.

أتوجّه إلى قسم الأسماك، لكنّ المشكلة هناك أعظم! الازدحام أشدّ والناس تتجمّع حول الباعة دون ترك المجال للآخرين. أدفع وأدافع، وأصل بجهد جهيد إلى غايتي. أشتري الأسماك وأعود محاولاً شراء بعض الفاكهة حتّى "يحرز المشوار". وهنا تطالعني مشكلة جديدة: الحرب بين البائع والشاري. لا بدّ من "المفاصلة" في الأسعار لأنّ الأسعار المدونة لا يتقيّد الباعة فيها، وهذا نقيض الوضع العامّ في أستراليا. لكنْ على الأقل هناك تسعيرة يمكن الرجوع إليها، عدا حالة واحدة أصادفها كلما كنت هناك. بائع برتقال لا يضع أيّ تسعيرة، تبين لي من ملاحظته أنّه يغير سعر الصندوق بمقدار عدد من الدولارات حسب شكل أو جنس الزبون. ولست بحاجة لأفصح لكم عن أصل هذا المواطن الشاطر. المهمّ أنّني تلافيت هذا البائع، وحاولت حمل ما أمكن من حاجياتي، وبدأت رحلة العودة إلى سيارتي.

أتى المشترون إلى السوق مثلما هي حالهم حين يذهبون في نزهة إلى الحدائق العامّة؛ عائلات بأكملها: الأب والأمّ وما تيسر لهما من أبناء كبار، ومراهقين صغار، ورضّع على السواعد أو في عربات. الجدّ والجدّة والعمّ والعمّة والخال والخالة، وما لحق ذلك وما تبع. فهذا أبو فلان يمشي مرحاً يفصّص البذر ويتّف القشر على من حوله وعلى الأرض، والابتسامة لا تفارق وجهه. وهذه أمّ فلان وقفت تقطع الطريق وهي ترعى شؤون رضيعها. وهذا رجل يبصق على الأرض، ثم يمسح فمه بكمّ قميصه. وهذا صبيّ يدفع عربة التسوّق بسرعة جنونيّة مصدراً أصواتاً يقلّد فيها سيّارة أبيه مثقوبة العادم. والآن مفاجأة المفاجآت: صبيّة في العشرينيّات من عمرها تختال في حلّة من النوع الذي يصلح للسهرات الليليّة. هل ضلّت الطريق واختلط عليها الليل والنهار؟ هل تبحث عن عريس في سوق الخضار؟

الباعة أتوا إلى السوق وكأنّهم لازالوا في الفراش. أكثرهم لم يحلق أو يعتن بهندامه أو مظهره، على الرّغم من أهمّيّة ذلك في مهنة تتعاطى الغذاء والتعامل مع الناس.

أضع مشترياتي في صندوق سيّارتي، وأنظر إلى ثيابي التي صارت بحاجة للغسيل والكيّ، لكنّي أدخل السيّارة مع شعوري بانزياح مشكلة عن صدري.

لو عدت مرّة أخرى، فسأعود بلباس الميدان.

سيدني، 1994

أُرْجُوحَة

يتمشّى كعادته، منذ تقاعده، في حديقة عامّة تظلّلها أشجار الاغتراب الجغرافيّ والفكريّ، اغتراب فرضه على نفسه منذ ثلاثين عاماً حين ترك التدريس في مدرسة القرية في لبنان، وأتى إلى حافّة المعمورة قاصداً مواسم الحرّيّة والتغيير، لأنّه ظنّ أنّ بقاءه هناك أشدّ أنواع الاغتراب نجاسة: اغتراب في الوطن.

أفكار كثيرة تتراقص في رأسه حتّى تصوّر أنّ دماغه قطعة لزجة مرميّة على أرجوحة طفل، تروح أمام ناظريه ذات اليمين وذات اليسار دون وجود من يهزّها. رغم الاهتزاز، ظلّت الصور الذهنيّة تأتي إليه واضحة، تعيد إليه ذكريات أيّام خالية، ومشاهد مواقف غيّرت حياته.

وضوح الصور يزداد، بل إنّها أشدّ وضوحاً في بصيرته الآن من أي وقت مضى. فجأة أحسّ أنّه الآن يعلم كلّ شيء عن نفسه، عن كلّ أموره التي أمضى حياته يجهلها أو يتجاهلها. بدأ يحكي لغة "لو": لو أنّي فعلت كذا، لكان كذا!

لو أنّه كذّب قليلاً، لصدّقوه كثيراً. لو أنّه ردّد مع عشيرته حِكَمها ومواعظها، وهتف شعاراتها، وحافظ على تقاليدها، لكان من الوجهاء المقربين. لو أنّه بالغ في مدح الأولياء والصالحين، لظهر على أنّه من المتّقين. لو أنّه وافق على آراء الآخرين، لكان من الملتزمين. لو أنّه كان ببغاءً في حديقة المدجلين، لما نتف ريشه المنافقون. لو أنّه كان مرائياً، لصار ممثلاً دون أنْ ينتمي إلى نقابة الفنّانين. لو قبل خمس ليرات ثمن صوته الانتخابيّ، لوضعوه على لائحة المحبين.

التجارة في ذلك المجتمع شطارة، لكنّه رجل ذو حضارة. فشلت تجارته وقلّت باراته. ما استطاع التلاعب بمصير التلاميذ الذين تهافتوا على الدروس الخصوصيّة، رغم فقر حالهم، فكان يعطيهم الدروس بالمجّان، أو بأبخس الأثمان، احتراماً للقمة العيش التي يكدح لها أباؤهم.

لو أنّه فعل كلّ ذلك لربّما استقر به الأمر في قريته اللبنانيّة. لكنْ باختصار، وبذلك المعيار: صاحبنا فاشل. ليركب إذاً رياح السفر، وما همّه إنْ رمته على الحافّة البعيدة؟ جنّة على شفير الهاوية، أفضل من جهنم في مستقر الوادي.

ما إنْ وطئ أرض المهجر حتّى توضّحت له حقيقة مريعة: أبناء قومه هنا نقلوا معهم مشاكلهم وعقدهم النفسيّة، وكلّ بهلوانياتهم الفكريّة وغير الفكريّة. ما اختاروا من مجتمعهم الجديد سوى سيّء العادات الأستراليّة. تجاهلوا إيجابيّات الوطن الجديد، وما فهموا سوى الماديّ منها الذي يضيف إلى أنانيّاتهم ومصالحهم الشخصيّة. هاهم يأكلون من خيرات هذا البلد، يتمتعون بجمال طبيعته، يتنشقون نسائم حرّيته العليلة، ويقبلون راتب البطالة (على الرّغم من أعمالهم وصفقاتهم المتفرقة التي تنجو من ضرائب الدولة)، وما فتئوا يشتمون هذا البلد، ويترحمون على أيّام الوطن الأمّ.

يا ضيعة الكدّ والتعب! لقد أفنى حياته المهجريّة في التدريس أيضاً، والعمل الطويل لمصلحة جاليته، فكانت مكاسبه الماديّة لا تجاري مكاسب أيّ من أولئك العاطلين عن العمل الذين يقبضون راتب الدولة ويلعنون أستراليا مع كلّ سَنْت يكسبون. يا حسرة الخلق الكريم! هنا أيضاً كان عليه مجاراة بعضهم ليكون له شأن بين أبناء جاليته. وحتّى لو قبل المجاراة، من يجاري؟ جمعيّة الشارع الفلاني "الفوقا"، أم جمعيّة الشارع نفسه "التحتا"؟ رابطة الحزب الفلاني، أم رابطة الحزب نفسه التابعة لتنظيم ثان؟ أيّ جمعيّة دينيّة يختار من عشرات الجمعيّات التي تدّعي

الدين الفلاني نفسه؟ أيّ دعوة إلى العشاء يلبي؟ أعشاء دعى إليه فلان، أم عشاء دعت إليه زوجة الفلان نفسه في مكان آخر؟

يا حسرة على الديمقراطيّة! هل هي كثرة الفئات وكثرة المعارضة؟ هل هذه هي الحرّيّة؟ فوضى؟ هل هذا ما اغتنمناه من مناخ السياسة الأستراليّة؟ وإذا كنّا ندّعي الكبت في الوطن الأمّ، لماذا نحمل الإسار معنا إلى الوطن الجديد حتّى أصبحنا لا ننعم سوى بحرّيّة الخلاف والتشتت وتنغيص العيش؟

ويضحك بصوت مرتفع مقاطعاً نفسه فجأة. يتذكر مقالة قرأها في جريدة عربيّة كتبها جان صالح بعنوان "ماركة شاعر ورتبة دكتور" حول أولئك الذين يدّعون الشعر وماهم بشعراء، والذين يعطون أنفسهم ألقاباً لا يستحقونها. نعم، نعم، صدقت يا جان، ولك الحقّ فيما تقول. هذه من أخطر مشاكل العقل العربيّ. كلّ فرد يريد أنْ يكون ما لا يستحق. يكفي أنْ يقنع الفرد نفسه أنّه أفضل البشر لينصّب نفسه زعيماً عليهم بأيّ وسيلة كانت. لا قيمة للمعايير الموضوعيّة. ليته يعرف جان صالح ليخبره أنّ هناك ماركة أخطر من ماركة شاعر، ورتبة أخطر من رتبة دكتور: ماركة ورتبة "المؤسّسة العالميّة". يبدو أنّ "الموضة" أنْ يجتمع عدد من الأفراد ويؤسّسوا ما تيسر لهم من المؤسّسات التي تغدق ماركات ورتب وجوائز على من تشاء من البشر. خطر الجماعة أكبر من خطر الفرد. الفرد يُكتشف بسهولة، أمّا الجماعة قد تكون قادرة على غسل الأدمغة تحت غطاء الشرعيّة المزيّفة التي تكتسبها لنفسها تحت إطار "التنظيم" الذي تتبناه. التضليل في هذه الحال أكثر سهولة.

آه لو أنّه صفّ الكلام صفاً، حتّى كتب ما يكفي لملء كتاب من الحجم الصغير، ثم طبع عدداً من النسخ فوزّعها هنا وهناك وقال للناس إنّه شاعر، لربما صدّقوه دون قراءة كلامه. ولو أنّه كتب كتاباً مدح فيه شخصيّة عظيمة، خصوصاً إذا كانت شخصيّة يدين لها ملايين البشر بالولاء، لما تجرأ أحد على نقده

مهما كان مستوى كلامه، لأنّ الملايين صارت بصفّه دون قراءة الكتاب. العنوان يكفي!

أما كان بإمكانه أنْ يكون كلباً من كلاب السلطة، أو تابعاً ذليلاً لأيّ ميليشيا أو حزب يدفع الثمن المناسب؟ عندها سيقبض كثيراً من الحوافز، لأنّه سينبح بأعلى صوته كلّما تفوّه إنسان بآهة حب، وكلّما عرّضت صبيّة صدرها لأشعة الشمس، وكلّما سجّل مواطن اعتراضاً على سوء المعاملة، وكلّما قامت فئة بنقد بنّاء، أو حتّى كلّما امتنعت فئة عن التطبيل والتزمير لمصلحة الجهة التي يعمل لها.

نعم، كان بإمكانه أنْ يكون ذراعاً من أذرعة ذلك الأخطبوط التي تمتد إلى حافّة الدنيا فتعاقب من تريد باسم الدين أو القوميّة أو الحرّيّة، وما شابه ذلك من كلّ الكلمات الرنّانة التي عرف بنو قومه كيف ينطقونها شعراً وغناء، وما عرفوا كيف يطبّقونها حياة وعملاً.

يضحك من جديد ويقول: "الهيبوقراطيّة". نعم، النفاق... ذلك الداء الذي يشلّ فكر المجتمعات كلها؛ نقول ما لا نفعل، نفصل بين الشعائر والجوهر، نصلّي دون أنْ نؤمن، نمثّل، وبعبارة ثانية نكون 'قحباء تنادي بالعفاف'.

ما رأيك يا صاحبي؟ فالج لا تعالج، أليس كذلك؟ ويلتفت إليّ فأرى على محيّاه سبعاً وسبعين من السنين الحائرة الهائمة. ثم يقول: 'دعني أجلس على ذلك المقعد، لقد تعبت، وأنت بإمكانك متابعة الهرولة. شكراً لإصغائك.'

'هل أراك صباح الغد يا عم؟'

'لست أدري يابنيّ، لقد أصبح كلّ شيء واضحاً، كلّ شيء واضحاً.'

سكت صاحبي عن الكلام، وسكنت العاصفة في قسمات وجهه وهو يجلس على المقعد.

على مقعد خشبيّ في حديقة عامّة في سيدني، تركت ذلك الرجل الذي قابلته لأوّل مرة في حياتي فلخّص لي تاريخه بعشرة دقائق، دون أنْ يعرفني. تركته وأنا أرى فيه مهاجراً في وطنه الأوّل، مهاجراً في وطنه الثاني، ملفوظاً من بني قومه، مرفوضاً من بني هجرته، وحيداً في كلّ الحالات.

سيدني، 1994

حِوَار عَربستانيّ

كلاهما من عربستان. الأوّل من غربستان والثاني من شرقستان. لغة واحدة يتكلّمان، وإلى أستراليا مهاجران.

الأوّل: هل قرأت قصيدتي الجديدة؟

الثاني: قصيدة؟ لم أكن أعلم أنّك تكتب القصائد.

الأوّل: طبعاً، طبعاً، فأنا كما تعلم نشاطاتي عديدة، وعلاقاتي كثيرة، وأتعاطى العلوم والآداب والسياسة والتجارة.

الثاني: ما شاء الله، ما شاء الله. كلاّ، لم أقرأ قصيدتك الجديدة.

الأوّل: هل لك أنْ تقرأها وتعطيني رأيك فيها؟

الثاني: ولكنّي لست مختصاً في النقد الأدبي.

الأوّل: أنت أستاذ في الأدب، وأعلم أنك ذوّاقة شعر.

الثاني: ولكنّ التذوّق مسألة شخصيّة ونسبيّة.

الأوّل: خلصنا يا أخي، إقرأ القصيدة وأعطنا رأيك فيها.

(يقرأ الثاني القصيدة عدّة مرات.)

الأوّل: شو؟ شي تمام، أليس كذلك؟

الثاني: هل تريد رأيي أم رأيك؟

الأوّل: طبعاً رأيك، ولكن بربّك قل لي، أليست قمّة في الإبداع؟

الثاني: لن يفيد رأيي شيئاً طالما أنّك أحكمت رأيك مسبقاً، وقرّرت أنّ القصيدة قمّة في الإبداع.

الأوّل: يا أخي، رأيان أفضل من رأي واحد.

الثاني: تعني أنّك فعلاً تريد رأيي الموضوعيّ في هذا الذي كتبت؟

الأوّل: طبعاً، طبعاً، وإلاّ لماذا أسألك الرأي؟

الثاني: بصراحة يا أخي إنّ ما كتبته ليس بشعر، ولا يمّت إلى اللغة العربستانيّة بصلة.

الأوّل: ماذا؟ بعد كلّ هذا الجهد؟ ألا تدري مع من تتكلم؟ ألا تعلم أنّني مذيع في الإذاعة العربستانيّة، ومدرّس للغة العربستانيّة؟
الثاني: ومع ذلك يا صديقي، النصّ الذي أمامي يفتقد إلى أبسط أصول اللغة، وما هو بشعر ولا نثر. الأغلاط الإملائيّة والنحويّة تغطي معظمه.
الأوّل: لا. لا. يا أستاذ هيك "تخّنتها"! كنت أتوقّع منك تأييد جهدي الكبير، وتعبي في سبيل أبناء جاليتي وتراثي.
الثاني: يا أخي، الجهد ليس له بالضرورة علاقة مباشرة مع النتيجة النهائيّة، وإنْ كان أصلاً ضرورة لكل عمل. سألتني رأيي في القصيدة فأعطيتك رأيي، ويمكنني أنْ أبيّن لك أغلاطك النحويّة والإملائيّة. أمّا الأغلاط الأدبيّة فلا وجود لها، والسبب هو أنّ الغلط يحدث عند المحاولة. الذي أراه أمامي لا يحوي أيّ محاولة أدبيّة، وإنما هو صفّ كلام لا يرقى إلى مستوى الإنشاء الابتدائيّ.
الأوّل: ما هذا الكلام يا أستاذ؟ أنا الذي أدرّس الإنشاء للطلاب.
الثاني: وهل لديك المؤهلات اللازمة لذلك؟
الأوّل: ماذا؟ أتطعن بإمكانياتي وأنا معروف بين أبناء الجالية ويشار إليّ بالبَنان؟
الثاني: أبناء الجالية هنا بحاجة لكل مساعدة جيّدة في سبيل فهم تراثهم ولغتهم، ولكنْ لا بدّ من الاعتماد على أسس صحيحة في هذه العمليّة، وليس اعتماد النخوة والاندفاع الأعمى بما ليس من مؤهلاتنا. والمشكلة أكبر في حالتك لأنك تقول إنّه يشار إليك بالبَنان، وهذا يعني أنّ الناس ستصدّق ما تقول وتتبع أسلوبك. وخطورة الأمر أنّك مذيع في الإذاعة، أي أنّ أسلوبك يصل إلى عدد كبير من المواطنين الذين سيكتسبون طريقتك المغلوطة في لفظ وتحريك الكلمات.
الأوّل: هل تشك بمقدرتي الإذاعيّة أيضاً؟
الثاني: أنا لم أرد هذا الحديث كله، ولكنّك جررتني إليه. بما أنّني أتحدث، فلا بدّ أنْ أقول ما أعتقد أنّه الصواب. وبصراحة يا أخي،

حين أستمع إليك عبر الإذاعة تغلط كلّ ثاني كلمة تلفظها، أتمنى لو أنّك لم تكن هناك، أو على الأقل أنْ تتكلم العاميّة وتترك الفصحى لأهلها.

الأوّل: لم أكن أعلم أنّك تتجنى عليّ على هذا المنوال. أليس لديك أقل قدر من الدبلوماسيّة؟ أليس لديك ذرّة احترام لأبناء وطنك؟ ألا تخاف على تراثنا العظيم؟

الثاني: أعتقد أنّ هذا الحديث لن يجدي نفعاً، لأنّك كنت ترغب أنْ تسمع مني رأياً إيجابيّاً، وليس رأياً موضوعيّاً. لذلك أرجو أنْ لا تسألني عن رأيي مرة أخرى إذا كان هدفك استدراج دعم الآخرين لآرائك بغضّ النظر عن قيمتها.

الأوّل: طبعاً تريد الآن الانسحاب من هذا الحوار. سأبلغ كلّ زملائي في الإذاعة والجرائد والمجلات والمنظّمات عن تهجمك هذا، وسأعمل جهدي أنْ لا يقوم أحد بدعوتك لأيّ مقابلة أو احتفال.

الثاني: أتمنى أنْ تنقل لزملائك ما حدث بنزاهة. وأطمئنك أنّني حاليّاً معزول عن معظم النشاطات العربستانيّة لأسباب شبيهة بأسباب خلافنا الحاضر حول قصيدتك. نحن، أقصد العربستانيّين، متعودون على الموافقة على كلّ شيء. الأولاد لا بدّ أنْ يوافقوا على كلام أهلهم، والمحكومون على الحكّام، والأصدقاء على الأصدقاء، وحسب تطوّر الأحداث الحاليّة، حتّى على الأعداء. وهذا ما تسميه أنت الدبلوماسيّة، أي "الضحك على اللحى"، ويسمونه أحياناً الطاعة، وأحياناً الاحترام. وكلها مزايا اجتماعيّة تتحلى بها شعوب عربستان حتّى الثمالة، أو في الواقع حتّى العمالة والعبوديّة. نحن لم نتعود أبداً أنْ نكون أصحاب قرار، والسبب ليس الأعداء، بل أقرب المقرّبين. لا أحد يقبل النقد البنّاء.

الأوّل: لقد شبعنا من هذه الفلسفة المستوردة من الغرب. وكان حريّاً بك أنْ تتحلى بأخلاقنا وتراثنا العريق، فالاحترام أهمّ مزايانا.

الثاني: نعم، الاحترام القائم على النزاهة والعلم، وعلى المعاملة بالمثل، وليس الاحترام القائم على الطاعة العمياء والدجل والنفاق.
الأوّل: ألم أقل لك إنّك صاحب دماغ مستورد من الغرب؟
الثاني: إذا كان الأمر كذلك، لماذا تركت أنت عربستان وحضرت إلى أستراليا أحد معاقل الغرب، وإحدى الدول السائرة في ركاب الأميركان وسياساتهم؟
الأوّل: يالك من ظالم. الآن تريد الدخول إلى أعماق مشاكلي الخاصّة. وعلى كلّ حال، كلّ واحد منّا حضر إلى هذه البلاد بسبب. ولا تنس أنّ حالة الحرب في بلادنا، والأوضاع الاقتصاديّة شكلت ضغطاً كبيراً علينا.
الثاني: فعلاً. ولكنّك حين بحثت في أرجاء المعمورة، لم تجد مفرجاً عن كربتك إلاّ في أحد معاقل الغرب. هنا تستطيع فعل وكلام ما لا تستطيعه في تلك البلاد التي تتغنّى بتراثها.
الأوّل: يا أخي...
الثاني: يا أخي عن إذنك، أنا لا أفهم في الشعر.

سيدني، 1995

حَسْبَ العَقد

كنت أعلم أنّ على صاحب متجر، أتعامل معه في سوقنا المحلي، أنْ ينتقل إلى جهة أخرى من هذه السوق التي يجري العمل على توسيعها وإعادة فرشها وزخرفتها. واكبت نشاطه يومياً خلال أشهر، إذ كنت أرتاد هذه السوق حين أعود من عملي كلّ يوم لأتفقّد صندوق بريدي. كان دائماً يبقى بعد الدوام للإشراف على الديكورات اللازمة لمحلّه الجديد.

وبعد أنْ استتبّ أمره في محلّه الجديد، لاحظت أنّه لا زال يتردّد على محلّه القديم، ويبقى بعض الوقت بعد إقفال المحلاّت كافة. لوّحت له مرّة وسألته ماذا يفعل، وهل ينوي الاحتفاظ بالمتجرين؟ ابتسم وقال بلهجته الجبليّة اللبنانيّة: ’العين بصيرة واليد قصيرة يا صاحبي! إنّها شروط عقد الإيجار تقتضي أنْ أرجع المكان الذي أخليته كما كان عليه حين استلمته، ولذلك أعمل الآن على إصلاحه ودهنه.‘

فكّرت في نفسي أنّ هذا من العدل، ولو كان صاحبي هو الذي يملك المحل لأراد أنْ يرجع محله إليه كما كان.

بعد أنْ أنهى صاحبي إعادة ترميم ودهن المحل القديم بيوم واحد، كنت في السوق كعادتي مساءً، فدهشت لرؤية محله القديم مدمّراً تماماً، دون أنْ يبقى فيه حجر فوق حجر. هرعت إلى المحل الجديد، وكان مقفلاً بسبب انتهاء يوم العمل، لكنّي كنت أعلم أنّ صاحبي سيخرج بعد قليل، لأنّه كغيره من أصحاب المحلاّت يتأخر قليلاً في إنهاء حساباته وترتيباته اليوميّة قبل العودة إلى البيت.

لما أحسّ بالاستغراب على وجهي قال فوراً: ’لا شكّ أنّك رأيت المحل القديم.‘ قلت بالإيجاب، وتساءلت لماذا يعيد ترميم ودهن

المحل طالما أنّ أصحاب السوق ينوون تغييره بشكل كامل؟

’إنّه العقد يا صديقي. مدير المركز يعمل وفق العقد.‘

’ولكن ياله من منطق غبي!‘

’لأنّني رفضت دفع أكثر من حصتي كإسهام في أعمال الهدم، أراد الانتقام مني بجعلي أدفع لإعادة ترميم شيء سيدمّر بعدها مباشرة. ولقد فعلها مع متجرين آخرين أيضاً.‘

’ولكن ما شأنك وأعمال الهدم؟ أليس لديك عقد جديد لهذا المحل الجديد؟ أولم يفرضوا عليك الانتقال إلى هذا المكان لأنّهم يقومون بتعديل السوق؟‘

’كلّ ما تقوله صحيح، ولكنّهم في محاولة لمص المزيد من دمائنا، بدأوا باللعب على وتر مصلحة المركز العامّة، وهم يحاولون تفسير بعض القوانين والعقود على أهوائهم، ما دفعني وغيري لاعتماد المحامين لتلافي هذه المشكلة.‘

’يا له من أمر عجب، لا أصدّق أنّ هذا يمكن أنْ يحصل في أستراليا.‘

’ولم لا يا صديقي، ألسنا كلّنا بشراً؟ ثمّ ألا تريد ما يذكّرنا بأوطاننا الأمّ؟ فلو كانت هنا الجنّة الموعودة تماماً لأصبح الأمر مملاًّ.‘

ودعت صديقي قائلاً: ’أهنّئك على هذه الروح، وأتمنّى لك التوفيق مع المحامين، أمّا أنا فأفضّل العيش في ذلك الملل الذي تخشاه، على أنْ أقع في مثل هذه الحبائل.‘

الفَضَائيّات: تبديدُ الغُربَة لزِيَادَة العُزلَة

هذه هي سنتنا التاسعة عشرة هنا في أستراليا، وحتّى السنة الماضية ما كان عندنا سوى القنوات التلفازيّة الأستراليّة. أفراد عائلتنا كلهم عاملون، وأوقات فراغهم مليئة بنشاطات جمّة، لا تترك للتلفاز سوى فسحة يسيرة نشاهد فيها الأخبار، وبعض برامج آخر الليل التحليليّة، خصوصاً على قناة ABC. كما أنّ ابنتنا الكبرى وزوجها لا يملكان جهاز تلفزة على الإطلاق، فهما يفضلان النشاطات الاجتماعيّة والثقافيّة الحيّة.

ومع تزايد الإبداع التلفازيّ الدراميّ لدى بعض الجهات، خصوصاً السوريّة منها، وحين غادرت ابنتنا الصغرى المنزل العام الماضي فبقينا وحدنا، زوجتي وأنا، قررنا دخول موضة الفضائيّات. والحقّ يقال إنّ من بين عشرات المحطات، هناك ثلاث أو أربع غنيّة بالتحاليل الإخباريّة، أو الأعمال الدراميّة التي يمكن وصف بعضها بالرائع ويضاهي، بل يتفوق، على معظم المسلسلات الغربيّة. لا ننكر أنّنا استمتعنا واستفدنا من كثير من هذه الأعمال، لكنْ في الوقت نفسه تضاعفت مدّة مكوثنا أمام صندوق فرجة القرن الواحد والعشرين. ومع هذا تبقى متابعتنا عرضيّة، لا تزيد عن ساعات قليلة كلّ أسبوع.

نحن لا نشاهد لمجرّد المشاهدة، أو لأنّ ليس لدينا شيء آخر نقوم به. ننتقي بعناية ما سنصرف وقتنا عليه، وكيف نصرف هذا الوقت. لكنّنا لاحظنا من خلال هذه التجربة سهولة الانسياق وراء المكوث الطويل أمام الشاشة، وما يتبع ذلك من استمتاع وإثارة، واستذكار للأيّام الخوالي، بما ينقله لنا هذا الفضاء من تاريخ نحنّ إليه، وما يقرّبه من بلاد انسلخنا عن أرضها. فإذا كنّا

نحن الذين ليس لدينا مشكلة اندماج مع المجتمع الأستراليّ، انجذبنا بخيوط الفضائيّات المغرية، فكيف حال الذي لا يتقن الإنكليزيّة، أو لا يعمل، أو لا يريد أنْ يعتبر أستراليا بلده الحاليّ؟ بعبارة أخرى، ما حال عيّنة كبيرة من العرب الموجودين في أستراليا؟

لا شكّ لدينا بأنّ الفضائيّات، شأنها شأن أيّ نشاط آخر، تحمل في أثيرها الفائدة والضرر معاً. الأمر متروك لكل فرد أو عائلة كي تختار ما تشاهد. لكنْ حتّى لو ركّز بعض العائلات على البرامج المفيدة، لا يمكن أنْ يكون هذا سوى على حساب مشاهدة ما تقدّمه القنوات الأستراليّة. والسبب أنّ المواطن العربي العادي سيتبع أهواءه وما يستأنس به طالما أنّه توفّر له بسهولة، ولن يتكبّد عناء التركيز في متابعة برامج بلغة غير لغته، حتّى لو أتقن الإنكليزيّة أو فهمها، لأنّ شهوة الترويح عن النفس تتغلب على الرغبة في استكشاف المحيط الذي يوجد فيه هذا الإنسان حاليّاً. بل إنّ هذه الرغبة ربّما لم تتوفر أصلاً، أو ما خطرت على البال.

ومشكلة التلفاز لا تقتصر على الفضائيّات عند بعض العرب، بل تتعداها إلى كون المسألة مسألة إدمان كامل. كم من مرة تذهب لزيارة عائليّة من المفروض أنّها تقرب بينك وبين من تزور، إلاّ أنّك تجد نفسك معهم في غرفة علا فيها صوت التلفاز، فمتابعة مسلسل ما، أو مباراة، تأخذ مرتبة الصدارة مقارنة مع الزيارة وأهدافها، حتّى أنّ الناس بدأت تغيّر من عاداتها الاجتماعيّة، فصارت السهرات تعقد حول مسلسل محبوب، أو أمام مطربة لعوب. وطبعاً، المشاركون في ذلك كلهم ممن يتكلّم ويفهم اللغة نفسها، أي أنّ هذه السهرات ستقتصر حكماً على العرب. والنتيجة تكون أنّ فئة كبيرة من العرب استوردت بفضل هذه الفضائيّات أسباباً جديدة من أسباب عزلتها عن المجتمع الأستراليّ العامّ.

لا نستطيع لوم المرء على محبته التمتع بجوانب ثقافته الأصل، لكنْ نتعجب من عدم محاولته العمليّة في اكتساب أسباب التمتع بثقافة بلده الجديد. القضيّة قضيّة نسبة. ما هي نسبة ما يفعله المرء من كلّ مقوّم من مقوّمات الحياة في أستراليا؟ أي كم من الوقت يقضي في مشاهدة مسلسل عربيّ، وكم من الوقت يصرف على برنامج وثائقيّ أستراليّ، أو حتّى على مسلسل غربيّ؟ المطلوب إيجاد توازن يوفر للمرء رصانة ثقافيّة في مجتمع متعدد الثقافات مثل أستراليا.

الفضائيّات تؤثر بشكل سلبيّ على اندماج العرب في أستراليا، بالنسبة إلى تلك الفئة التي هي أصلاً لا تريد هذا الاندماج. ويكون التأثير في إغلاق باب التواصل نهائيّاً ورمي تلك الفئة في عزلة مؤكّدة. أمّا بالنسبة إلى بقيّة الفئات، فهناك تأثير طبعاً من حيث الوقت الزائد المصروف على متابعة هذه الفضائيّات، لكنّ هذه المسألة لا تختلف عما يختاره الإنسان من نشاطات، سواء أكانت فضائيّة أم أرضيّة، عربيّة أم إنكليزيّة. المغريات حولنا كثيرة، فضائيّات أو لا. المسألة مسألة اختيار أولاً وأخيراً. والأمر ينطبق على "الاندماج": على المرء أنْ يقرر ويختار، ثم يسلك درب تحقيق اختياره... وطبعاً لكل شيء ثمن!

(نشر كجواب عن سؤال طرحته إحدى الصحف العربيّة الصادرة في سيدني على نخبة من المثقفين، سيدني 2008)

يا حَسْرَتي عَليكَ يَا لورَنس!

صادفته منذ سنوات في سيدني وظننت أنّه تتقمّص جسد امرأة شمطاء الوجه تكثر من المساحيق، وأنّ مبدأ التقمّص حقيقة واقعة. لكنْ بعد سنوات من مراقبة سلوكه اتّضح لي بما لا يقبل الشكّ أنّ العجوز الشمطاء هي التي تقمّصت شخصيّة لورنس إشباعاً لكبريائها وجهلاً منها بالراهن العربي، فتراها الآن وهذا اللبوس الذي تحاول انتحاله فضفاض واسع لا يتناسب مع إمكانيّاتها المحدودة ومداركها المبتورة.

ويبدو أنّ لورنس المزيّف اعتقد أنّه لم تعد له ناقة في أرض العرب ولا جمل، ولذلك استغل فرصة وجوده في بلد فيه قلة من العرب، ليمارس دوره الذي يحبّ ممارسته دائماً؛ ألا وهو إظهار الشغف الشديد بحضارتهم، وعشقه الكبير لتراثهم، ودأبه المستمرّ على خدمتهم ومساعدتهم على بني قومه الذين أجحفوا بحقّ العرب، وخانوا قضيّتهم، وأخلفوا وعودهم لهم.

ولقد رأيته يأبى الاقتناع بأنّ بني العرب لا يريدون منه هذه المساعدة، لأنّهم يستطيعون التفكير وحدهم، وتقرير مصائرهم بأيديهم في أستراليا، بلد الحرّيّة الفكريّة والديمقراطيّة السياسيّة، لكنّه لا يفتأ يحشر نفسه في قضاياهم، ويحضر جميع تجمعاتهم وحفلاتهم، ويوجّه لنفسه ولزبانيته الدعوات لحضور مؤتمراتهم، ويدّعي أنّ العرب فوّضوه التكلم باسمهم. كما أنّه يسعى جاهداً ليوحي بأنّه الكلمة الفصل حول الحضارة العربيّة، فيوهم العرب بأنّ له نفوذاً هائلاً لدى السلطات الأستراليّة، ويوهم الأستراليّين بأن العرب منحوه ثقتهم التامّة. وهو في بعض النجاح الذي حققه في هذا المجال إنّما يعتمد على استغلال بعض

الوقائع فيديرها باتجاه مصالحه الشخصيّة. مثلاً إنْ كرّمه العرب كردّ فعل لبعض مبادراته، يخلط فوراً بين كون هذا التكريم تكريماً للمبادرة، وبين كونه تقديساً لشخصه، فيختار التقديس الذاتيّ، ويقنع نفسه أنّه انبعاث للورنس الحقيقي، ويزداد غروره وإصراره على اعتبار ذلك الدليل القاطع على مبايعة العرب له على أنّه الأنجلوكيلتي الوحيد العارف بقضاياهم، والمدافع عنها.

ولقد اختار "بناء الجسور الحضاريّة" شعاراً له، وكانت له مبادرات في هذا المجال حصلت كلّها على أكتاف من قدّم له العون من العرب، لكنّه سرعان ما طعنهم في الظهر أفراداً وجماعة، لأنّه يبني ما يظهر كجسر عظيم يعطيه الكسب الإعلاميّ الذي يرضي دعواه، وأثناء ذلك يهدم ألف جسر صغير أكثر صدقاً وعلاقة بما ينشده العرب. السبب أنّ اسمه لم يرد على قائمة من بنى هذه الجسور الصغيرة.

وهو يفعل ذلك بطريقة لا تليق بلورنس الحقيقي وماضيه الحافل، فكأنّي به من أجل هذا التزييف قد تخلّى نهائيّاً عن كلّ القيم. طريقته واضحة مكشوفة أمام الجميع، ومع ذلك يكررها ويعتقد أنّه يخدع الجميع. والحقّ يقال إنّ خلق الموتى في جسد الأحياء يسبب نوعاً من الصدمة الحضاريّة والعاطفيّة، خصوصاً إذا كان من يحاول انتحال الشخصيّة على درجة وضيعة جسديّاً وحضاريّاً، وكانت الشخصيّة على المستوى الرفيع الذي كان عليه لورنس.

والحقّ يقال أيضاً إنّ صاحبنا لا يحتاج إلى فكر واسع لتحقيق مآربه، فهو يتغذى على من يصطاده من الذين انخدعوا في تحديد هويته، والذين يقعون في حبائل المغريات الكاذبة التي يضعها في مخيّلة آمالهم الجائعة للحصول على الاعتراف بهم كمواطنين عاديّين في هذا البلد. وهناك من يسايره نكاية بالآخرين الناجحين من العرب، ونتيجة الغَيرة منهم لا عليهم، أو أولئك الذين يتحمسون عن حسن نيّة لمقابلة مبادراته الحضاريّة بمثلها، أو

أفضل منها تمشياً مع تقاليدنا الكريمة، لكنّه بعد أنْ يأكلهم لحماً ويرميهم عظماً، يكتشفون أنّ العلاقة مع لورنس المزيّف لا تعطي أُكلها إلاّ في اتجاه واحد. والويل كلّ الويل لمن يكتشف لورنس ونواياه منذ البداية، فهذا يجند لورنس له كلّ زبانيته من عرب وأستراليين غيرهم، ويعلن عليه حرباً على كلّ الجبهات، وفي الوقت نفسه يواصل لورنس محاولة الاتصال بهذا الشخص ليعلن له تأييده ضد هؤلاء الأوباش، ويؤكّد براءته وتنصّله من هذه الأمور.

ثمّة اختلاف عجيب بين لورنس الحاضر وسابقه. ففي حياته السابقة أتقن لورنس اللغة العربيّة التي يبدو أنّه نسيها تماماً في حياته الحاضرة، ومع ذلك يقوم بترجمة أعمال عربيّة إلى الإنكليزيّة. ويبدو أنّ هذه المعجزة متأصلة في خيوط وراثته حتّى قبل أنْ تلده أمّه أوّل مرّة.

ومن مزاياه الأخرى الكتابة. ولقد برع في استيراد أفكار غيره من الحضارات الأخرى. يبدو أنّه يعتمد في ذلك على حيوات وتقمصات أخرى لا يمكن لنا معرفتها، لكنّه بالغ في التقمص فصار يكرر نفسه، وبات عاجزاً عن إعادة تخليق الأفكار القديمة فصارت تجارته مكشوفة، ولم تعد أساليبه في إهداء أعماله إلى العمالقة من المبدعين تشفع له هذا السقوط. كما أنّ أسلوبه الرخيص في التزلّف إلى الحكّام العرب صار مفضوحاً، وسيصعب عليه أنْ يجد من يستمع إليه، على الرّغم من أسلوبه الغليظ السمج الدابق الذي يكرّره إلى أنْ لا يجد المستمع مفرّاً غير موافقته على ما يريد تخلصاً من هذه اللزقة.

ومن أبرز صفاته حبّه السيطرة على كلّ من يتعاون معه، فلا يؤمن إلاّ بوجود طريقة واحدة لمعالجة الأمور، هي طريقته. أمّا إذا كان للفرد طريقته الخاصّة وأسلوبه المميّز، فإنّ صاحبنا يلجأ إلى مبدأ التكسير والتهشيم، ويصرف ما يلزم من الوقت حتّى يحصل على ما يريد، لكنْ غالباً ما تنتهي العلاقة بانسحاب الطرف الآخر لاعناً الساعة التي تعرّف فيها إلى لورنس. وفي بعض الحالات

التي قدم فيها لورنس خدماته، قام بتزويد معلومات مغلوطة للمتعاونين معه. وتبيّن في عديد من الحالات أنّ السبب ليس جهل لورنس، بل تعمده ذلك لأنّه يريد أنْ تكون الجولة الأخيرة له، فلا يستطيع الحاصل على تلك المعلومات التصرّف بها مالم يرجع إلى لورنس، أو أنْ يصرف وقتاً وجهداً كبيرين لتصحيحها. لقد أدّى هذا الأمر بالواثقين بصاحبنا إلى الوقوع في مآزق كبيرة خصوصاً حين احترموا معرفته وأخذوا بكلامه، وما كانوا عندها على علم بأنّه في الواقع مزيف تماماً، ونصف متعلم، ومحتال كامل.

وحاول أكثر من مرّة استعمال التبادل الحضاريّ كجسر للحصول على معلومات ليست لها علاقة بمهمته التي يدّعيها. مثلاً كان يسأل عن أنواع وتعداد بعض فئات السلاح لدى الدول العربيّة. فهل هذا مجرد رواسب من مهمات لورنس في حياته السابقة؟

ويواصل صاحبنا نشاطه في تصيّد أولئك الذين لا يتقنون اللغة الإنكليزيّة، فبهذه الطريقة يضمن لنفسه استغلالهم في أعماله دون أنْ تكون لهم إمكانيّة مجاراته، بالإضافة لبقائهم بحاجة إليه كما ينجح ويوهمهم أحياناً. على كلّ حال يبدو أنّ أكثر ما ينشط به صاحبنا الآن هو بذر سمومه بين الناس ليزيد من الشقاق والنفاق بين أفراد الجالية العربيّة من جهة، وبين هذه الجالية والمجتمع الأستراليّ العامّ من جهة أخرى. وهناك ما يشير إلى وجود عدد قليل من العنصريّين ضمن المؤسسة الأستراليّة، الذين يقدمون له العون والمؤازرة على أكثر من صعيد. والخطير أنّ هذه القضيّة باتت من هوايات صاحبنا وليس من مهماته فقط.

يجنّد كلّ طاقاته كلّما وجد فرداً على مستوى الخطاب الأستراليّ فيحاول ضربه وتهشيمه. وكذلك كلّما وجد تنظيماً لأستراليين من خلفيّة غير ناطقة بالإنكليزيّة يرقى إلى أبعد من مجرد التجمّع الهش، يحاول اختراقه وفرز سمومه لينفرط العقد الجديد. ونجح صاحبنا في حالة معيّنة بتفتيت ائتلاف فريد من نوعه، لأنّه شعر أنّ هذا الائتلاف سيجابه الوسط الأدبيّ اليمينيّ

الأستراليّ مجابهة تقدميّة تكشف انعزاليّة بعض الأوساط التي ينتمي لورنس المزيّف لها. ما كان له لينجح لولا سذاجة ورعونة البعض. وكلّنا يذكر قول نزار قباني في العدوّ الذي ما دخل من حدودنا، ولكن تسرّب كالنمل من عيوبنا. وهذا يذكّرنا طبعاً بكيفيّة نجاح المستعمرين دائماً بتفتيت قدراتنا العربيّة، لدرجة أنّ مفهوم الوحدة العربيّة صار وهماً ساذجاً. وصاحبنا جاء من مخلفات إمبراطوريّة رائدة في مجال الاستعمار، ومشكلته أنّه يعتقد أنّه الحارس الأمين على مخلفاتها. ومشكلة بعض العرب في أستراليا أنّه لا زال ينوء بكل الهشيم النفسيّ الذي تركته فيه سنوات الهزائم.

لكن كما هي حال المجرمين، لا يمكن للجريمة أنْ تكون كاملة. لقد بدأ صاحبنا يكشف نفسه بنفسه، لرعونته واستبداده وعجالته في تنفيذ ما يريد، لأنّه بات يعلم أنّ الناس بدأت تزداد في صدّها له، والتهرب منه. مثلاً، صار يترك وثائق بخطّ يده تدينه وتناقض كلامه المعلن. كما أنّ كاميرات الفيديو صورته في بعض المناسبات وهو يتسلّل إلى أوراق الآخرين أثناء خروجهم من قاعة اجتماعاتهم. وأفدح أغلاطه أنّه صار يتصل بالناس ليشهِّر بالآخرين، ويبدو أنّه لا يعلم، أو ربّما يعلم، أنّ معظم هؤلاء يتصلون عادة بالضحيّة ليخبروها عن تلك القباحة.

يا حسرتي عليك يا لورنس!

سيدني، 1999

مُفارَقات بوليسِيَّة

اتجهت بسيّارتي لبنانيّة التسجيل نحو منطقة "سبع بحرات"، في أحد أيّام شهر آب 1976، وانعطفت داخلاً شارع العابد بالطريقة نفسها التي اتبَعها آلاف الدمشقيّين طيلة سنين عديدة. وقفت دوريّة من شرطة المرور عند مدخل الشارع تقوم بواجبها في الحفاظ على تنظيم السير، وسلامة المواطنين. أسعدني حضورها هذا، خصوصاً أنّني أمضيت حتّى ذلك الوقت ثماني سنين من القيادة بين لبنان وسوريا دون مخالفة واحدة.

توقّفت بسيّارتي في شبه ساحة صغيرة في منتصف الشارع، وهذا عين ما قمت به مرات عديدة خلال الأسبوعين السابقين، أتبضّع من أحد المحلاّت هناك ما يلزمني من أدوات لتجديد غرفة نومي التي نويت قضاء أوّل ليلة من زواجي فيها، بعد يومين اثنين فقط.

أمسكت بيد ابنة صديق لي كان يزورني من لبنان، أحببت إحضارها معي في نزهة صباحيّة، ودخلنا المحل. اشتريت حاجياتي، ولازالت الساعة التاسعة والربع صباحاً. انطلقت بالسيّارة عائداً بعد استدارتي في تلك الساحة، أيضاً كما فعلت في مرات سابقة، ووصلت إلى مخرج الشارع حيث لازالت تقف دوريّة الشرطة.

أشار إليّ شرطيّ شابّ أسمر، برتبة ملازم، بالتوقف فتوقفت. حضر طالباً أوراقي فسلّمتها له. أخذها وابتعد ليتوقف على ما يشبه الرصيف في وسط الشارع، وبدأ يكتب.

ظننت بادئ ذي بدء أنّه يتحرّى أمر السيّارة لأنّ دمشق كانت في تلك الفترة مليئة بالسيّارات اللبنانيّة المسروقة، أو التي

لا تحمل أوراقاً قانونيّة. بدأت الصغيرة تبكي، فطيّبت خاطرها، وخرجت من السيّارة متجهاً نحو الملازم أسأله عن طبيعة المشكلة.

لم يستجب الملازم إلى تساؤلي، وواصل كتابته دون أنْ يتكلف النظر إليّ مطلقاً. سألته مرة أخرى، بمنتهى الأدب واللباقة، عن ذنبي الذي اقترفت، لكنّه لم يغير من شأنه أبداً. سألته للمرة الثالثة قائلاً: 'يا أخ! أنا بشر مثلك، فهل تتكرم وتخبرني ما هو الذنب الذي ارتكبته؟' أمسك الملازم أوراقه كلّها بيد، واتجه نحوي بيده الثانية، وأمسكني بما استطاع القبض عليه من قميصي، ثم دفعني بكل ما أوتي من عزيمة وهو يقول: 'روح يا حمار، يا...'

ارتددت إلى الخلف حتّى اصطدم ظهري بسيّارتي، ولقد أذهلني تصرّفه الذي لم أجد له تفسيراً حتّى يومي هذا. من حسن حظي أنّ درجة الذهول كانت عظيمة بحيث شلّتني عن الإتيان بأيّ حماقة سوى تقريعه بأعلى صوتي وتأنيبه على فعلته، والصغيرة تزداد بكاء في السيّارة، حتّى سمع صياحي رئيسه، النقيب، الذي حضر يسألني عن المشكلة. أخبرته الحكاية كما حصلت، فنظر إلى الملازم وسأله عمّا إذا كان كلامي صحيحاً. نفى الملازم ذلك، وحين قلت للنقيب إنّ الملازم يكذب، قال النقيب لي: 'ولا يهمّك. إذهب الساعة الواحدة بعد الظهر إلى مقرّ الشرطة العامّ لنعطيك أوراقك.' شكرت النقيب، وسألته أنْ يتكرّم فيخبرني عن ذنبي الذي اقترفته. قال إنّي حضرت في اتجاه ممنوع. قلت وكيف ذلك وأنا استدرت في الساحة دون أنْ يكون فيها إشارة "ممنوع المرور"، أو سهم "اتجاه إجباريّ"؟ قال إنّ الإشارة هي في نهاية الشارع، بعد الساحة بكثير، وبما أنّ القرار بمنع المرور في هذا الاتجاه سرى مفعوله اعتباراً من الساعة السابعة ذلك الصباح، لم تتح الفرصة بعد لإتمام وضع كلّ إشارات المرور في أماكنها المناسبة. قلت في

نفسي إنّ النقيب قدّر وضعي، ولا شكّ أنّه صادق في مسألة إعادة أوراقي دون مشكلة بعد ظهر ذلك اليوم.

عدت إلى المنزل، وسلّمت الصغيرة إلى أبيها، وسارعت إلى الهاتف أستشير شقيق خطيبتي في هذه المسألة، ذلك أنّني تركت دمشق بعد تخرّجي من المدرسة، وما كنت متضلّعاً من الحياة العمليّة فيها، على الرّغم من شهادة الماجستير التي أحملها وأفتخر بها في ذلك الوقت.

ضحك صاحبي كثيراً حين أخبرته عن إمكانيّة إحضار الأوراق من مقر الشرطة، وقال إنّ القرار الذي صدر اليوم يقضي بمصادرة رخصة القيادة، والسجن لمدة شهر، ودفع غرامة ماديّة. قلت له: 'حسناً، هذا يعني أنّك ستصاهر خرّيج سجون!' قال: 'طبعاً لا، والحلّ عندي. أحْضُر إلى دكّاني، وسنذهب سويّاً إلى مقرّ الشرطة العامّ.'

علمت من صاحبي، ونحن في طريقنا إلى مقرّ الشرطة، أنّ القائد المسؤول عن العمليّات ذلك الصباح يتردّد على دكانه بين الحين والآخر، ويأخذ مايلزمه من أدوات المطبخ، فيقدمها صاحبي هديّة له. سكتّ على الرّغم من رفضي الضمني لتلك الأساليب، لكنّي كنت مدركاً أنّ الحل الوحيد لتلك المشكلة، وإنصافي، هو ذلك الأسلوب الملتوي.

دخلنا القاعة التي كان الضابط المسؤول يستقبل فيها المراجعين (من أصحاب النفوذ والوساطة)، فكانت تغص بالوجهاء والأعيان، من رجال دين، وتجّار، وموظّفي دولة. حضروا جميعاً لأغراض تشبه غرضي، ما يدلّ على حجم المشكلة التي نزلت على المواطنين نزول الصاعقة في يوم لا غيم فيه.

انتهزت الفرصة لآخذ من بعض ثأري، وعرضت القضيّة على المسؤول بصوت مرتفع، ناقلاً الألفاظ نفسها التي أهانني الملازم بها. احمرّ وجه الضابط، وتلوّن بألوان أخرى، وقال إنّ هذا غير معقول، لأنّ دفعة الملازمين هذه كلّها من خريجي الحقوق، تمّ

اختيارهم كذلك لتعليم المواطنين على أصول السير واحترام القوانين. قلت له إنّ جريمته مضاعفة إذاً، لأنّ خريج الحقوق يجب أنْ يكون مهذباً مع الناس، ومعي، حتّى لو كنت مسؤولاً عن الغلط الذي وقع. واصل تبريره بالقول إنّ رجال الشرطة تمّ كبتهم فترة طويلة، والآن أغدقت عليهم بعض الحرّيّة في تطبيق القانون، فلا بدّ من حصول بعض الملابسات. تعجّبت من ذلك المنطق، لكنّ صاحبي بادر إلى الكلام شاكراً الضابط على حسن استقباله، وأنّنا رهن إشارته. أمر الضابط شرطيّه بإحضار أوراقي التي استلمتها دون إشكال.

تمّ العرس في اليوم المحدد، واستعملت سيّارتي في الذهاب "أسبوع عسل" في منطقة اللاذقيّة الجميلة.

بعد شهرين من تلك الواقعة، غادرت مع زوجتي إلى بريطانيا لمتابعة تحصيلي العالي ونيل الدكتوراه في العلوم. ولقد ارتحت لنظام السير في بريطانيا، خصوصاً أنّني بطبيعتي أحبّ التقيّد بالنظام. أمضيت في بريطانيا عدّة سنوات مارست فيها القيادة في مدنها الكبيرة وأريافها دون مخالفة واحدة.

بعد مرور سنتين على وجودنا في بريطانيا، اتجهت مع زوجتي في صباح أحد أيّام السبت إلى مركز المدينة، كما هي عادتنا معظم أيّام السبت، للتبضع. كنّا دائماً نجتاز بسيارتنا شارعاً عريضاً ذا اتجاهين، يفصل بين شارعين متوازين. دخلت الشارع بهدوء لأنّني أردت إيجاد بقعة خالية لإيقاف السيارة. بيد أنّي فوجئت بأن شرطياً يزيد عمره عن خمسين سنة، وتقل رتبته عن رتبة الملازم بدرجات، يمشي وسط الشارع مرحاً مترنّماً، يغني ابتهاجاً، وقد أدار ظهره إلينا.

أوقفت السيّارة خلفه، فاستدار بهدوء وتقدم مبتسماً باتجاه نافذتي التي فتحتها لمعرفة ما يريد. أشار بيده إلى مدخل الشارع خلفي دون أنْ ينطق بحرف. استدرت برأسي فوجدت على كلّ طرف من طرفي الشارع إشارة "ممنوع المرور" بثلاثة أضعاف

حجمها العادي. قلت للشرطي: ’يبدو أنّي دخلت الشارع غلطاً بحكم العادة. فهذا الاتجاه كان مسموحاً الأسبوع الماضي.‘ أجاب: ’نعم. هذا صحيح! ولذلك تراني هنا لأدرّب الناس على التقيّد بهذا التغيير الجديد الذي سرى مفعوله منذ خمسة أيّام فقط.‘ قلت له: ’وهل أستطيع الرجوع؟‘ قال: ’إذا تكرّمت يا سيّدي.‘

نُشرت في سيدني 1993

مُفارَقات مَاليَّة

قالوا إنّ من حقّنا زيارة الوطن على حساب البعثة مرّة واحدة خلال مدّة الإيفاد، لذلك ما إنْ مضى نصف مدّة إيفادي إلى بريطانيا للحصول على الدكتوراه حتّى قررنا زيارة الأهل في دمشق في صيف عام 1978.

اتصلت بالسفارة السوريّة في لندن آملاً الحصول على بطاقات السفر، لأنّنا وصلنا إلى مرحلة بالكاد نملك فيها جنيهاً واحداً، إذ لم يصل راتبنا منذ أشهر دون أنْ نعرف سبب ذلك، فنحن تحت رحمة الملحق الثقافيّ في السفارة، الذي يستلم ويوزع رواتب المنح الدراسيّة.

قالت لي السيّدة التي ردّت على الهاتف إنّ الملحق الثقافيّ السابق، الذي انتهت مهمته، أخذ معه ما تبقّى من أموال لتصفية الأمور في دمشق قبل مجيء الملحق الجديد. وحين سألتها ما الذي يمكننا فعله والحال كذلك، وما هو مصير الرواتب غير المدفوعة منذ شهور، قالت لي: 'والله يا أستاذ لو معي نقود لأعطيتك.' صدمني هذا المنطق السخيف الذي يصل إلى حد الإهانة، لكنّني أدركت أنّ تلك الموظّفة جاهلة، ولا بدّ أنّها حصلت على وظيفتها بالواسطة. وتيقّنت أنّ تلك السفارة عاجزة عن تقييم الوضع وتصحيحه، وأنّه لا بدّ أنْ أشتري البطاقات بنفسي، ثم أستردّ حقي.

المشكلة أنّنا كنّا فعلاً دون نقود، بعد توقف الرواتب عدة أشهر، وزوجتي حامل وفي حاجة كبيرة لزيارة الأهل، كما أنّ أهالينا كانوا يعوّلون على تلك الزيارة الموعودة. فكّرت أنّ الحلّ قد يكون من طريق لم أسلكها سابقاً، لأنّنا من ثقافة لا تحبها، ألا وهي

الاستدانة. توجهت إلى المصرف البريطانيّ الذي نتعامل معه، وهو المصرف الذي يردنا الراتب عادة من طريقه، وليس لدينا معه أيّ معاملات أخرى. وطبعاً كنت أتوقع أنْ أعود من حيث أتيت، إذ ما الذي سيجعل هذا المصرف يسلّفني ثمن بطاقتَيْ طائرة، ونحن نغادر البلاد؟ ما هو ضمان رجوعنا؟

حين تحدّثت إلى موظّف المصرف، أصابته الحيرة، وقال إنّ هذه القضيّة يجب أنْ تحال إلى المدير. قلت في نفسي إنّ القضيّة واضحة: لن نحصل على أيّ قرض، ولن نسافر.

بعد حديثي مع الموظّف انتظرت خمس دقائق لا أكثر، حضر بعدها المدير ودعاني إلى غرفته. شرحت له الأمر، وبعد خمس دقائق أخرى خرجت مع الموافقة على كلّ المبلغ الذي طلبته!

حين وصلنا إلى دمشق، توجّهت إلى مصرف سوريا المركزي للاستفسار عن أموال البعثة التي توقف إرسالها إلينا منذ شهور، ومن حسن الحظ أنّ لي قريباً يعمل في ذلك المصرف، وهو من الموظّفين المرموقين. أخذني إلى القسم الذي يتعاطى مسائل الإيفاد، فتبيّن لنا أنّ كلّ أموال الموفدين كانت ترسل بانتظام، ولم تتوقف أبداً كما كانت السفارة تدعي. وقيل لنا إنّ التفسير الوحيد لذلك هو أنّ الملحق الثقافيّ (أو من هو مسؤول عن تلك الأموال) كان يحتجز الأموال لديه لمدة أشهر قبل أنْ يدفع الرواتب. حين سألت عن سبب ذلك، ضحك قريبي وموظّف المصرف المركزي، وقالا لي 'فهمك كفاية!' هنالك عشرات الموفدين، فإذا احتفظ شخص بتلك الأموال لديه في المصرف، كانت الفائدة التي يجنيها تزيد عن راتبه، بغضّ النظر إنْ ترك الطلاّب عرضة للعوز والمهانة. بالنسبة إليه، "الملحق الثقافي" وظيفة تجاريّة، وليست لها علاقة بالثقافة والأخلاق. ويبدو أنّه على حق، لأن الإشاعات تسربت فيما بعد أنّ أحد موظّفي السفارة بقي في بريطانيا، وصار يملك فندقاً في وسط لندن.

قَيْدُ نُفُوْس

عدت إلى الوطن عام 1981، ومعي زوجتي، وابنتان، وشهادة الدكتوراة التي حصلت عليها من بريطانيا، وكنت مليئاً بالفخر والاعتزاز أنّي عائد لأسهم في تطوير البلد الذي طالما خفق قلبي له منذ الولادة في دمشق. كان من أهمّ ما يدعو إلى اعتزازي هو أنّي رفضت عرضاً مغرياً للعمل والبقاء في بريطانيا حتّى قبل الحصول على الدكتوراه، لكنّي اعتذرت لمن عرض عليّ ذلك العمل، وقلت إنّي أودّ العودة لخدمة بلدي.

حرصت على أنْ أنجز معاملاتي بسرعة لألتحق بمركز عملي المقرر، وأرتّب أموراً أخرى، بما في ذلك التحاقي بالمدرسة العسكريّة لأداء خدمة العلم الإجباريّة. ولا بدّ من الحصول على وثيقة "قيد نفوس" من دائرة الأحوال المدنيّة، لأنّها أساس لكل المعاملات.

توجّهت إلى شعبة دائرة السجل المدنيّ الخاصّة بمكان قيدنا، فوجدتها مكتظّة بطوابير المراجعين، لكنّي استرحت لمّا رأيت الناس تصطف وتنتظر دورها على الأقل. تبشّرت بالخير حين وجدت منضدة عليها نسخ من استمارات قيد النفوس، ولافتة تشير إلى ذلك، كما رأيت كلّ مراجع يسحب استمارة ويصطف بدوره. شعرت أنّ هذا تطوّر كبير عن آخر مرّة سبق لي خلالها زيارة هذا المكان، قبل خمس سنوات، حين كان المراجعون يتزاحمون أمام الكوّة التي تشكل منفذهم الوحيد إلى التعامل مع الموظّف الذي كان وجهه يظهر وراءها، وكان يصل إليه أوّلاً من دافَع ونهَر وسرق دور غيره.

سحبتُ إحدى الاستمارات، واصطففت في أحد الأرتال،

وبدأت أدوّن المعلومات المطلوبة، إلى أنْ وصلت إلى خانة تشير أنّها للاستعمال الرسمي، وهي ما سيثبّت فيها رقم السجل ومكانه بعد تدقيق القيود، ويتمّ عليها الختم والتواقيع الرسميّة. طبعاً حتّى ذلك الحين كانت تلك الوثائق تُملأ كتابة بخطّ اليد، أي لا تستعمل الآلة الكاتبة، ولم يكن الحاسوب قد دخل إلى تلك الدوائر. كنت سعيداً أنّني سهّلت مهمّة الموظّف، ووفّرت بعض الوقت لنفسي وللآخرين.

وصلت إلى نافذة الموظّف بعد انتظارٍ زاد عن الساعة. حيّيته، فردّ علي دون اكتراث، بل بمسحة من العنجهيّة، لكنّها لم تكن شيئاً يذكر مقارنة مع ما قام به حين سلّمته الوثيقة. نظر إلى الوثيقة فاستشاط غضباً، ونهض من على كرسيّه وخبط بيده، التي تحمل الوثيقة، على الطاولة بعنف اهتزّت له أرجاء المكان، والتفت إليّ قائلاً: 'يا كلاب يا حمير، كم مرّة قلنا لكم أنْ تتركوا الاستمارة لنا لنملأها، العمى شو ما بتفهموا!'

ذكّرني هذا الموظّف بالشرطي الذي تعاملت معه قبل سنوات (انظر "مفارقات بوليسيّة"). أذهلني تصرّفه، لأنّني حتّى لو اقترفت ما لا يرغب، ليس هذا هو أسلوب التعامل مع الناس. إذا لم يريدوا من المواطن أنْ يملأ الاستمارة، لماذا عرضوها على المنضدة بمتناول اليد، دون تنبيه إلى وجوب عدم تدوين أي شيء فيها؟ كان بالإمكان أنْ يحتفظ الموظّف لديه بهذه الاستمارات لينجز كلّ شيء بنفسه.

وبّخت الموظّف على قلّة أدبه، وارتفع صوتانا لأنّه ازداد وقاحة، إلى أنْ حضر مدير السجل ودعاني إلى مكتبه. هناك حضّر لي وثيقة كاملة وختمها وسلمها لي معتذراً، وفهمت من سياق كلامه أنّه عاجز عن توجيه موظّفيه لأسباب لا تخفى على أحد كما قال!

سيدني، 1993

تَحليق

ودّعت زوجتي في مطار ملبورن حيث كنّا نقيم عام 1989، إذ كانت مغادرة في زيارة إلى دمشق لإنهاء بعض الأمور العمليّة والماديّة بعد قرارنا الاستقرار في أستراليا. وعلى الرّغم من أنّه لم يمض على وجودنا هناك سوى أقلّ من سنة واحدة، كانت زوجتي سعيدة لزيارة الأهل الذين ترك فراقها لهم أعظم الأثر في نفوسهم ونفسها، كما هي حال كلّ من غادر لأكثر من مجرّد السياحة.

حرصنا، كعادتنا، على أنْ يكون الحجز موفّراً تماماً في كلّ مراحل الرحلة التي كانت على متن "الخليجيّة" من طريق البحرين، أي أنّ الطائرة تتّجه من ملبورن إلى المنامة، وهناك يقضي المسافر ليلتين قبل استقلال طائرة الخطوط السوريّة إلى دمشق. وكنّا نعلم أنّ أيّ تغيير في المواعيد قد يعني تأخر الوصول إلى دمشق لمدة تزيد عن اليوم، بسبب عدم توفّر الرحلات الواصلة بين البحرين ودمشق في ذلك الوقت.

طبعاً، ليلتان في البحرين كانتا مشكلة لكلّ المسافرين، لكنْ هذا ما كان متوافراً في ذلك الوقت للوصول إلى دمشق بطريقة وسعر معقولين. ولم تكن هذه بالذات مشكلة لنا لأنّ في البحرين عائلة من أعزّ أصدقائنا، رتّبت زوجتي أمر إقامتها معها على الرّغم من أنّ شركة الطيران تؤمّن المبيت للمسافرين مجّاناً.

كان لقاء زوجتي مع تلك العائلة التي سبق أنْ قضينا معها فترة خمس سنوات في بريطانيا في المدينة نفسها، والجامعة نفسها، لقاءً حميماً بعد افتراق أكثر من ثماني سنوات. وبعد يومين من الاستمتاع بذلك اللقاء والتعرف إلى المدينة، قام أصدقاؤنا بإيصال زوجتي إلى المطار فكانت هناك قبل ساعة ونصف من

الموعد المحدّد لإقلاع الطائرة.

دخلَتْ إلى المطار مرتاحة مستبشرة، ولم يكن على بالها سوى الإزعاج الذي ستسببه لذويها وأصدقائها الذين سيكونون في انتظارها في مطار دمشق بعد منتصف الليل، خصوصاً أنّ والدها المسنّ المريض أصرّ على أنْ يستقبلها في المطار. ولمّا وصلت إلى قسم المغادرة كانت تنتظرها مفاجأة كبرى: قيل لها إنّ الطائرة السوريّة غادرت منذ عشر دقائق، أي قبل موعد الإقلاع بأكثر من ساعة. وحين سألتْ كيف يمكن أنْ تغادر الطائرة قبل الوقت المحدّد بأكثر من ساعة، أحضروا لها المسؤولة عن شركة الطيران التي أفادت بأنّه حينما لم يجدوا زوجتي في عداد من حضر إلى الفندق، اعتبروا أنّها لم تحضر، وأعطوا الأمر بإقلاع الطائرة طالما أنّ عدد ركّابها اكتمل!

2

بعد سنتين من وجودنا في بريطانيا، وأنا أتابع تحصيلي العلمي في بعثة دراسيّة، قمنا بزيارة لدمشق عام 1978، وكانت زوجتي حينها حاملاً في شهرها السابع. فرحة الأهل كانت كبيرة طبعاً، وكنّا في غاية السعادة التي يشعر بها المرء وهو في كنف دمشق بحفاوتها وياسمينها وحبها. وكان لا بدّ من العودة إلى مهمتنا بعد أسابيع قليلة، فانطلقنا مع حشد من العائلتين والأصدقاء المودعين إلى المطار. بطاقات الطائرة مدفوعة بالكامل، على حساب البعثة كجزء من شروط الإيفاد الذي يُلزمني بعد الحصول على الدكتوراه بالعمل لدى الدولة (الشعب السوريّ) إلى أجل معين، ولذلك كان لا خيار لنا سوى شركة الطيران العربيّة السوريّة، وهذا فخر لنا، ولكن...

وصلنا إلى المطار، وبعد الوداع وإجراءات المغادرة الرسميّة، علمنا أنّ الظروف تقتضي أنْ يصطف المرء في طابور

يتوجّه بعده لحمل أمتعته بنفسه ووضعها في حاوية تنقل المتاع إلى الطائرة مباشرة، ويتوجّه الشخص بعد ذلك إلى سلّم الطائرة، وكل ذلك يحصل على أرض المطار تحت لهيب شمس الصيف.

دفعني حرصي على زوجتي أنْ أنتبه إلى تحركات المضيفات، وأرصد لحظة الإعلان عن بدء الاصطفاف الأوّليّ داخل مبنى المطار، قبل الخروج للتعرف إلى الأمتعة المرميّة على أرض المطار، ونقلها إلى الحاوية. لحظة الإعلان عن بدء العمليّة، نجحت في أنْ أكون الأوّل في الطابور المخصّص للرجال، لكنّ زوجتي لم تستطع اقتحام غيرها من النساء فجاءت في مركز متأخّر، وكنت ألحظ عليها علامات الإعياء. تكلّمتُ إلى المضيفة التي كانت على رأس طابورنا، شارحاً لها حال زوجتي، وأنّه لا بدّ أنْ تكون جانبي لأساعدها في نقل أمتعتها طالما أنّ الأوامر هي أنْ يتعرّف كلّ فرد إلى حقيبته. أكّدت المضيفة لي أنّها ستكلّم زميلتها المسؤولة عن الطابور النسائي لحل هذه المشكلة.

مضت أكثر من ربع ساعة ونحن ننتظر، دون أنْ يتحرك الطابور. كرّرت طلبي، وأكدّت أنّ زوجتي حامل، ولن تستطيع الوقوف أكثر، وأشرت إلى مكان وقوفها، وطبعاً لم يكن ليخفى على أحد من هي الحامل الوحيد بين حشد النساء، لكنّ المضيفة توجهت إلى جانب زوجتي ووضعت يدها على كتفها وكأنّها طفل صغير، وقالت تخاطبني عن بعد: 'أهذه هي زوجتك؟' قلت بالإيجاب، لكنْ لم يحدث أي شيء.

فجأة بدأت المضيفة تنادي بأعلى صوتها أنّ هناك تأخيراً، وعلينا الانفضاض إلى أنْ يأتينا خبر جديد. ما إنْ انفضّ الطابور، ووصلت مع زوجتي إلى أقرب مقعد، وما كادت تجلس حتّى جاء صوت المضيفة من جديد يعلن أنّه بإمكاننا العودة إلى الصفّ.

طبعاً كان أصدقاء المضيفة الآن في أوّل الطابور، وسيتجنبون المكوث طويلاً تحت وطأة الشمس، كما سيصعدون

أوّلاً إلى الطائرة، ويختارون ما يناسبهم من الأماكن، لأنّها لم تكن محدّدة مسبقاً.

تمت الولادة بخير في بريطانيا، وأستحضر هنا معاملة مغايرة تلقيناها في هولندة، حين صار عمر ابنتنا سنتين. توجهنا مع ابنتنا على متن سفينة تنقلنا من بلد إقامتنا في بريطانيا إلى ميناء روتردام الذي سوف ننطلق منه في رحلة أوروبيّة. حين رست السفينة، خرج منها مئات المسافرين، وانتظموا في أرتال محدّدة، وحين كنّا نأخذ مكاننا بينهم، وابنتنا في كرسيّها المتحرك ندفعها أمامنا، جاءت إحدى المضيفات بسرعة نحونا، تودّ مخاطبتنا، فأصابني نوع من التوجّس، لظنّي أنّها كانت تود تعريضنا لإجراءات خاصّة، ونحن نحمل في قسماتنا ملامح الشرق الأوسط، وفي أيدينا جوازات سفر سوريّة. قالت لنا بكلّ أدب: ’سيّدي، سيّدتي، معكما طفلة، تفضّلا معي.‘ ذهبنا خلفها، متجاوزين كلّ الطوابير، وسهّلت ختم جوازات سفرنا، وودّعتنا بابتسامة، وشكرتنا متمنّية لنا رحلة سعيدة.

3

بدأ نجم "الأماراتيّة" يعلو على أنّها أفضل شركة للطيران، وهناك رحلات مباشرة بين سيدني ودبي بشكل مستمر. كما أنّ الأسعار تنافس أفضل ماكان موجوداً في السوق. لذا تشجعنا مع كثير من الناس فاستخدمنا هذه الشركة مرّة بين سيدني ودبي، ثم تابعنا إلى أوروبا. الطائرات فخمة ومريحة، ومزوّدة بأحدث التجهيزات، ممّا أسهم في رحلة مريحة خلال المسافة الطويلة بين سيدني ودبي.

وفي زيارة إلى دمشق، قرّرنا استخدام الشركة مرّة أخرى، وهذه المرة في الذهاب والإياب بين سيدني ودبي، وكالعادة ننتقل من دبي إلى دمشق على متن ما هو متوفر من شركات. صادف أنّ

زوجتي وابنتينا أردنّ العودة إلى سيدني قبل عودتي بأسبوع. حين اتصلت للاطمئنان على وصولهنّ إلى سيدني، حذرنني من أنْ أقع بما وقعن به حين العودة من دبي إلى سيدني، فحين وصلن إلى مطار دبي قيل لهنّ إنّ الطائرة محجوزة بنسبة أكثر من نسبة استيعابها، وفعل كهذا من حقّ الشركة، وأنّهم على استعداد للحجز لهنّ في اليوم التالي، وتأمين المنامة . لكنّ زوجتي وبنتينا شننّ حملة من الاحتجاجات، خصوصاً أنّ كلّ واحدة منهنّ لا بدّ أنْ تعود إلى عملها في الموعد المناسب، وأنهنّ حجزن مقاعدهن على الطائرة منذ مدة طويلة، وأنّ تلك المعاملة لا تليق بشركة ذات سمعة حسنة كما هو الادّعاء، وإلى ما استطعن إليه من حجج دامغة. كانت النتيجة أنْ قبلت الشركة، وتركتهنّ يتابعن الرحلة كما سبق أنْ خططن لها.

حين جاء موعد رجعتي، تعمّدت أنْ أكون في مطار دبي قبل خمس ساعات من موعد الإقلاع حتّى أضمن سلامة الحجز، على الرّغم من أنّه جرى منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ولدي البطاقة التي تؤكد أنّ كلّ شيء على مايرام بالنسبة إلى موعد وتاريخ الرحلة. حييت موظّفة الشركة، ولم يكن أحد غيري ينتظر. قالت لي إنّني لا أستطيع المغادرة في هذه الرحلة، وستحجز لي في رحلة أخرى ربّما غداً. رفضت الأمر رفضاً قاطعاً، وقلت إنّ أشغالي لا تسمح لي بذلك. قالت إنّها لا تستطيع فعل شيء، ولا بدّ من أنْ أتكلّم إلى مديرها. قلت حسناً، ليأت المدير. قالت إنّه لن يأتي قبل أربعين دقيقة على الأقل، وطلبت منّي أنْ أستريح في مكان آخر. رفضت مغادرة المكان، وقلت إنّي منتظر هناك، ولن أقبل لها أنْ تتعامل مع أيّ مسافر آخر قبل حل مشكلتي. وقفت كلّ الفترة، إلى أنْ حضر المدير الذي حاول أنْ يفسّر لي أسباب هذه المشكلة، لكنّي لم أفهم منه شيئاً، بل كان جليّاً لي أنّه يختلق قصصاً لتبرير ما يريدون القيام به، دون أنْ أدرك سبب ذلك، على الرّغم من مضايقة الزبائن وإضاعة الوقت، لأنّني طبعاً لم أكن أنا المستهدف

الوحيد. بعد أخذ وردّ، استمر فترة غير قصيرة، عرض عليّ أنْ يضعني على رحلة أخرى تنطلق بعد ساعة من رحلتي، لكنّها تصل إلى سيدني قبل رحلتي الأصل، لأنّها رحلة دون توقف. قلت له إنْ كان الأمر كذلك فلا بأس. وحين ذكّرته بأمتعتي، وأنْ لا يختلط الأمر بين الرحلة السابقة والحاليّة، خصوصاً أنّ الأمتعة تنتقل من طائرة دمشق إلى طائرة دبي مباشرة، سألني إذا كانت معي حقيبة سفر. أعربت عن استغرابي لسؤاله، وذكرت له أنّني كنت للتوّ ألفت نظره إلى ذلك، وشرحت له أنّه من البديهي أنْ يحمل الإنسان حقيبة سفر إذا كان مسافراً، خصوصاً إذا كان المشوار بين سيدني ودمشق، وأنّ من يسافر هذه السفرة، يمضي في البلد التي يزور أسبوعاً على الأقل، ولا بدّ له أنْ يحمل ما يكفي من الثياب. واستغربت كثيراً حين قال لي إنّه بإمكاني البقاء على رحلتي المقرّرة سابقاً طالما أنّ معي حقيبة سفر.

وهكذا، وبعد مضي أكثر من ساعتين، عدنا إلى حيث ابتدأنا، وكأنّ شيئاً لم يكن، سوى أنّ أمراً كان من الممكن أنْ يُقضى خلال خمس دقائق، استغرق ساعتين، واستنزف جهداً وضغطاً نفسيّاً كبيرين.

بعد اطمئناني على سلامة رحلتي، ذهبت ثانية إلى ذلك المدير، وما أنْ رآني متّجهاً نحوه، ترك عشرات المراجعين، واتجه نحوي محاولاً تلافي أيّ حوار أمام حشد المسافرين. طلبت منه أنْ يشرح لي، من باب العلم بالشيء، سبب كلّ هذا الذي يحدث، خصوصاً أنّ النتيجة بيّنت أنّه لا فائدة ممّا يقومون به. لفّ ودار، وحدثني عن وصول طائرة أصغر ممّا كان مقرراً، وعن أمور أخرى لم أفهم منها شيئاً، وحين واجهته بأنّ الشيء نفسه حدث مع عائلتي منذ أيّام، وأنّني لا أستطيع تصديق أنّ شركة عالميّة محترمة تترك الأمور لمثل هذه الفوضى، زاد حديثه غموضاً. بالنتيجة، تركته دون أنْ أفهم واقع الأمر، لكنّني كنت على يقين أنّ هذه الأمور لا يمكن أنْ تقوم بها الشركة في مطار مثل مطار

سيدني، وأنّني لن أستعمل هذه الشركة مرة أخرى طالما توفر أيّ بديل.

4

دُعيت في الثمانينيات من القرن العشرين من قبل جامعة بريطانيّة لإلقاء محاضرة عن أبحاث سبق أنْ قمت بها، ففرحتُ لتلك الدعوة لأنّني كسوري سأشارك نخبة من العلماء الأوروبيّين في ذلك المؤتمر. ورحّب المركز العلمي الذي أعمل لديه في دمشق بالفكرة، بل وافق على إيفادي من أجل تلك المهمة، وأمّن لي بطاقة السفر على متن شركة الطيران العربيّة السوريّة.

علم بعض الأصدقاء بسفري، فكلّفني أحدهم بنقل عيّنات طبيّة مأخوذة من جسم قريبة له مصابة بمرض عضال، ولا يمكن إجراء التحاليل المطلوبة سوى في لندن. العيّنات يجب أنْ تنقل مبرّدة في حاوية خاصّة، ولهذا اتّفقنا على موعد استلام العيّنات قبيل مغادرتي منزلي مباشرة.

وصلت إلى مطار دمشق وفوجئت أنّ عدداً كبيراً من المكتتبين على الرحلة نفسها لن يتمكن من المغادرة، وسرت شائعة أنّ الطائرة التي جهزت لهذه المهمة أصغر ممّا كان يجب.

استرعى انتباهي رجل يدور في المكان وكأنّه سلطان زمانه، يروح جيئة وذهاباً، ويدخل بين الحين والآخر إلى غرفة صغيرة، فيتبعه رجل أو أكثر ممّا كان يبدو أنّهم من رجال الأعمال. حين خرج أحدهم سألته إنْ كان يعرف ما يجري، قال إنّه دخل واشترى بطاقة درجة أولى ليستطيع السفر في تلك الرحلة.

حين خرج "السلطان" تبعته وتكلمت معه شارحاً المركز العلمي الذي أعمل لديه، ومشكلة العيّنات الطبيّة التي أحملها، وأنّني موفد رسمي، قال إنّه لا يوجد أماكن على الطائرة، لكنّه سيرى ما يستطيع أنْ يفعل، وتركني باستعلاء شديد.

أمضيت فترة وأنا أشاهد عدداً من المواطنين يدخل الغرفة الصغيرة، ويخرج منبسط الأسارير، لكنّني ما علمتُ كم عدد الذين استطاعوا السفر دون أنْ يكون لهم اكتتاب مسبق.

غادَرَتْ الطائرة، ولا زال عدد كبير ينتظر ظنّاً منهم أنّها لازالت جاثمة على أرض المطار، وعدتُ خائباً. أرجعت العيّنات التي صارت عديمة الفائدة إلى صاحبتها، واتصلت بزميل بريطانيّ وكلفته إلقاء المحاضرة عني.

كانَ فَجْراً قصيراً

أطلّ الحاجّ بشير من إحدى نوافذ الطبقة العلويّة من منزله والمشرفة على فناء داره العربيّة الأصول الشرقيّة الملامح، ونظر إلى السماء يتفحص لون اللانهاية مترقّباً أذان الفجر. سرت في جسمه قشعريرة من نسائم باردة، ومن هدوء عميق كان يخيّم على تلك اللحظات النشطة من حياته. ومع أنّه ظلّ يزاول هذه التجربة الحسيّة على مدى السنين، لم يستطع أنْ يجد في السماء لوناً يتغيّر فيعتمد عليه في تحديد لحظة أذان الفجر، أو نجماً يبتسم له فيقول: فجراً سعيداً أيّها الحاجّ. ومع هذا كان يردّد في زوايا تفكيره ’سبحان مالك الملك‘، كلّما رمى بأنظاره العميقة في أبعاد الفضاء، وكان يبتسم راضياً عن نفسه لأنّه كان يشعر بأنّه يكرّس الكلمات المقدسة: ’وتأمّلوا في خلق السموات والأرض...‘ أمّا بالنسبة للأذان، فإنّ صوت المؤذّن يبقى هو الحكم النهائيّ على صحّة التوقيت. أمّا كيف يعرف المؤذّن متى يجب أنْ يؤذّن، فهذا شيء لم يسرح فيه خيال الحاجّ، بل كان همّه الأكبر كلّ صباح أنْ يوقظ زوجته الحاجّة سميّة، ثم ينزل إلى فناء الدار ليتوضأ من ماء البركة المتربّعة في الوسط. ومع أنّ الماء الساخن متوفّر في الطبقة العلويّة من الدار، فإنّ الحاجّ كان موقناً بأنّ الثواب هو على قدر المشقة، وأنّ عليه استعمال الماء الطبيعيّ البارد حتّى في أيّام دمشق الشتويّة القارصة.

كان بعد أنْ يتوضأ، ويتمتم بآيات الشكر والحمد والثناء على الله والأنبياء وخاتم الأنبياء، وعلى الأولياء والخلفاء، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، يرفع رأسه باتجاه النافذة المفتوحة في الطبقة العلويّة منادياً الحاجّة:

— يا أمّ توفيق... يا أمّ توفيق... أنصتي للفجر... وخبّريني.

ولم تكن الحاجّة سميّة بحاجة لهذا التذكير الذي سمعته آلاف المرات... بل إنّ عملها الوحيد من لحظة إيقاظ الحاجّ لها وحتّى سماع أذان الفجر، هو الإنصات للحظة الأذان. وكان هذا واجباً عليها لا مفرّ لها منه، بعد أنْ احتفظت السنين الطويلة بمعظم صحة الحاجّ خلا بعض المشكلات، ومنها ضعف قدرته على سماع الأذان الذي يتردد من مآذن المسجد الأمويّ. ولا عجب في ذلك، فإنّ الحاجّة التي تصغره بثلاثين عاماً تلاقي بعض الصعوبة أحياناً. ولكنّها كانت دائماً تنتظر لحظة الفرج بصبر، فما أنْ تسمع الصوت المتردّد من أعماق الفجر الساكن حتّى تخبر الحاجّ وتتمتم إلى نفسها بأنْ ياليت الحاجّ يؤمن بأنّ التوقيت المكتوب في التقويم هو صحيح، ولربما كان المؤذّن نفسه يعتمد على أيّ تقويم متوفر لديه. أمّا الحاجّ- 'أعانني الله عليه'- فكان لا يؤمن إلاّ بذلك الصوت الرخيم الذي ما عاد يسمع منه في الفجر إلاّ صدى ذكريات خلت.

عندما اطمأن الحاجّ بأنّ زوجته قد نهضت من فراشها، توجّه بقامته الطويلة النحيلة يجرّ قدميه في قبقاب خشبيّ من صنع أحد مشاغل "القباقبيّة"، جانب المسجد الأمويّ، سبق أنْ ابتاعه منذ ما لا يدريه من السنين، توجّه نحو الدَرج الذي يوصله إلى فناء الطبقة الأرضيّة من الدار، وبدأ الهبوط بخطوات رتيبة الوقع، وعلى طريقته الخاصّة، تلك الطريقة التي صار الفجر متعوّداً عليها منذ دخل الحاجّ في سنوات حياته الشيخة.

رفع طرف قنبازه الأبيض المقلم بخطوط منقّطة رماديّة اللون بيد، واعتمد بيده الأخرى على حافّة الدرج، ثم نقل قدمه اليمنى إلى أوّل درجة، وتبعها بالقدم اليسرى إلى الدرجة نفسها، ثم توجّه باليمنى إلى الدرجة الثانية، ثم تبعها باليسرى، وهكذا... وكان خشب القبقاب العريق الذي يطأ خشب الدرج مع كلّ

نقلة يكسب الفجر إيقاعاً خاصّاً يستمر حتّى يصل الحاجّ إلى فناء الدار المكشوف، فيتغير الإيقاع، وتتسارع الأقدام، وخشب القبقاب يشحط شحطاً على بلاط الباحة.

توضّأ الحاجّ بسرور عميق. ولولا رتابة الوضوء وروتينه لبدا الحاجّ وكأنّه طفل يحب العبث بماء البركة. استدار ورفع يديه المبتلتين عن جسمه، وأدار رأسه منادياً زوجته أنْ أنصتي لأذان الفجر، ثم توجّه إلى غرفة كان يؤدّي فيها فرائضه. كان عليه حتّى يصل إلى الغرفة أنْ يصعد درجتين من الحجر الأسود فيما هو رافع بيديه، وكان هذا يتطلب منه بعض الجهد، ويأخذ منه بعض الوقت، حتّى يصل إلى منشفته فيجفّف نفسه، ثم يركن إلى زاوية الغرفة، ويقعد على أرضها فتقعد معه ست وتسعون من السنين، شهدت الاحتلال العثمانيّ، والحربين العالميتين، ثم الاحتلال الفرنسي لبلاده، وإنجابه أحد عشر ولداً، وإنجاب كلّ منهم أكثر من نصف دزينة من الصبايا والصبيان، وآخر ما فيها - وليس الأخير - اختراع ذلك التلفاز العجيب الذي أصرّ أحفاده على إدخاله إلى البيت حتّى تتسلى زوجته التي 'مازالت في ريعان السادسة والستين'. كانت هذه الأفكار تترامى إلى رأسه وهو يفتح القرآن ليباشر قراءته اليوميّة قبل صلاة الفجر.

وضع القرآن بين يديه، وقبل أنْ يباشر بفتحه تراجعت إلى مخيّلته مناقشة حادّة جرت بينه وبين حفيده رؤوف، وكانت كالعادة مناقشة بين ستّ وتسعين من سنوات التحفّظ والتديّن، وبين سنوات عشرين من التحرّر والثورة على التقاليد. كان الحاجّ كلّما تذكّر كلمة من كلمات رؤوف، يرفع رأسه إلى الله مخاطبه أنْ سامحه واهده إلى صراط مستقيم. ولكنّ الحاجّ ما يلبث أنْ يتذكر فحوى كلمات حفيده الذي أحبّ أكثر من كلّ أحفاده، وفضّله عليهم أيّما تفضيل، غير أنّه ما كان ليتوقّع أبداً أنْ يكون رؤوف، المتقّد الذكاء، والشديد الوسامة، والعظيم الأدب، السبّاق إلى الثورة على العرف والتقاليد. ويبتسم الحاجّ فجأة حين يتذكر قول

رؤوف له: 'ياجدّي إنك إنسان عظيم، فعلى الرّغم من كلّ أفكارك تنصت إليّ وتناقشني بصبر طويل. أمّا غيرك من الشيوخ فلا مجال لنا في الكلام معهم، بل يتشاطرون برمي التهم والادّعاءات على الشباب وعلى أفكارهم، دون فهم نفسيّاتهم ومتطلبات عصرهم الجديدة.'

'عفوك يا ربّ،' قال الحاجّ في سريرته، وهو يشعر أنّ كلام حفيده بدأ يفعل في نفسه فعل الرشوة. ولكنّ الحاجّ كان على كلّ حال فخوراً جدّاً بأنّه الوحيد من شيوخ الحيّ الذي اشتهر بانفتاحه على الشباب الثائر. وكان الحاجّ دائماً عرضة للانتقاد من أقرانه الذين شنّوا حرباً سوداء على هؤلاء "المراهقين". كان الحاجّ يتلمس في قرارة نفسه فرقاً واضحاً بين المراهقة وبين الثورة والتغيير، وكان مستعداً للنقاش، وكان عادة من أبرع من يناقش دفاعاً عن العرف والتقاليد.

— يا حاجّ... يا حاجّ... الفجر الفجر يا حاجّ...

لقد سمع الحاجّ بأذنيه نداء زوجته الذي صار روتيناً يومياً، ولكنّه كان شارد الذهن في تلك المناقشة الحادّة التي كانت عائقاً بين الأذنين والقلب. ففي تلك اللحظة بالذات كان يفكّر بالذي قاله رؤوف عن الوجود والعدم... كان يفكّر في تلك الكتب التي كان يجلبها رؤوف له ويقول له: 'يا جدّي سأقرأ القرآن مرّة كاملة كلّما قرأتَ كتاباً من هذه الكتب!' كان يتذكر كيف أنّه تعرف إلى هيجل وماركس وسارتر وفرويد عن طريق حفيده رؤوف. وهو وإنْ لم يفهم ماهيّة هؤلاء القوم، فعلى الأقل قد سمع بهم، وساعده رؤوف في فهم الكثير عنهم، ولكن تبقى أفكارهم غريبة جداً عليه. ومع هذا فقد تحرّك عقله الآن بمشكلة جديدة. مشكلة فتحها عليه ذلك "اللعين الصغير" الذي جاء يتكلّم عن المنطق العلميّ وعن داروين... عن عدم قبول الأشياء كما وردت، بل التفكير في لماذا وردت، وكيف وردت. على كلّ حال كان فرحاً بأنّ أقرانه الشيوخ لا يفقهون شيئاً من هذه المسائل الغريبة العجيبة. أمّا هو

فصار يعلم. وكان ما يزعجه أنّه تعلّم هذه الأشياء من حفيده "الصغير". آه من ذلك اللعين. لقد كدّر عليه صفو دينه ودنياه. فها هو الحاجّ الآن ينظر إلى عشرات السنين الماضية، وهو يعلم أنّ كلّ شيء قد لا يكون سوى الوهم. يا ليته لم يناقش رؤوف، ويا ليته بقي على ذلك "الوهم الكبير".

وبدا للحاجّ فجأة أنّه بدأ يتحدث عن كلّ معتقداته بصفة الوهم!

تسارعت دقّات قلبه، وارتعشت حناياه لهذا التفكير، واستغفر الله كثيراً، وهرع يفتح القرآن... وكم كانت دهشته عظيمة حينما وجد أنّ بعضاً من السطور قد أنارته خيوط الشمس التي بدأت تتسرب من نافذة مخدعه. مرّر كفّه على صلعته، ثم مسح وجهه بكفّه ضاغطاً ببعض أصابع يده على عينيه، ونظر مجدّداً إلى صفحات الكتاب وقد أضاءتها الشمس. قام مذهولاً إلى باب الغرفة... حافي القدمين... وهو ينظر إلى النور الذي جاء من المشرق.

نظر إلى زوجته التي بدأت بخبز ما سبق أنْ عجنت، وعلم في قرارة نفسه أنّ زوجته ما كانت لتعجن العجين لو لم تؤد صلاة الفجر أوّلاً. كان هذا التقرير الضمنيّ تأكيداً له على أنّ الفجر قد ولّى إلى غير رجعة، وكأنّ خيوط الشمس لم تكن كافية لتؤكّد له مع كلّ شعاع أنّ صلاة الفجر قد فاتته للمرّة الأولى منذ أنْ بدأ الصلاة في كنف والده، وهو لا زال في السابعة من عمره.

بينما كانت الدموع الجارحة تترقرق في عيني كبريائه وصموده، كان عشرون مارداً عملاقاً يقرعون طبولاً مدوّية في رأسه، ويصرخون بصوت شابّ واحد: ’لقد كان فجراً قصيراً يا جدّي!‘

نُجُومُ اللَيل

رفع الحاجّ صبحي رأسه إلى السماء بعد أنْ فتح قفل متجره، ورفع "الغلق" فقال: 'يا رزّاق يا كريم، إجعل هذا النهار مباركاً بجاه رسولك الحبيب، وقنا شرّ الحسّاد ومكر الأوغاد، وقدّرنا على فعل الخير، إنك سميع مجيب.' ولقد ردّد الحاجّ هذه المقولة كلّ صباح منذ تسلّم ذلك المتجر عن أبيه قبل ثلاثين عاماً. وكان بعد أنْ يرتّب واجهة المتجر يخرج إلى فناء الخان، ويقف أمام البركة التي تتوسط فسحة المكان، فيحتسي فنجان القهوة الذي يعده له "قهوجي" المنطقة الذي يخدم أصحاب المتاجر الواقعة في هذا الخان الأثريّ القريب من سوق الحميديّة. وأثناء وقفته تلك، يبادل جيرانه التحيّة الصباحيّة، وهم يتوافدون واحدهم تلو الآخر، فيختلط صوت رفع الأغلاق بصوت التحيّات.

أصحاب المتاجر في ذلك الخان باعة "مفرق"، بمن فيهم الحاجّ صبحي، عدا واحد منهم يسمونه "الحاجّ بالوع"، يستورد البضائع من مدينة حلب، ويبيعها لبقيّة التجّار بالجملة. وكان أكثر ما يستهوي التجّار أقمشة "البروكار" المقصّبة التي اشتهرت حلب بإنتاجها؛ فما أنْ تصل شاحنة جديدة حتّى يهرع التجّار إلى دكان الحاجّ بالوع للتزوّد بأثواب القماش، واحتكار أكبر عدد ممّا يعتبرونه بضاعة قابلة للتصريف السريع، والربح الوفير.

كان الحاجّ صبحي على خلاف عريق مع أحد جيرانه الذي دأب على تزوير بعض منتجات الحاجّ صبحي الخاصّة، والإساءة إلى سمعته. ولما كان الحاجّ صبحي ابن نِعَم توارثها أباً عن جدّ، لم يكن من النوع الذي يستطيع المواجهة المباشرة، بل عَمِدَ إلى طرق غير مباشرة في الدفاع عن النفس، مثل البذخ في توفير

البضائع، الأمر الذي كان يستهوي الزبائن، خاصّة أبناء لبنان الذين كانوا يقدمون إلى دمشق فيتبضعون، ويشترون، ثم يتلذّذون الأطايب بفرق العملة كما يقال. كانت الليرة اللبنانيّة في الستينيّات من القرن العشرين تزيد في قيمتها كثيراً عن شقيقتها السوريّة، وكان الحاجّ صبحي يفتخر بأنّ زوجته لبنانيّة، فما ادّخر فرصة إلاّ وذكر ذلك أمام زبائنه اللبنانيّين، وعبّر لهم عن حبه لنصفه الآخر لبنان، ولهذا السبب خصم لهم ما تيسر من الأسعار، وأكرمهم بالضيافة، ممّا جعله أفضل زبائن القهوجي على الإطلاق.

حين دخل الحاجّ صبحي الخان ذلك الصباح، حاد ببصره، كعادته، بعيداً عن أنظار جاره العدو، بيد أنّه ما كان بوسعه سوى المرور أمامه لأنّ متجر الجار يقع على مدخل الخان. كان يوم أحد، وأهل الخان كلهم ينتظرون وفود اللبنانيّين على أحرّ من الجمر. يوم الأحد، بالنسبة للحاجّ صبحي، يوم سعد! كان واثقاً من أنّ سمعته ومعرفته لعديد من اللبنانيّين سلاحان كافيان لجذب أكبر عدد منهم، وفقء عيني جاره الحسود. السؤال طبعاً، كم من الزائرين سيتحول إلى شارٍ، وكم منهم سيتناول الضيافة ويغادر.

تناول الحاجّ قهوته وهو يرسم في مخيلته استراتيجيّة اليوم: سيستقبل الزبائن ويريهم البضائع، ويطلب الضيافة لهم، ويتمنّى لهم يوماً سعيداً، وعودة ميمونة إلى لبنان. كيف سيتجاوب معهم إذ يحدّثونه عن شقاء السفر، والعودة في يوم واحد، مع ما يرافق ذلك من فترة انتظار صعبة على الحدود، وكيف سيبتسم لهم حين يذكرون له أنّ ما يحصلون عليه بالنتيجة يستأهل العناء. وسيتحلّى بالصبر العظيم حين تتحدث إليه بعضهنّ استعلاءً وكبرياءً على أنهنّ بنات فلان، وأخوات علاّن، من مناطق تلك وكيت، وكيف أنّه في النهاية سيفجّر بين أيديهنّ قنبلته الموقوتة التي يدّخرها لآخر الحديث، فيكشف لهنّ عن حَسَب زوجته ونسبها، فتبهت السامعات له إذ يكتشفن أنّها من عائلة عريقة واسعة الثراء والسمعة والسطوة. يضحك الحاجّ بينه وبين نفسه، ويشعر

بالانتصار، مع أنّ اليوم لم يبدأ بعد، وغلّته لم يدخل عليها قرش واحد.

ها هو هذا يعيد فنجان القهوة إلى دكّان القهوجي، فتصادفه أوّل مجموعة من الزبائن والساعة لمّا تتجاوز التاسعة والربع صباحاً. 'تفضلوا، يا أهلاً وسهلاً بالإخوان والأهل. يا حلّت البركات. شرّفتم أرضكم وبلدكم، ونوّرتم المحل.' وصل مساعده في العمل في الوقت نفسه، كما هرع صبي يكنس المتجر، ويرش الأرض بالماء لمنع الغبار وتلطيف حرارة الجو.

يوم من أيّام آب اللّهاب في دمشق. وبين عشرات اللبنانيّات المترددات على المتاجر، لا بدّ أنْ تصادف تلك التي زادت تبرجاً وزينةً، وتبياناً لما تيسّر من مفاتنها بشكل لا يمكن لمثيلتها الدمشقيّة محاكاته. ولهذا كانت عيون التجّار تكاد تنبثق عن محاجرها انبثاقاً كلّما مرّت واحدة من صاحبات تلك المواصفات، فتبدأ سلسلة الغمز واللمز، والأحاديث بالألغاز الرجاليّة تلميحاً إلى حسن ما يرونه، وترويحاً عن أنفسهم المتعطشة التي ليس لها إلى النبع من سبيل سوى "فشّة الخلق" بالحديث عن "القشدة"، و"العسل"، و"سبحان الخالق"، و"يا محمّد العربي"، و"دخيل على عيسى وموسى أنا"، وما إلى ذلك. كان على الحاجّ صبحي أنْ يصابر النفس في أمرين: الأوّل كرهه الشديد لتلك الأساليب التي كان يعتبرها قلّة في الحياء من قبل أقرانه، والثاني تلك الغريزة اللعينة الكامنة في نفسه، والتي توافق على كلّ ما يُلْمِحون إليه! 'لا حول ولا قوّة إلاّ بالله،' ويغضّ الحاجّ من بصره ويركّز على زبائنه الكرام.

حين اقتربت الساعة من العاشرة والنصف صباحاً، تنبّه الحاجّ إلى توقّف الجلبة الاعتياديّة من نقاش وغمز ولمز، ومناداة على البضاعة، فبدا أهل الخان وكأنّ على رؤوسهم الطير! دخلت الخان امرأة لم يشهد المكان لها مثيلاً. وحسب تعليق الحاجّ صبحي فيما بعد، وكانت المرّة الأولى التي يشارك فيها بتعليق من هذا النوع، لا شكّ أنّ والده رقص في قبره على وقع أقدام تلك

المرأة. القوام كقوام نجوى فؤاد، والوجه كوجه هند رستم، والشعر كثيف ذهبيّ مرميّ على الأكتاف، يكاد يطول أسفل الظهر، والأوراك تتراقص ذات اليمين وذات اليسار، صعوداً وهبوطاً، على أنغام "الكعب العالي" الذي كانت كلّ طرقة منه تقع على أرض الخان، وكأنّها ضربة سكين تنغرس في قلب كلّ رجل وقف مشرئب العنق، لاهث الأنفاس، وهو يترصد هذا الجواد الأبيض الأصيل يمشي واثق الخطوة في اتجاه دكّان الحاجّ صبحي.

بدأ أهل الخان من التجّار الناضجين، ومساعديهم الشباب، التظاهر بأنّ لديهم أعمالاً خارج الخان، فكانوا يدخلون ويخرجون، مارّين بدكّان الحاجّ صبحي، ليلقوا نظرة على تلك المهرة الأصيلة، التي وصلت الجرأة بها أنْ تجلس وتشعل لفافة تبغ، وقد التفّت الساق على الساق، وإلى فوق الركبة بكثير كان المساق.

حين بدأت السيّدة الكلام، أحسّ الحاجّ صبحي بأنّ شلاّلاً من الياسمين يغسل كلّ ناحية من نواحي بدنه الذي عاد لا يستطيع احتمال دقّات قلبه المتلاحقة انشداداً إلى عذوبة التعابير التي انطلقت من شفاه مرسومة بريشة الشهوة العارمة. حدّثته السيّدة كيف أنّ فلانة بنت فلان، من الضيعة الفلانيّة في لبنان، دلّتها على متجر أفضل إنسان، لتشتري كميّة من أفخر ما تنتجه سوريا من البروكار المقصّب. وتريد السيّدة انتقاء القماش، ودفع ثمنه على أنْ ترسل من يحضره لاحقاً، إذا لم يكن لدى الحاجّ ما يمنع ذلك. ابتسم الحاجّ وأخبرها أنّ المتجر متجرها، وباستطاعتها إبقاء القماش أمانة لديه إلى ما تشاء وترضى.

بدأ الحاجّ يختار أثواب القماش بنفسه، ويفردها أمام ناظري المرأة، بينما كان مساعداه مشغوليْن بعدد لابأس به من الزبائن. كان الحاجّ يفرد ثوب القماش قليلاً، و"يلبّق" القماش على جسم السيّدة التي كانت تستدير نحو المرآة الكبيرة، التي تغطي معظم الباب الذي يفصل المتجر عن مستودع داخليّ، لتنظر إلى

نفسها وهي تكيّف القماش ليطابق جسمها. كان الحاجّ كلما اقترب لتسليمها طرف الثوب ومساعدتها في مدّ القماش على كتفها، يتَنَشّقُ، بكلّ ما لدى أنفاسه من عزيمة، ذلك الأريج المعطر الذي كان ينبعث من زوايا جسمها.

بعد أنْ اختارت عشرات القطع، قالت للحاجّ إنّها تريد الآن اختيار قطعة خاصّة جداً لها، تأخذها مباشرة، وسألته أنْ يريها إنْ كان لديه ثمّة ما هو أفضل وأجمل ممّا رأت. أجابها الحاجّ أنّ كلّ ما اختارته جميل وجيّد، لكنّه احتفظ بأحد الأنواع للخاصّة من الزبائن المداومين، لأنّه يعتبره مميزاً وقد لا يتكرر، كما يسعده عرضه عليها لأنّها لا بدّ أنْ تكون منذ اليوم زبونة مميّزة. ابتسمت السيّدة شاكرة، وأكدّت أنّ زيارتها الأولى هذه لن تكون الأخيرة.

حين فرد الحاجّ القماش، نظرت المرأة إليه بشغف شديد، وعيناها تلمعان لمعان من وجد كنوز سليمان، وقالت: 'يا عيني، ياعيني، ياسلام! ما هذا القماش الرائع يا حاجّ؟'

- صحيح، صحيح، إنّه أجمل وأغرب ما تم إنتاجه هذا العام، بل هو في نظري أجمل ما رأيت طيلة حياتي. كما ترين، الخلفيّة سوداء، وهذه الدوائر الدقيقة، الخضر والحمر والزرق والفضيّة، تتبعثر كأنّها المجرات في عرض السماء، في مساء صيفيّ. لهذا يسمى هذا القماش "نجوم الليل"، وهو خروج من النقشات التقليديّة التي اعتدنا عليها.
- يا عيني، يا عيني! أريد من هذا القماش ما يكفيني لثوب "سواريه". بكم المتر يا حاجّ؟
- المتر، لك أنت، بسبع ليرات سوريّة فقط يا سيّدتي الكريمة.

قصّ الحاجّ قطعة القماش، وبارك للسيّدة متمنياً لها أنْ يكون ملبوس هناء وسعادة.

أنهت المرأة شرب فنجان القهوة الذي قدمه الحاجّ لها، وشكرته على معاملته وكرمه، وخرجت من المتجر تحمل قطعة القماش الأثيرة. الابتسامة على وجهها، وخطواتها تتناغم كما كانت حين دخلت الخان، فلحقتها عيون أهل الخان، وارتمت وراءها أفئدتهم من دون أنْ تستطيع إدراك المنال!

أشعل الحاجّ صبحي لفافة تبغ، وسحب من دخانها ما يكفل ملء رئتيه، وهو يتأمّل فنجان القهوة المهجور، وقد انطبعت على حافّته آثار شفاه دسمة، ثم زفر كلّ ما احتوته أنفاسه وهو يسترخي على كرسيّ مكتبه استعداداً لـ"مجّة" ثانية من الدخان، قبل مواصلة نشاطه مع زبائن آخرين. ما كان تأثّره هذا خافياً على مساعديْه اللذين ما شهداه على هكذا انفعال من قبل، ولكن أنّى لأيهما الجرأة على التعليق.

حين خرجت السيّدة، تأمّلها الجار الغيور بحسد وخيبة أمل، فلكم تمنّى لو أنّها زارت متجره، وهو أكثر شباباً من الحاجّ صبحي. كما أنّه استطاع، من خلال اختلاسه النظر إلى دكّان الحاجّ، ومن المدّة التي قضتها السيّدة داخل المتجر، أنْ يستنتج أنّها زبونة دسمة بكل المقاييس. قرّر أنْ يمارس أساليبه، فأخبر شركاءه أنّه ذاهب وراء السيّدة التي لا بدّ أنْ تلتقي مع رفاق رحلتها في مكان ما من سوق الحميديّة، ربّما عند "بكداش" بائع البوظة، وعندها سيحاول استمالتهم إلى متجره.

مضت ساعتان، ولقد جلس الحاجّ إلى مكتبه الآن يحتسي الشاي بعد وقوف متواصل طيلة ذلك الصباح. وبينما هو يرفع الكأس الذي أمسك بين إبهامه وسبّابته، ويهمّ باحتساء جرعة جديدة، رنّ في أذنيه وقع أقدام السيّدة نفسها، لكنّ طرب قلبه ما استمر طويلاً. ما إنْ رفع رأسه حتّى لاحظ أنّ الفرس البيضاء الأصيلة قد احتقن وجهها غضباً، وصارت أشبه بثور هائج. اندفعت المرأة إلى المتجر وهي تردّد، بنبرة حادّة، عبارات لا تتناسب مع رشاقتها ومظهرها، تعاتب فيها الحاجّ على غدره واحتياله، إذ

باعها قماش "نجوم الليل" بضعف السعر، وأنّه لولا العيب والحياء لأرته "نجوم الظهر". وبين دهشة أهل الخان الذين وصلت إليهم أصواتها، وشماتة جاره الغيور الذي كان يتوقّع هذه الملمّة، تمالك الحاجّ أعصابه، وهذا أمرٌ نادر إذا ما تعرض للإهانة، وأشار إلى المرأة بهدوء أنْ تستريح و"تروّق" أعصابها، وتعطيه فرصة اكتشاف ما حدث. سأل مساعده أنْ يحضر للسيّدة ما تشاء من عصير أو قهوة، أو حتّى كلا الاثنين معاً. مانعت المرأة أوّلاً، ثم رضخت لإصرار الحاجّ، فطلبت فنجاناً من القهوة "سادة"، ولم تتردّد بقبول لفافة تبغ من الحاجّ الذي ما قدم لفافة تبغ لامرأة من قبل. سألها بلطف أنْ تتكرّم فتسرد عليه الحكاية، "من طأطأ لسلام عليكو".

- ياحاجّ، بعتني متر قماش نجوم الليل بسبع ليرات، وأنا لم أساومك لأنّي حضرت إليك واثقة من معاملتك، لكنّني اكتشفت أنّ سعر المتر من هذا القماش خمس ليرات فقط، ولهذا لم أعد الآن على ثقة بأنّ بقيّة ما اشتريت من عندك يناسبني.
- يا سيّدتي، وهل اشتريت أشياء أخرى من حيث اشتريت المتر بخمس ليرات؟
- نعم، اشتريت بعض التحف الشرقيّة والنحاسيّات التي تشتهر دمشق بها.
- هل لك أنْ تعطيني فكرة عن سعر بعض ما اشتريت؟
- نعم، مثلاً اشتريت ركوة قهوة بخمس وعشرين ليرة سوريّة.

عندها ضحك الحاجّ ضحكة عالية مصطنعة، محاولاً إخفاء غيظه، لأنّه عرف فوراً كنه اللعبة. كِلفة متر قماش نجوم الليل خمس ليرات ونصف، ولا يمكن لأحد أنْ يبيع بأقل من ذلك دون خسارة، لكنْ لا بدّ أنّ جاره اللعين تعمد الخسارة في هذه الحال لأنّه شاهد قطعة القماش معها، وأراد أنْ يسيء إلى سمعة

الحاجّ، بينما عوّض خسارته بربح كبير من بيع النحاسيّات التي لا يتعاطى الحاجّ تجارتها، فركوة القهوة التي وصفتها السيّدة لا يزيد سعرها عن خمس عشرة ليرة سوريّة في أكثر المتاجر غلاءً. استمر الحاجّ بمعالجة الموقف بهدوء، دون أنْ يذكر جاره أو يمسّ بسمعته أمام المرأة.

- يا سيّدتي هذا القماش الذي اشتريت متره بخمس ليرات، لدي منه باربع ليرات ونصف فقط.
- ولكنه القماش نفسه الذي اشتريته من عندك!
- اسمحي لي أنْ أريك شيئاً.

ذهب الحاجّ إلى مستودع المتجر، وأحضر ثلاثة "أثواب" من قماش نجوم الليل، بعد أنْ كتب بعض الأرقام على حافّة كلّ ثوب، ثم فرد الحاجّ القماش أمام السيّدة، وأمام تعجّب مساعديْه.

- هذه كلّها "نجوم الليل"، ولا يمكن لأحد التمييز بينها. هذا الثوب الأوّل سعر متره أربع ليرات ونصف، وهو عين القماش الذي حصلتِ عليه بخمس ليرات. وهذا الثاني، سعر متره سبع ليرات، وهو ما اشتريت مني هذا الصباح. وهذا الثالث، سعر المتر منه عشرة ليرات. إختاري ما تشائين.
- ولكن ياحاجّ، هذه البضاعة نفسها!
- لا ياسيّدتي هذا ما تعتقدين، ولكنّ الثوب الأوّل خيوطه محليّة، وكذلك صباغته. الثاني خيوطه محليّة، لكنّ صباغته إفرنسيّة. الثالث خيوطه إفرنسيّة، وكذلك صباغته. طبعاً الحياكة، في كلّ الحالات، تمت في مدينة حلب. أعطيتك من الصنف الثاني لأنّه يعادل الثالث في جودته، وينقص عنه في السعر. لم أعطك من الصنف الأوّل، لأنّ مشكلة صناعاتنا المحليّة هي في الأصبغة، وليست في الخيوط. لو اعتبرتك زبونة غريبة

لعرضت عليك كلّ هذه الأمور من البداية، لكنّ لطفك جعلني أسمح لنفسي أنْ أختار لك الأفضل، فعذراً إنْ تجاوزت حدودي.

- معاذ الله ياحاجّ، بل أنت سامحني إذ تسرعت في الحكم، لعن الله الشيطان، ولعن جارك الذي سبّب هذه المشاكل، ولا شكّ أنّه غدرنا بأسعار النحاسيّات التي أتمنّى أنْ أدمي رأسه بها.
- العلم عند الله ياسيّدتي، ولكنّي أنصحك أنْ تدرسي السوق جيّداً قبل الشراء مباشرة من مكان واحد.

عادت السيّدة في عصر ذلك اليوم، مع صحبها من الرجال والنساء الذين تورطوا في شراء النحاسيّات من الجار الغيور، وقد اكتشفوا فحش أسعاره بعد أنْ كسب ثقتهم بتخفيض سعر القماش بأقلّ من سعر الكلفة. انهالوا عليه سبّاً وشتماً ولعناً، ورموا النحاسيّات بعنف في أرض متجره، واستعادوا نقودهم وهم يهدّدون ويتوعّدون.

ما خفّت شحنة غضبهم إلاّ بعد أنْ أكرمهم الحاجّ صبحي، وطيّب خاطرهم حين أحضرتهم السيّدة للتعارف، وتكليف الحاجّ صبحي شراء النحاسيّات والتحف، من معارفه الأمناء أمثاله، إذا لم يكن لديه مانع.

جدّو

أذكر اليوم الذي انتبهت فيه إلى أنّ جدّي لم يكن تماماً كما كنت أظن. لم يسبق لي أنْ رأيت عينيه تتألقان بالرضا الذي كانتا عليه في ذلك اليوم. حتّى أنّه حين حنى رأسه للوراء قليلاً، بانت على وجهه ابتسامة استهجان عريضة وبدا كأنّه طفل صغير لمح فجأة كوز بوظة كبير الحجم، متعدّد النكهات. ذهلت، وانتابني فضول كبير لمعرفة سبب هذا التعبير غير المألوف على وجه الحاجّ رضا، جدّي لأبي، الذي لم أر فيه من قبل سوى الرصانة والجدّ.

كنّا نذكره بعبارة "جدّو الحاجّ رضا"، ونناديه بكلمة "جدّو"، الشاميّة الشعبيّة التي حلت محل "جدّي" الفصيحة. كان في الثمانين، وأكثر ما تكرّس في مخيلتي عنه هندامه وطريقة مشيه. كان يلبس قنبازاً أبيض اللون مخططاً بأسطر من النقاط الرماديّة أو الذهبيّة، محبوساً إلى خصره بنطاق رماديّ أو ذهبيّ اللون، لا يظهر منه إلاّ الجزء الأماميّ بين طرفيّ "الساكو"، تلك السترة الغربيّة المزدوجة الصدر، الممتدة إلى الركبتين، والتي كان يتركها مفكوكة الأزرار وهو يرتديها فوق القنباز. السترة في معظم الحالات رماديّة اللون، وأحياناً بنيّة. كان هذا المزيج من الهندام المحليّ والأجنبيّ يميّز الرجال الكهول المبجلين في الأحياء القديمة من المدن السوريّة، بيد أنّ الطابع المحليّ كان يطغى على هيئته، بأنفه الساميّ، ولحيته البيضاء القصيرة، وخصوصاً الطربوش الأحمر الذي كان يحمي رأسه ويستر صلعته. ويتميّز الطربوش عند حافته بنطاق من قماش ذهبيّ اللون. أمّا حذاؤه الأسود فكان أشبه ما تكون عليه جزمة الجنديّ. تحت كلّ هذا، كانت ملابسه الداخليّة من قطعتين طويلتي الكمّين والساقين، من

الصوف شتاء، والقطن صيفاً. كنت دائماً أراه في حلّته الداخليّة وهو يتوضأ مستخدماً البركة التي تتوسّط ديار منزله العربيّ.

كان يمشي بسرعة، ويكره المواصلات العامّة والخاصّة، ولم يقُد سيّارة في حياته. حين كنت صبيّاً يافعاً أمشي معه، أذكر أنّني كنت أضطر للعدو قليلاً لألحق به، على الرّغم من أنّني ما تجاوزت السابعة من عمري، وكنت أرتدي بلطالي القصير وحذائي المريح. وحدّث ولا حرج أنّه كان في كامل هندامه، منحني الظهر، ويحمل بين ساقيه فتقاً بعمر ثلاثين عاماً رفض معالجته. كما أنّ أيّاً من فردتي حذائه ما كان يرتفع عن الأرض لحظة. كان يشحط شحطاً، تتقدم قدمه اليمنى فتلحق بها اليسرى، وحين تقف الأخيرة، تتقدم الأولى. ولا أعلم إنْ كانت مشكلته فقدان قوة رفع القدمين، أو فقد مرونة الركبتين، أو أنّ الفتق فرض هذا النوع من المسير، ولربما اجتماع كلّ هذه العوامل! مع كلّ هذا الجهد، لم أستغرب الجدّيّة التي كانت دائماً تترجم نفسها في تعابير وجهه. ومع ذلك، كان دائماً مصمّماً عازماً يتجه إلى الأمام.

حين كنت طفلاً، وكان يصطحبني في مشيه، كان يقبض بكفّه على كفّي بإحكام، دون أنْ يترك لي مجالاً للإفلات. كانت يده قويّة، وقبضته بمقدار تصميمه على حمايتي من عبث المرور في الحارات والأسواق الضيّقة المزدحمة من دمشق القديمة: بشر، عربات، حمير، درّاجات، سيّارات، وحتّى باصات. وعلى عكس والدي وعمّي، كان جدّي يفضّل المرور من سوق "مدحت باشا"، الشارع الرئيس بين منطقة منزله ومنطقة الأسواق التجاريّة، بدل سلوك طرق مختصرة عبر الحارات الخلفيّة للحيّ القديم. لم تكن هناك أرصفة في معظم سوق مدحت باشا، وفي أماكن كثيرة منه كان أصحاب المحلات والمارّة والسائقون والدواب يتشاركون في بحيرة الفوضى الواحدة. حين كان يصل الباص الكبير، مقتطعاً أكثر من حصّته من الشارع، كان كثير من المارّة يهرع داخل المحلات، أو على الأقلّ يقف ملتصقاً بأقرب

جدار، دون أنْ يمنع هذا بالضرورة بعض راكبي الدرّاجات من أنْ يحشر نفسه بين الباص والناس الملتصقين بالحائط، وأحياناً يندفع كالسهم فخوراً باستعراض جنونه على حساب هلع الآخرين.

اليوم لن أشعر بأيّ ألم في يدي. بلغت سنتي الثانية عشرة، وتمتعت بقدر لابأس به من صفات الشباب. كثافة الشعر المنتشر في جسمي كافية لردع جدّو عن مجرد التفكير بإمساك يدي. حين مشيت إلى جانبه، أو خلفه، وأحياناً أمامه، حسب حالة المرور، كان عليّ أنْ أناور بمهارة لأجاري تقدّم سيره. كنت ألحظ أنّه حينما كان يقلق عليّ بسبب تغيّر مفاجئ في حركة المرور، كان يرفع يده عفويّاً ليمسك يدي، لكنّه يستدرك فوراً برميها على صدره، أو التظاهر بأنّه يسوّي طربوشه!

عصر صيفيّ حار، وبينما كنت أغمض عينيّ اتقاء لوهج الشمس، لم يكن وجه جدّو يتبدل قط. قد يعود هذا لطبيعته الجادّة، أو لأنّه كان متعوّداً على المشي تحت الشمس بانتظام، طيلة سنين حياته. وعلى الرّغم من أنّ أخاه الأصغر، شريكه في العمل، كان يدير كلّ شؤون المتجر، بيد أنّ جدّو لم يعلن تقاعده الرسميّ أبداً. كان يزور المتجر يومياً. أمّا والدي وعمي، فكان لهما متجر آخر قريب من متجر والدهما وعمّهما، يديران فيه ضرباً آخر من ضروب التجارة في سوق تعرف بـ"سوق الحرير"، تلك المادّة التي كان جدّي أحد أهمّ تجّارها في دمشق. كانت عادة جدّي أنْ يزور متجر ولديه قبل متابعة طريقه إلى متجره؛ مرّة صباح كلّ يوم، ومرّة في عصر اليوم، بعد عودته من قيلولة بعد الغداء، وأدائه صلاة العصر في منزله.

غادرنا الشارع الرئيس ودخلنا سوق "البزوريّة" المغطّى، المتخصص بالبذور، والحبوب، والمكسّرات، والفاكهة المجففة، والشوكلاته، والعطور، والزيوت، والصابون، والسمن البلديّ. والآن صارت تعابير وجه جدّو تتغير حين يردّ على تحيّات أصحاب المتاجر الذين يعرفونه كزبون مهم، أو أنّهم يقدّمون واجبات

التبجيل لمكانته المهنيّة وتقدّمه عليهم. كان يحيّيهم برفع يده عرَضاً لتلامس طربوشه في "سلام"، ثم يضرب بها على صدره تأكيداً، ويبتسم ابتسامة عريضة تفارق ما بين شفتيه لتظهر نيرته عارية عن الأسنان التي فقدها منذ سنين طويلة، ولأنّه رفض استعمال أسنان مستعارة، صارت تلك النيرة على درجة كبيرة من القوّة والصمود مع مرور الأيّام.

ثم ننتقل إلى سوق الصاغة، خلف الجامع الأمويّ، بمحلاته الكثيرة التي يتنافس أصحابها بعرض مجوهراتهم ومختلف إنتاجهم من المصاغ، أو ما استوردوه، في واجهات زجاجيّة يرتـّبونها كلّ صباح.

نخرج من هذا السوق المغطّى إلى فسحة سماويّة قصيرة نسبيّاً، قبل أنْ ندخل في شبكة من الأسواق المغطّاة الأخرى التي تتعاطى تجارة الأقمشة، ويصبّ معظمها في سوق الحميديّة.

في واحد من تلك الأسواق، يقع "خان الشيخ قطنا"، وفيه متجَرا جدّي ووالدي. دون أنْ ينطق بكلمة، انطلق جدّو كالرمح داخل متجر والدي باتجاه مجلسه المفضل، كرسيّ في قسم الزبائن، يقع مباشرة قرب زاوية شكّلها مقعد والدي الرئيس مع مناضد تشكّل حاجزاً بين منطقة الزبائن ومنطقة التخديم التي كان يقف فيها والدي وعمي ومساعداهما لفرد القماش وعرضه على الزبائن، وقياسه، وقصّه، ولفّه. كانت لفّات القماش، التي يطلق على واحدها "توب أْماش" باللّهجة الشاميّة، تصطف على رفوف تغطي كلّ جدران المتجر، وكان القماش في معظمه للاستهلاك النسائي، وبالتالي كان معظم الزبائن من النساء.

كان جدّو يختار الجلوس في ذلك المكان لأنّه كان سهل المنال، فلو أنّه أراد الدخول إلى خلف مكتب والدي في صدر المتجر، لكان عليه حشر نفسه في ممر وحيد ضيّق جدّاً بين منضدة التخديم ورفوف القماش على طول المتجر كله. كانت

زيارته لمتجر أبي بعد الظهر لا تدوم أكثر من نصف ساعة، وقد تتضمّن استشارات ومناقشة بعض الحسابات أحياناً، يذهب بعدها إلى متجره فيمضي ساعتين، ثم يعود إلى المنزل ليصلّي المغرب، ثم يتناول وجبة، فصلاة العشاء، قبل أنْ ينطلق مجدّداً إلى سوق مدحت باشا، ولكن هذه المرة يغادره في نهايته إلى شارع النصر، حيث يتوجه إلى المقهى القابع قرب محطّة الحجاز في قلب دمشق.

وقفتُ وراء المنضدة مقابل جدّي، طامعاً بمساعدة الآخرين في عرض وبيع القماش، والحصول على موافقة والدي في قضاء عطلتي المدرسيّة في متجره لأكتسب خبرة البيع. أمّا كرسيّ جدّو، فكان في موضع محرج بين المنضدة وباب مغلق يؤدّي إلى مستودع داخليّ، وعلى الباب مرآة كبيرة تساعد النسوة على تأمّل أنفسهن وهنّ يناسبن القماش على أجسامهن.

حين كان المتجر يعجّ بالزبائن، كان جدّو يضيع في زحمة الرجال والنساء المساومين والمساومات. كان عادة غير مبال بمن حوله، يثبت نظره على الأرض وهو يمرّر سبحته بين أصابعه، ورسغه مثبّت فوق ركبة ساقه الملتفّة فوق ساقه الأخرى. كلّما مرّر أحدنا القماش فوق المنضدة لسيّدة لتطرحه فوق كتفها، كان يدير وجهه، أو يتراجع بجسمه إلى الوراء متلافياً القماش.

كنت أعتقد أنّ جدّو فقد الرغبة بالنساء منذ زمن غابر. كان يكبر جدّتي بأكثر من ثلاثين سنة، ومنذ أنْ فتحت عينيّ على الحياة لم أرهما، أو أشعر أنّهما على علاقة زوجيّة. كانت له غرفة نومه الخاصّة، وكان لها غرفتها، لكنّها كانت ترعاه كامل الرعاية. وكان يستعين بأصغر بناته من أجل احتياجاته التي لا تقدر جدّتي على القيام بها، بما في ذلك الإصغاء إلى الأذان المنبعث من الجامع الأمويّ لتنبّهه إلى حلول وقت الصلاة. وكان يقضي معظم ما يتوفر له من الوقت في قراءة القرآن، وهو جالس قرب نافورة داره العربيّة.

ردّة فعله اليوم لم تكن معتادة. كانت عيناه تتألّقان بنظرة حنان- نظرة إعجاب وتقدير، مع أنّها كانت تحمل بعض مظاهر نظرات الرجال المنبهرة حين يستحسنون ما تقع عليه عيونهم من النساء. سرّني جدّاً أنْ أكتشف هذه الخصلة في جدّي، وهي صفة ربّما لم يكن هو نفسه واع لها. لكنّها كانت هناك، وهذا ما أثلج صدري، لأنّ انطباعنا عن جدّي كان أنّه عمليّ. كان رأس العائلة وسيّدها، وكان علينا احترامه. كانت خطواته معلومة، يتبع برنامجاً في النوم، والأكل، والصلاة، وقراءة القرآن، وزيارة المقهى. في المقهى كان يحتسي الشاي، ويدخّن النرجيلة، ويلعب النرد. تلك هي ما تبقى له من ترفيه في هذه الحياة. كان ثريّاً من قبل، لكنّه لم يكن ممن يحبّون التملك. عدا عن معارفه في المقهى، لم يكن لديه أصدقاء. لم يلمّح مرة أنّه كان شغوفاً بالفن، ولا حتّى ببعض التحف المعروضة داخل منزله. لم أسمعه قط يصف أيّ شيء بأنّه "جميل". كانت كلماته دائماً عن التقوى، والأهمّيّة، والمنفعة، والضرر. كنت أسمع منه مسبّة واحدة: "أكل خرا". بدا لي، ظاهراً، أنّه "أسود وأبيض". وإن كانت الألوان هناك، لم يكن من الذين يستعرضونها، هذا إنْ عرف كيف!

كانت ردّة فعله اليوم ما جعلتني واعياً، منذ ذلك العمر المبكّر، أنّنا كلّنا يملك ألواناً، لكنّنا نختلف في طريقة عرضنا لها، أو في طريقة إظهار صدقيّتها، أم أنّ بعضنا سيمضي حياته دون توظيفها، ناهيك بما إذا كان واعيّاً لها أصلاً. كما أنّ ذلك اليوم فتح عينيّ على تقدير جمال الجسد الإنسانيّ وأكثر.

حين نظرت إلى مصدر إعجابه، اضمحل تعجبي! كانت امرأة في بداية الثلاثينيات، ممشوقة القامة، مثاليّة المقاسات، عينان سوداوان واسعتان، شعر طويل أسود يختفي الجزء الأكبر منه تحت وشاح خمريّ اللّون، وبشرة سمراء داكنة، كأنّ أميرة من الصحراء تجسدت للتو داخل لباس غربيّ ضيّق يفضح تقاسيم جسمها الرشيق. ثمّة بريق داخليّ كان يغطيها بهالة يجعلها تشدّك

إليها شدّاً، لكنّي لم أتصور أنّ جدّو سيهتمّ بذلك. حين نظرت مليّاً كيف رمت قطعة من الحرير المذهب فوق كتفها وحول خصرها، مروراً بواحد من ثدييها البارزين، رأيت بوضوح ضمن إطار المرآة، جسماً عارياً مكتنزاً موشّحاً بالذهب، وأحد الكتفين وثدي تحته صارخين في التعرّي، وكذلك الساق في الجهة المقابلة من الجسم، والركبة مثنيّة قليلاً، تكشف المفاتن من تحت الحافة الحريريّة للقماش: لوحة مدهونة بالأسود والأصفر، معلّقة في متحف اللوفر.

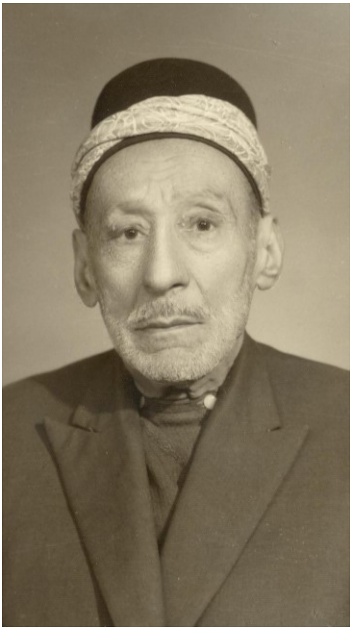

الحاجّ رضا. تصوير نوفل، دمشق

تُوتٌ شَاميّ

احتقن وجه الأستاذ الدكتور نابغة القيرظانيّ بلون الدماء التي تراكضت إلى كلّ رقعة تحت جلد وجهه. السبب؟ عاديّ جداً، لدرجة أنّه غير معلومٍ فيما إذا كان مردّ هذا التلوّن ارتفاع الضغط الشريانيّ لديه، أم أنّ بياض بشرته الناصع، وزرقة عينيه تبديان من المتبدلات الحيويّة ما تخفيه بشرات الآخرين. على كلّ حال، لا يشكّ أحد بأنّ لهذا الرجل حساسيّة خاصّة، ترافق كلّ ردّ فعل يواكب مواجهاته اليوميّة ومعادلاته الحياتيّة.

وعلى الرّغم من الجهد المرير الذي بذله طوال حياته في إبراز نفسه على الصورة التي نراه عليها اليوم، لا يتوقّف الكلام عن أصله وفصله وقصّة حياته التي يعلكها طلاب الجامعة علكاً مع كلّ حركة فكٍ يستعملونها في نطق كلّ كلمة عنه. ماذا وراء البذلة الأنيقة المنتقاة من الجوخ الإنكليزيّ ذي الألوان الرصينة التي لا تخرج عن نطاق الكحليّ والأسود والرماديّ؟ ولا بدّ لربطة العنق أنْ تكون من الحرير الخالص، تحمل توقيعاً من تواقيع دور الأزياء الفرنسيّة الشهيرة. أمّا ياقة قمصانه، فلا بدّ لها أنْ تعانق رقبته عناق الحبيب للحبيب، على الرّغم من حاجته بين الحين والآخر لوضع إصبعه بينهما ومطّ رقبته وهو ينحرف برأسه يميناً، مع ما يرافق ذلك من منعكسات في الشفتين، وشهيق مسموع يعلن نهاية الجولة التي يتلمّس فيها عقدة ربطة العنق فيطمئنّ أنّها لازالت ملازمة بعناد لملتقى طرفي ياقته. لعلّه يستمد من كلّ هذا عزيمة تعزز نفوذه وقوّة مركزه كرئيس لقسم الفيزياء. لعلّها تتويج لذلك الجهد التاريخيّ الذي بذله في اقتلاع نفسه من تلك الجذور القرويّة

التي أتى منها، حتّى لكأنّها الردّ المباشر على سروال أبيه وجلباب أمّه.

بدا للجميع أنّ الأستاذ الدكتور نابغة منغمس في عمليّة صيانة دائمة لهذه الصورة التي أراد أنْ يرسمها لنفسه غير ملتفت إلى حقيقة أنّ أصلة وفصله وموقع قريته صارت معروفة للجميع منذ أنْ انضمّ إلى الكلّيّة شخص من القرية نفسها، ولكنْ بصفة الآذن الذي يحضّر القهوة، وينقل البريد من قسم إلى قسم، فينقل معه أخبار الأستاذ، مفتخراً من ناحية أنّه يعرف صاحب هذا المركز المهمّ، وساخراً من ناحية أخرى لأنّ عائلة الأستاذ في القرية هي من منزلة دون منزلة عائلته.

والأستاذ نابغة الذي أتمّ اختصاصه في فرنسا، والذي كان شكله يوحي للفرنسيّين بأنّه ألمانيّ، بدأ إعادة خلق نفسه هناك حين اختصر من لقبه فسّواه "قيرظان"، وصار يكتب اسمه بحروف لاتينيّة تجعله يُلفظ على أنّه "نابا كيرسان" فيزيد ضياع الفرنسيّين في معرفة أصله؛ هل هو اسكندنافيّ أم جنوب أفريقيّ. زاد هذا من اعتزازه بنفسه، وحين عاد إلى وطنه ادّعى أمام زملائه أنّه ابن العاصمة، وأنّ أجداده ينتسبون إلى سلالة من أمراء العرب من بني قيرظان. أمّا الآن فالكلّ يعرف الحقيقة ولا يصرح بها أمامه. لكنّ لقبه الذي صار أكثر الألقاب شيوعاً هو ما أطلقه عليه الطلاّب، وبعدهم كلّ المدرسين والعاملين في الجامعة، من وراء ظهره طبعاً: "الأستاذ الدكتور توتي". وجاء اللّقب نتيجة لما تصير عليه بشرته التي تصبح بلون التوت الشاميّ حين ينفعل أقل انفعال، سواء حين الغضب أم حين البهجة.

ولكنْ أنّى للأمور أنْ تبقى طيّ الكتمان، فهل علم الأستاذ بالسرّ من طالبٍ أم من آذن أم من؟ من زميل! بل الحقّ يقال، من أشد زملائه منافسة وبغضاً. فالدكتور ودود، الذي يصغر الأستاذ بعشرين عاماً، وآخر من التحق بالقسم، كان شابّاً ألمعيّاً ملمّاً بمادته، ومتكلّماً بليغاً، وباحثاً جيّداً، يواصل نشر مقالاته العلميّة

في المجلاّت العالميّة، ويقول إنّه يريد أنْ يصل إلى مرتبة الأستاذ بأبحاثه التي ينشرها، وليس بترجمة كتابين كما فعل الأستاذ نابغة. وفي مشاحنة بين الأستاذ نابغة والدكتور ودود ذات مرّة، غضب الأخير وأنهى حديثه بعبارة "...يا أستاذ توتي." وهكذا علم نابغة القيرظاني ما آلت إليه شهرته. أمّا سبب تلك المشاحنة فكانت محاولة الأستاذ الضّغط على الدكتور ليكون عضواً في شبكة من المدرسين القلائل، المنضوين تحت جناح الأستاذ في عمليّة للتآمر على الأساتذة الآخرين، وتعزيز مركز الأستاذ نابغة في محاولة للوصول إلى منصب عمادة كلّيّة العلوم.

الواقع أنّ صلف وغرور الأستاذ نابغة كان يكبّده كلّ يوم خسارة جديدة في ابتعاد مزيد من الناس عنه، ولمْ يبق في يديه سوى رئاسة القسم يتعلّق بها تعلّقه بروحه. ولهذا كان يسعى كلّما انضمّ أستاذ جديد إلى الكلّيّة إلى ضمّه تحت لوائه، وتجنيده في محاربة خصومه، خصوصاً الدكتور ودود زميله اللدود.

واليوم احتقن وجهه بالدماء إثارة لأنّه يستعد لاستقبال وجه جديد في قسم الفيزياء، الدكتورة أسامة المتري. كان يمّني نفسه، وهو يتفحص كتاب التعيين، أنْ يكون ثمّة غلط مطبعيّ حصل في كلمة "الدكتورة"، وأن يكون أسامة ذكراً لا أنثى. صحيح أنّه رئيس القسم، لكنّ التعيين في الجامعة يتمّ من طريق وزارة التعليم العالي، ممّا يجعل قضيّة وصول عضو جديد في الهيئة التدريسيّة خافية على أهل القسم حتّى اللحظات الأخيرة. كان يرغب أنْ يستمرّ قسمه قسم "رجال"، إذ إنّ كلّ طاقمه التدريسيّ من الرجال، على عكس قسمي البيولوجيا والكيمياء.

كان منهمكاً في تفكير عميق حول استراتيجيّته القادمة في صيانة مركزه، والانتصار على خصومه حين تناهت إلى مسامعه طرقات على باب مكتبه. تفضّل. يدخل الحاجب الساعي القهوجي، ابن بلده، كاشف الأسرار، ويخبره أنّ الدكتورة الجديدة

وصلت. ماذا تعني "الدكتورة"؟ نعم يا سيّدي، الدكتورة أسامة المتري: امرأة بحقّ. عش كثيراً، ترى كثيراً.

خرج الأستاذ الدكتور نابغة بكل جلاله وقدره، عليه جوخه الإنكليزيّ، وحريره الباريسيّ، وإصبعه يدخل ويخرج ما بين رقبته وياقة قميصه، ورأسه ينسحب وينحرف، وشفتاه تعلنان التأكّد من حالة الأناقة المستديمة. أمّا الوجه فصار بلون التوت الشاميّ.

- أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً بالدكتورة، يا حلّت البركات. نوّرت الكلّيّة، وقسم الفيزياء. تفضّلي يا دكتورة، تفضّلي.

- شكراً بروفيسور.

- إنْ شاء الرب نراك أيضاً أستاذة قريباً.

- سأعمل جهدي من أجل ذلك يا بروفيسور.

- عظيم، عظيم. أنا من جهتي سأدعم كلّ خطواتك المقبلة. والآن سأريك مكتبك، وأتركك هذا الصباح تطّلعين على المنهاج، وأريدك في مكتبي بعد الظهر، لأشرح لك بعض الأمور المتعلّقة بهذا القسم.

خرجت الدكتورة أسامة بصحبة الأستاذ الذي كان يدلها بإصبعه أنّ هذا مكتب فلان، وذاك مكتب علاّن من المدرسين، دون أنْ يتكبّد عناء تعريفها مباشرة إلى أيّ منهم. وقال لها إنّ معرفة الجميع تتطلب بعض الوقت، ولكنّ واقع الأمر هو أنّه فقد شعبيّته لدى معظم زملائه، لدرجة أنّه يتلافى التعامل المباشر معهم قدر الإمكان.

الدكتورة متري شابّة ذات نصيب وافر من الفطنة والجمال. حين سارت جنباً إلى جنب مع الأستاذ نابغة، وصلت قمّة رأسه إلى أعلى بقليل من مستوى ثدييها الممتلئين أنوثة وشموخاً، ليس لأنّها فارعة في الطول، بلْ لأنّ الأستاذ من القياس القصير، على الرّغم من أناقته ووسامة وجهه. لذلك بدا للناظرين أنّه يمشي في ظلها. لكنّ احمرار بشرته غطّى على كلّ شيء، على طولها

وجمالها، وحتّى على ردائها الأحمر الجذّاب. والهمز واللّمز ماضيان في الردهات والممرات، بين التلاميذ والتلميذات. مَنْ هذه الفاتنة مع الأستاذ توت؟ الحسناء والوحش. الصاروخ والترانزيستور. الغزال والقرد.

بينما مشت هي بخطوات متّزنة أنيقة، كانت خطوات الأستاذ، الذي مشى عن يسارها، تتسم بالعصبيّة حتّى بدا كأنّه البهلوان مقارنة معها، خصوصاً انحراف رأسه المعهود الذي كان يوحي للطلبة أنّ أرنبة أنفه على وشك الاصطدام بحلمة ثديها الأيسر، البارزة تحت ملابسها، فيغشى الطلاّب ضحكاً.

الساعة الثانية بعد الظهر؛ الموعد. تتّوجه الدكتورة متري بخطواتها الأنيقة الجادة نحو مكتب الأستاذ نابغة، مرتاحة، كأنّها تعرفه منذ مدة ليست قصيرة. طرقاتها على الباب حاسمة قويّة؛ بلا وجل، على وجهها شبه ابتسامة، وفي قلبها ابتسامة كبيرة، بل قهقهة غير مسموعة، إلاّ من خلال الأصداء المترددة في خلايا دماغها، وخلايا أخرى.

يرحبّ بها الأستاذ بكلّ ما لديه من حول "الإتيكيت"، وقوّة "الشياكة". كلاهما متخرج من السوربون، لكنّه يتحاشى استخدام التعابير الفرنسيّة في حديثه حتّى لا يُتهم بالوقوع في حضن الغرب، بل هو عضو في مجمع اللغة العربيّة، ومعروف بكلامه المنمق الفصيح المتحذلق لدرجة قاتلة، ومعروف أنّ تركيزه على الشكل أنساه المضمون، ومعروف أنّ لغته العربيّة أفضل بكثير من لغته الفيزيائيّة: أولم يصبح أستاذاً بقنص، عفواً، بترجمة كتابين إلى العربيّة؟ وهو مذ تخرجه لمْ يقم ببحث واحد، ولا بتأليف سطر علميّ واحد، لكنْ آه كم أضاع عشرات الساعات من الاجتماعات الأكاديميّة في خلافاته مع أمثاله حول تعريب كلمة. هكذا سمعت الدكتورة أسامة المتري عن رئيسها العتيد.

لأوّل مرة في حياته يتخلّى عن الجلوس وراء مكتبه في حضرة مرؤوس. ينتقل إلى الجهة التي كانت تجلس فيها. يطلب

لها فنجان قهوة، شاي، زهورات، حسبما تشاء. قهوة سادة. ظلّت الدكتورة صامتة تتأمّل به تأمّل المنشغل بدراسة سلوك أو نفسيّة الآخرين. أقلقه ذلك الاستعلاء الذي أوحت به نظراتها. هذه أوّل مرة يتعامل فيها مع عضو من الجنس الآخر في الهيئة التدريسيّة.

- دكتورة أسامة لاشك أنّك اطّلعت على المنهاج هذا الصباح، وعلى الموادّ التي ستقومين بتدريسها. إذا كانت لديك أيّ أسئلة لا تترددي بسؤال نائبي الأستاذ جرجي، أو حتّى مراجعتي. لكنّني الآن أريد التركيز على نواحٍ استراتيجيّة مهمة ستؤثر على مستقبل هذا القسم، والكلّيّة بشكل عامّ. فمن جملة الإصلاحات التي تقوم بها الجامعة، حصول الهيئات التدريسيّة على مزيد من الديمقراطيّة في اختيار رؤساء الأقسام وعمداء الكليّات. هذا يعني أنّ كثيراً من هذه المناصب أصبح الآن مفتوحاً للصراع بين فئات مختلفة تحاول سحب الغطاء لتغطية ظهورها. طبعاً أنا أؤيّد هذه الديمقراطيّة، لكنّ خبرتي الطويلة في هذا المجال تجعلني أحسب للأمور ألف حساب. هناك بعض المحاضرين، من الشباب المتحمسين، يريد قلب الأمور رأساً على عقب، دون تقدير لعواقب الأمور، أو عبء المسؤوليّة. أمّا أنت يا دكتورة فأتلمّس فيك الاتزان، ولذلك أودّ تحذيرك من مغبّة الانجراف وراء هؤلاء المستهترين الذين يحاولون خرب ما بنيناه عبر سنين طويلة. مثلاً هنالك الدكتور ودود الذي ما إنْ مضى على وجوده معنا بضعة أسابيع إلا وبدأ يجمع حوله عصابة من أمثاله من الهادفين إلى زعزعة كيان هذه الكلّيّة.

سرد الأستاذ الدكتور نابغة بعض القصص الأخرى ليدعم أطروحته عن المخربين، مستعملاً حبكة قصصيّة رفيعة المستوى، ولم ينس أنْ يدخل بين تعابيره تهديدات مبطنة حول مغبّة تلك الأمور. أمّا الدكتورة أسامة فاستمعت لكلام الأستاذ بهدوء، دون أنْ تصدر عنها إشارة رضا أو رفض، ثم سألته عن المطلوب منها.

- الحقيقة يا دكتورة أنّه ربّما تُطرح قضيّة رئاسة القسم في عمليّة انتخابيّة، وإنّني أسألك التصويت لي، وطبعاً لن أنسى لك هذا خصوصاً أنّه سيقربني أكثر من عمادة الكلّيّة، وكذلك يبعد المتطفلين. وتكريسي أصلاً سيكون في مصلحة أجيال الطلبة، إذ نحافظ على القيم التي صنعناها. أنا ضامن الفوز، لكنّني أحب أنْ أحصل على إجماع الهيئة التدريسيّة.

- شكراً على نصائحك بروفيسور. أنا من جهتي حين تأتي اللحظة الحاسمة سأقوم بما يتطلبه منّي ضميري، ومصلحة هذه الجامعة، لأنّ علينا تقع مسؤوليّة تأهيل الأجيال القادمة.

قدّر الأستاذ تفهّم الدكتورة له، وأثنى على اتزانها ورصانتها مرة أخرى، وتمنّى أنْ يكون لها تأثير كبير على زملائها من "الطائشين".

اجتمعت هيئة تدريس القسم للقيام بالعمليّة الانتخابيّة. وافتتح الأستاذ الدكتور نابغة القيرطاني الجلسة مع ما يرافقه من حركات صارت جزءاً من شعائر وجوده، يكرّسها بزيادة تظاهره بالانشغال الدائم، لأنّه كان حريصاً على أنْ يبرهن للجميع أنّه الوحيد الذي يعمل بجِدّ، ويغار على مصلحة القسم. أمّا مؤشر الاحمرار في بشرته فوصل الآن إلى معدلٍ ما رآه عليه أحد من قبل؛ توت شاميّ.

حيّا الأستاذ الجميع مرحّباً ومذكّراً بالمسؤوليّات، ومناشداً الضمائر لتُحَكّمَ في مصلحة الأجيال والأمّة. وحين أشار إلى أنّه لا يريد إضاعة الوقت، بل سينتقل إلى العمليّة الانتخابيّة، قاطعه الدكتور ودود طالباً حقّ الكلام، ومذكّراً أنّ الإصلاحات الديمقراطيّة تعني أنْ يسمح لمن يريد ترشيح نفسه من المدرسين الآخرين أنْ يفعل ذلك، وأنْ تعطى لهم حرّيّة التعبير عن آرائهم، وتقديم برنامجهم الانتخابي. واقترح الدكتور ودود أنْ يكون الاقتراع سرّياً، خصوصاً حين وجود مرشّح واحد، وليس كما جرت العادة

بأن يصوّت الجميع أمام رئيس القسم، فيعاد انتخابه بالإجماع، لأنّ الكلّ يرفع يده بالموافقة خشية العواقب.

الصاعقة التي نزلت على رأس الأستاذ كان يتوقعها، ولكنْ كان يأمل أنْ ينجح كعادته في "سلق" الأمور وتحقيق ما يريد. وصواعق أخرى بدأت تتعاقب الآن على رأسه، ومعظم المدرّسين يوافق الدكتور ودود. وجاءت صاعقة الصواعق حين اقترح الدكتور أسعد ترشيح الدكتور ودود نفسه لرئاسة القسم. توت شاميّ، بل فصيلة جديدة من التوت، لم يرونها من قبل، لطّخت وجه الأستاذ وصلعته، فصيلة من التوت الأزرق، فصيلة الضغط الشريانيّ الأعلى.

هاج المجلس وماج، لكنّ خبرة الأستاذ ودهاءه تغلبا أخيراً فدعا الجميع إلى تهدئة الوضع، ثم أخذ زمام الأمر بيده من جديد، إذ رحّب بترشيح الدكتور ودود قائلاً إنّ القسم قد يستفيد من الوجوه الجديدة حتّى لو لم تكن على مستوى الخبرة نفسه. وحذّر مجدّداً من مغبة الركض وراء التغيير دون هدف واضح.

أمّا الدكتور ودود فقبل الترشيح، وشرح للحضور في غضون نصف ساعة الخطوط العامّة لبرنامجه الإصلاحي، مبيّناً الهدف من كلّ فكرة يطرحها، وكيفيّة تحقيقها، والفائدة التي ستعود بسببها على مستوى التعليم في القسم والبلاد. كان واضحاً حازماً جازماً، يعرف ما يقول سياسة وأرقاماً، مستعرضاً إنجاز القسم خلال سنين من سيطرة الركود، وغياب التجديد، والبعد عن التطّور العلميّ العالميّ، حتّى من الناحية النظريّة، لأنّ الكتب التي ترجمت سابقاً للتدريس، لم تعد تدرّس في مواطنها الأصل منذ عشرات السنين.

المناقشات التي تبعت ذلك أفرزت موجتين من الاتجاهات، واحدة تنجذب نحو الأستاذ، وواحدة نحو الدكتور، كما أدّت إلى فورة من الهرج والمرج إلى أنْ صمت الجميع فوراً حين تكلّمت الدكتورة لأوّل مرة في الاجتماع.

- من الواضح أنّ لدينا الآن مرشحَيْن، وأقترح أنْ لا نضيع المزيد من الوقت، بل نلجأ إلى الاقتراع السريّ بحيث نكتب اسم المرشح المرغوب به على ورقة ونطويها. بما أنّ عددنا الكامل ثلاثة عشر شخصاً، فالقضيّة ستحسم حتّى ولو بصوت واحد.

دم الأستاذ يغلي الآن لهذا الكلام. صوت واحد؟ هل هذا معقول؟ أنْ يكسب بصوت واحد، وهو المعتاد على الإجماع؟ يا لسخرية القدر! ويحاول من جديد الإمساك بزمام الأمور فيطلب من الدكتورة، بحزم، أنْ توزّع الأوراق البيضاء على الجميع، ثم تقوم شخصيّاً بجمعها وفرزها وتسجيل النتائج على السبّورة تحت أي من الاسمَيْن بتدوين إشارة.

انطلق الصوت الأنثويّ من خلال الصمت الذكريّ الواجم، المندهش، الفخور— اعتماداً على أيّ الذكور كنت. زمرة من الرجال المتعجبين، المُعجبين، المبتسمين، الغاضبين، القلقين، المراقبين، الحذرين، الساعلين، العاطسين. وواحد منهم فقط، كان بالإضافة إلى ذلك، يضع إصبعه بين الياقة والعنق، ويمطّ عنقه، فينحرف رأسه، فيما تتموج بشرته بكل ألوان فصائل التوت: الشاميّ منها والبريّ.

- الأستاذ الدكتور، الدكتور، الأستاذ الدكتور القيرظانيّ، مربّي الأجيال الأستاذ الدكتور نابغة، الدكتور ودود، ودود، الأستاذ، ودود، الأستاذ نابغة، الأستاذ النابغة، الدكتور ودود، الدكتور ودود، وأخيراً ورقة بيضاء.

شهقات وضحكات: لا غالب ولا مغلوب. أحدهم يعلق: انتهى الشوط الأوّل بالتعادل.

جبين الأستاذ الآن يتصبّب عرقاً، وما عاد بين رقبته وياقته متسع يدخل فيه إصبعه المرتجف. التعادل؟ مع من؟ مع ابن البارحة، وهو الأستاذ العريق؟ جمع أفكاره بسرعة وقرر أنْ يفجّر قنبلة في عقر دار هؤلاء الرجال المستهترين؛ أنْ يأخذ زمام

المبادرة قبل أنْ تقع في يد الآخرين. ومهما تكن النتائج، أيّ شيء في نظره أهون من انتصار ودود عليه.

- اسمحوا لي أيّها الزملاء أنّه نظراً لهذه الحالة التي وصلنا إليها، لا أرى من هذه الأزمة مخرجاً سوى ترشيح شخص ثالث، ولذلك أسألكم تأييدي في ترشيح الدكتورة أسامة المتري لرئاسة القسم، وأنا على استعداد لسحب ترشيحي إذا ما سحب الآخر ترشيحه.

بُهت السامعون لِمَا سمعوا، فهذه أوّل مرّة منذ تأسيس القسم من مائة عام تترشح امرأة لهذا المنصب، ومن قِبل من؟ من قِبل هذا الأستاذ المحافظ، بل الرجعيّ؟ الدكتور ودود أيّد الترشيح، وأعلن انسحابه فوراً. ويبدو أنّ الجميع هرع لتقديم الولاء دون تفكير كبير، فارتفعت الأيدي تقول "نعم" في اقتراع ما عاد سريّاً. صفق الجميع للدكتورة التي مازالت واقفة أمام السبورة بقامتها المديدة، وعلى وجهها ابتسامة ذهول مشوبة بالرضا.

شكرتهم، فسارع الأستاذ يشدّ على يدها متظاهراً بالسعادة، وتبرّع بإعداد تقرير الجلسة ورفعِه إلى السلطات العليا. شكرته الدكتورة، وبدأت تتلقّى تهنئة الآخرين، إلى أنْ جاء دور الدكتور ودود الذي طوّق خصرها بيده، وطبع على جبينها قبلة دون أنْ ينبس بكلمة. وهذا أيضاً لم يحصل من قبل في هذا القسم. زاد ودود من دهشة الجميع حين قال:

- إنّه لمن دواعي سروري أنْ أقدّم لكم الدكتورة بصفتها زوجتي. سبق لنا إخفاء هذا الأمر نظراً للفارق الدينيّ بين عائلتي وعائلتها، ووعْدنا للعائلتين بالتروّي، إلى أنْ يتمّ القبول التامّ من بعض أطراف كلا العائلتين، لكنّ أحداث اليوم، التي قلبت مفاهيم هذا القسم، إنّما عزّزت مفاهيمي، ولا أشكّ أنّ أسامة تشاركني الرأيّ، بأنّ الزوابع ضروريّة أحياناً لبلوغ الربيع الجميل.

خَواجا خَليل

كنت في سنواتي اليافعة أمضي بعضاً من فترة العطلة المدرسيّة في متجر أبي الواقع في سوق من أسواق المدينة القديمة. كان والدي يتعاطى بيع القماش، بينما كان جاره الخواجا خليل يتاجر بالحرير.

كانت النعمة واضحة على الخواجا خليل، الذي كان يحضر يوميّاً بكامل أناقته، ويقضي معظم وقته وراء مكتبه، وأحياناً يُخرج كرسيّاً يجلس عليه في مدخل متجره. كان يبيع بالجملة، فلا يتعاطى مع المشترين وجهاً لوجه كما هي حال أبي.

كنت أغتنم فرصة جلوسه خارج المتجر، فأتحدث إليه حين كانت تسمح الظروف. وكنت أُفاجأ دائماً بتصرّفه حين كان يحضر جدّي لزيارة ابنه (والدي) في متجرنا. الخواجا خليل، الأنيق، المتعجرف، الذي لا يهتزّ للعالم الذي حوله، ينتفض فجأة، ويقف مسرعاً للسلام على الحاجّ رضا.

الحاجّ رضا هو مؤسّس التجارة التي كان أبي وأخوه يتعاطيانها في ذلك المتجر. وبما أنّ الخواجا خليل أكبر من والدي بقليل، كنت أعتقد أنّه يقدّم واجب الاحترام للحاجّ رضا الذي كان بعمرٍ يمكّنه أنْ يكون والد الخواجا.

سألت الخواجا يوماً: 'كيف تعرّفت إلى جدّي؟'

أجاب: 'كنت أتاجر معه في خيوط الحرير. كان جدّك من أهمّ تجّار الحرير في البلد. ويمكن القول إنّني تتلمذت على يديه.'

قلت: 'ولكنّه يعمل مع أخيه في المتجر الثاني الذي تملكه عائلتنا، ولا أرى أثراً للحرير هناك.'

قال: 'لقد توقّف عن مزاولة ذلك منذ فترة طويلة. الحرب

العالميّة غيّرت موازين الأمور، كما أنّ جدّك تقدّم في السن.'

قُلتُ له ببراءة الأطفال: 'ولكنْ على الرّغم من أنّ أوضاعه الماليّة جيّدة، يبدو أنّك سبقته بأشواط بعيدة، فأنت التاجر الوحيد الذي يُقال عنه "مليونير" هنا.'

ضحك ضحكة كأنّها الرعد في عصر يوم صيفيّ، فاستدارت وجوه المارّة نحونا، وهو يلّف رجلاً فوق الأخرى، ويُدخل بعض أصابع يديه في جيبي صدّارته التي ما استطاعت أناقتها، هي وربطة العنق الحريريّة، إخفاء الكَرِش العظيم الذي يحمله الخواجا خليل. ثمّ قال: 'إسمَعْ هذه الحكاية إذاً، فربّما تعطيك الجواب الشافي.'

أحضرت كرسيّاً وجلست إلى جانب الخواجا أستمع إلى حديثه بشغف شديد.

قال وفي عينيه إسقاطات نحو الماضي، وشفتاه ترّقان وتغلظان وهو ينتقل بين تعابير الافتخار والتعجّب: 'إبّان الحرب العالميّة، عقدت مع جدّك صفقة كانت في حينها أكبر صفقات حياتي، اشتريت منه كميّة كبيرة من خيوط الحرير. اتّفقنا على السعر، وكان البيع بيننا يتم بناء على الكلمة، فلا عقود مكتوبة، ولا شهود. كما أنّه كان بإمكاني استلام البضاعة كلّها والدفع فيما بعد، أي أنّ الأمور كانت مرتاحة جدّاً. عشيّة ذلك اليوم تسبّبت أحداث الحرب بارتفاع هائل في أسعار الحرير، وصل إلى أضعاف ما اتّفقت عليه مع جدّك. أصابني الهلع، ولم أنم طيلة الليل لأنّني لن أستطيع شراء ما اتّفقنا عليه، وحتّى لو استطعت زيادة مبلغ الشراء أكون من الخاسرين. كنت أعلم أنّ جدّك ينهض قبل الفجر لأداء الصلاة، ولذلك ما استطعت الصبر حتّى تشرق الشمس، بل اتجهت إلى منزل جدّك وأنا أبتهل إلى المسيح والعذراء، وأرسم شارة الصليب. طرقت الباب بشدّة، وأنا أعلم أنّه لن يستجيب إلى الطرق في هذه الساعة الباكرة سوى سيّد المنزل. سمعت وقع أقدامه المميّز، فتحرّكت معه دقّات قلبي.

فتح الحاجّ رضا الباب وهو يبتسم ابتسامة تجمع بين المرح والسخرية والاعتزاز بالنفس. تظاهر بأنّه لا يعرف، وقال لي مداعباً: "ما سرّ تشريفك لنا والصبح ما حلّ بعد؟" قلت له: "يا حاجّ... هل سمعت... أنا تحت رحمتك..." واصل ابتسامته، وقال: "هل تتّحدث عن جنون الحرير؟" قلت: "وأيّ جنون يا حاجّ. هذا شيء ما حصل من قبل." قال: "ومتى حصل بالضبط؟" قلت: "بعد ساعات من اتفاقنا." قال: "إذاً ما علاقة ذلك باتّفاقنا؟" قلت: "ولكن ياحاجّ، إذا قبلتَ بالسعر الذي اتّفقنا عليه تخسر الكثير!" قال: "هذا نصيبي. أنا بعتك، وأنت اشتريت. اتّفقنا وباركنا عَقْدَنا. وكوننا لم ندوّنه لا يبدل شيئاً في نظري. إذهب إلى نومك، واتركني لصلاتي." أحبّ أنْ أعترف لك أنّني لو كنت أنا مكانه لما قبلت بما قبلَ به، ولذلك تراني حيث أنا، وتراه حيث هو.'

أجبت الخواجا خليل، وأنا أشعر بغيظ شديد (من كلا الرجلين) ممزوج بإعجاب كبير (بجدّي فقط)، وبعض التقدير للخواجا الذي اعترف بالقضيّة: 'من الناحية الماديّة فقط. من الناحية الماديّة.'

صمت الخواجا خليل صمتاً ظننته أبدياً، وسررت أنّ أبي ناداني لحظتها، فتركت الخواجا خليل دون حاجة لمزيد من الإحراج.

أوّاه يا امرأة. . .

استوقفني رجل لبنانيّ في الطريق وقال إنّه ميّزني من صورتي التي تظهر إلى جانب كتاباتي في صحيفة التلغراف في سيدني، وبدأ بمديح كتاباتي خصوصاً ما يتعلّق منها بما سمّاه "الغزل"، وأكّد لي أنّني أكتب جيّداً، وأنّ غزلي بالنساء في لبنان السبعينيّات قويّ جداً.

شكرت الرجل واستأذنته مغادراً في طريقي دون أنْ أخوض معه في نقاش حول ماهيّة ما أكتب، لكنّني رأيت نفسي في حالة استحضار واستعراض لسلسلة ما كتبت، وأسباب وأصول ما دفعني لتلك الكتابة، فوجدت نفسي أقول له: ياليتك تعلم يا صديقي أنّ تلك النساء اللاّتي تتحدّث عنهنّ هنّ امرأة واحدة، مرّة تكون أمّاً ومرّة تكون زوجة، عشيقة أوصديقة، شقيقة أم ابنة عم، عمّة، خالة، جدّة، حماة. مرّة تصبغ شعرها، ترفعه، تنشره. مرّة تكحل الجفون. مكتسية، أم عارية. تقود سيّارة، أم تحلب بقرة. تحضّر لجلسة قضائيّة، أم تخبز منقوشة بالصعتر.

هؤلاء النساء مساحيق على وجه امرأة واحدة، اغتصبها أبناؤها بمساعدة أشقائهم وأعدائهم، ولمّا تكوّرت بطنها بجنين مكرهم وترفهم، تركوها حبلى بهموم الغيب القادم. تركوها قلقة ليس من الفضيحة بقدر ما سيحدث عند الولادة، وهي تعلم أنّ وحشاً مفترساً ينتظر على باب دارها الجنوبي، له من حاسّة الشمّ ما تستشعره في فرْجها الذي صار يخشى لحظة الفَرَجْ. صارت تخشى الأمومة، وهي التي فتحت صدرها حبّاً بكل المارقين، وأعطتهم من مفرزات تلذّذها بحبهم الخادع. مات الجنين في أحشائها.

نعم! أنا واحد من عاشقيها، وقد أكون الأب الحقيقي لجنينها الذي ستأكله الضباع. لكنّني لا يمكن أنْ أثبت ذلك. وربّما لن يُسمح لي أنْ أثبت ذلك. وأنا واحد من أبنائها، وأشقائها، وأبناء عمومتها، وخالاتها، لكنّ مشكلتي أنّ لون جلدي في نظر بعضهم مغاير للون جلودهم.

كلّ الذي أعرفه أنّني أحببت هذه المرأة كثيراً، وضاجعتها كثيراً، وكنت أسمع أنين نشوتها وهو يخرج من مساماتي، وأشمّ عطر لذّتها حين ينسكب على جسدي. ولازلت أذكر ولادتي! رحلتي في الدهليز السحريّ الذي نقلني من داخل رحمها إلى الوهاد والسفوح في جسدها المستحم برذاذ البحر وعبق الصنوبر والأرز. نعم! أبصرت النور من فرجها، ثمّ رأيته بريقاً في عينيها. لذلك تراني أكتب عن ذكرياتي معها بهذه القوة.

أخشى أيّها المارق في طريقي أنْ أبوح لك أنّها أمّك، أختك، زوجتك...

أوّاه يا امرأة... يا لبنان.

السَاعَة الواحِدَة ظهراً

كانت تيرين تلوّح له بكلّ يدها حين شاهدته يخرج من بوابّة الجامعة إلى الزقاق الذي تركت فيه سيّارتها، فهناك الموعد المعتاد، الساعة الواحدة من ظهر أغلب أيّام الأسبوع. ولعلّه الموعد الوحيد الذي تلوّح فيه تيرين بكلّ يدها لإنسان.

يبتسم ماجد ابتسامة عريضة تغيّر من طبيعة وجهه الجدّي الحادّ القسمات. اللقاء ككلّ يوم: عناق طويل، ثم نظرات إعجاب متبادلة كأنّها تجدّد العهد، وتعيد الثقة، كلّ يوم الساعة الواحدة ظهراً.

- سيّارتي أم سيّارتك؟
- لا هذه ولا تلك. بعد مسيرة الأمس، أعتقد أنّني أستحق وجبة شهيّة، خصوصاً أنّني كنت المسلم العربيّ الوحيد في مسيرة أرمنيّة.
- يالك من مغرور! بل كان هناك عشرات المسلمين والعرب، وكلّهم أحيوا ذكرى استشهاد الأرمن.
- أنا متأكّد من ذلك. كنت أعاكسك فقط، ولعلّ المسلمين والعرب عانوا أيضاً من ظلم العثمانيّين. تعرفين رأيي بهذا الموضوع. هيّا نتمشى إلى...
- "ذي غرين"؟
- بالضبط. تعرفين أنّي أعتبره أحلى زاوية في بيروت.
- أعرف ياحبيبي، أعرف. لا شكّ أنّه مكان رائع ومعتدل الأسعار، ويبدو أنّك لا تملّ منه أبداً. هل لازلت تشرب فيه كلّ مساء؟

- أغلب الأمسيات، وحبّذا لو تكوني دائماً معي.
- ياليت... ياليت!

ويضمّها أكثر بيده التي تطوّق خصرها، وتتهادى خطواتهما حينما ينعطفان بالقرب من السفارة الإنكليزيّة إلى الكورنيش العريض، ويمدّ ماجد بصره إلى أمواج البحر الأبيض المتوسّط الهادئة، ثم ينظر في وجه صديقته الأبيض الناصع الذي صبغت عليه الشمس الساطعة لوناً ورديّاً.

- إن وجهك ياترين مثل بيروت.
- هل تعني أنّ فيه الكثير من الأبنية والطرقات والسيارات؟

ويضحك ماجد بصوت يصل إلى مسامع عامل محطّة الوقود المجاورة الذي يبتسم له ويأخذ تحيّة بيده قائلاً:

- الله مع الأستاذ، والحلوين.
- الله مع سعيد. تفضل وتناول غذاءك معنا.
- عامر! بل أنتما تفضّلا إنْ كنتما تقبلان ببعض البيض المسلوق.
- ألف صحّة. ألف صحّة.

وابتسامة أخرى من ماجد وتيرين.

- ماجد، لا شكّ أنّك تحبّ الناس كلّهم، على اختلاف طبقاتهم.
- بل أحبّ جوهر الإنسان، وما الألبسة والمراكز سوى مظاهر تكميليّة.

- كفى فلسفة، وخبّرني الآن كيف تمزج بين وجهي وبيروت.
- هل تذكرين في العطلة الماضية حين استعرنا مركب والدك، وقمنا بنزهة بحريّة؟ حينما عدنا مع الغروب، كانت بيروت على البعد ناصعة البياض على خلفيّة ورديّة اللون. كان شعرك يتطاير مع النسائم الباردة، وأنت تردّدين بعضاً من أغاني فيروز، ووجهك مصبوغ بحمرة الشمس.
- أتذكر أنّني حينما وصلت إلى عبارة "لؤلؤة بحريّة" قلت لي إنّ بيروت هي فعلاً لؤلؤة في الليل، ولؤلؤة في النهار، ومنذ تلك اللحظة نسيتَ المركب والنسائم الباردة والبحر، ونسيت تيرين، وصارت بيروت شغلك الشاغل، حتّى وصلنا إلى الميناء.

أيّها الخائن!

- أعرف أنّك لا تلومينى، فانت تحبّين بيروت أكثر ممّا أحبّها أنا.
- اتّفقنا. غلبتني!
- أتمنّى أنْ أغلبك حتّى النهاية.
- ماذا تعني؟
- أتمنّى أنْ يكون حدسي صحيحاً، وأنْ يكون وقف إطلاق النار هذه المرّة نهائيّاً بعد مرور أكثر من شهر دون حوادث تذكر، وليس كما يتنبّأ البعض، ومنهم أنت... لم أعرف أنّكِ متشائمة إلى هذا الحدّ.
- أنا لست كذلك، لكنّي أعتقد أنّ حرصك على بيروت يجعلك تتصور أنّ القضيّة أبسط ممّا هي عليه. إنّ مثاليّتك توهمك أنّ الإنسان لا يمكن أنْ يقوم بهذه الأعمال التي نسمع عنها ونشاهدها، خصوصاً أنّ

هذا الإنسان يدّعي أنّه أكثر بشر المنطقة مدنيّة وثقافة.

- إنّه أمر غريب حقاً. لست أدري. على كلّ حال أنت لبنانيّة، وتدرسين التاريخ، ولا بدّ أنّك أقرب إلى فهم السياسة مني. أمّا أنا فيبدو أنّ قوانين الفيزياء التي أدرسها لم تستطع أنْ تجعل منّي إنساناً ماديّاً. لا بدّ أنّني عالم فاشل!
- بل أنت المتشائم الآن! أنت إنسان ناجح قبل كلّ شيء، وأنا متأكّدة أنّك حين تعود للأردن ستقدم الكثير لبلادك.
- الحبّ أعمى!
- لكنّه ذو بصيرة.
- آه أيّتها الأرمنيّة! لا شكّ أنّ لغتك العربيّة في تحسّن مستمر.

يقف ماجد قليلاً حتّى تمرّ تيرين أمامه إلى داخل حديقة المطعم. وكالعادة، الطاولة الصغيرة التي تتربّع في إحدى زوايا الحديقة هي مكانهما المفضل. أوّل ما يفعله بعد الجلوس، هو أنْ يتفقّد ببصره كلّ زوايا المكان التي أصبحت جزءاً منه.

النباتات الكثيرة المزركشة الأوراق، والأصص المُرتّبة حول بركة صغيرة، والفوانيس المعلّقة هنا وهناك، والباب الزجاجيّ الخشبيّ الذي يفصل الحديقة عن المشرب. لقد كان هذا المزيج من الأشكال والألوان، مع أنغام الموسيقا المنطلقة من داخل المشرب، يعكس إليه مزيج ثقافات مختلفة، شرقيّة وغربيّة. حتّى أنّ روّاد المكان أنفسهم هم مزيج من الشرقيّين والغربيّين، ولعلّ الوضع مشابه للحال في الجامعة الأميركيّة في بيروت، حيث يُحَصّل علومه هو وتيرين.

كان هذا المزيج الحضاريّ جزءاً من نظريّته في الحياة. كان يعتقد أنّ تطوّر المجتمعات لا بدّ، يوماً، أنْ يصهر كلّ الفروقات العنصريّة والدينيّة والإقليميّة في بوتقة جديدة تخرج من قالب الإنسان كإنسان، ولا شيء غير الإنسان. كان يعلم أنّه ليس من جديد في هذه الأفكار، ولكنّه كان يعلم، وكانت تيرين تعلم، أنّ هذه الأفكار لازالت بعيدة المنال، وأنّ هذا المزج قد يشكل ظاهرة خطر، عوضاً عن أنْ يكون ظاهرة صحّة تحقّق تلك الأماني المنشودة.

- سأذهب لإحضار الشراب، بينما تفكّرين ماذا تريدين للغداء.
- سأتناول بعض السلطة والجبن.
- يا للغباء! بل أعتقد أنّ الطبق اليوميّ شهيّ هذا اليوم.
- لا داعي للمصاريف الكثيرة، أضف إلى ذلك أنّني لا أنوي أكل الكثير من الطعام هذا اليوم.
- يالك من بخيلة!
- حتّى لو كنتَ أنت صاحب الدعوة؟
- هاها... لا عجب أنّ أبيك من أصحاب الملايين!
- كفى ثرثرة وعجّل بالشراب، فإنّني عطشى يا حبيبي.

يبتسم لها، وما إنْ يغادر مكانه حتّى تتسلّق إليه إحدى القطط الأليفة التي تمرّ بين الحين والآخر تلتمس كرم الزبائن، وأحياناً حنان أيديهم التي تداعب جسمها الناعم. تنظر تيرين في عيني القطّة، وتنظر القطّة في عيني تيرين. بعد لحظات من الاطمئنان، ترقد القطّة بهدوء، وتحوّل تيرين عينيها إلى باب المشرب منتظرة عودة حبيبها الغالي بحنان كبير.

وضع ماجد قدحين بلون شمس بيروت على الطاولة المغطاة بقماش أرجوانيّ اللون، وقبل أنْ يجلس احتسى جرعة كبيرة، ثم استدار مخاطباً القطّة أنْ تسمح له بالجلوس إلى جانبها، وحاول وضع نفسه في ما تبقّى من مكان على المقعد، بيد أنّ القطّة لم ترق لها الفكرة، وقفزت مولّية الأدبار.

- هذا أفضل. أما زلت تصرين على السَلطة؟
- نعم، مع العلم أنّه قد يروق لي أنْ أتطفّل إلى صحنك، وأتذوّق بعض "الشيش كباب".
- يالك من شيطانة! كم أنا سعيد بك.

كانت اللحظات تمرّ بين جوارحه المفعمة بسكرة الصداقة الحميمة التي تجمعه مع هذه الإنسانة، ويبدو أنّ أحبّ شيء إلى قلبيهما كانت تلك الفكرة الكبيرة: الإنسان المحب للعطاء، المتجرد عن الأنانيّات الدينيّة أو الإقليميّة العمياء.

كم من مرّة شهدت هذه الطاولة محاوراتهما حول هذا الموضوع؟ ألم يكن هذا الموضوع هو الذي جمعهما أوّلاً وأخيراً؟ أولم يكابد الكثير حين علم أهله أنّه يصاحب فتاة من غير دينه؟ حتّى أهل تيرين، الأكثر تحرراً، يقبلون به صديقاً للعائلة بتحفظ. صحيح أنّهم في غاية اللطف معه، لكنْ ألم يلمّح له والدها أنّه لا يقبل فكرة زواج ابنته من غير دينه، وذلك خوفاً من كلام الناس، وهو صاحب مركز اجتماعيّ كبير؟

يالغباء العالم! أحقّاً نحن في أواخر القرن العشرين؟ ولكنّها تبقى الحقائق المرّة، وكما قالت له تيرين، أنْ يحب الإنسان شيئاً لا يعني هذا أنّ الشيء سيصبح في القالب الذي يريده هذا الإنسان. صحيح، صحيح! لا يمكن لفرد أنْ يغيّر العالم. وحتّى...

- أين وصلت؟

- نعم؟ لا، لا، لا شيء. كنت أفكر كيف أنّنا نؤمن معاً أنّ الإنسان كإنسان هو أهمّ من العادات والأفكار، لأنّه هو من خلقها.
- صحيح، ولكن مع الأسف خلق لنفسه فيها سجناً كبيراً. على كلّ حال دعنا من هذا الآن، فلديّ خبران قد لا ترتاح إليهما.
- خير؟
- أوّلاً لن أتناول القهوة معك الآن فعليّ أنْ أذهب. لن أحضر دروس العصر، فوالدتي متوعكة قليلاً.
- أنا شديد الأسف لذلك. الأزمة القلبيّة من جديد؟
- يبدو كذلك. ويبدو أنّني من الآن سأصرف الكثير من الوقت إلى جانبها. أنت تعلم أنّني ولدهما الوحيد. ويبدو أنّ... الحقيقة أنّ الشيء الآخر الذي أودّ أنْ أقوله هو أنّنا قد نغادر إلى باريس قريباً. أنت تعلم عقليّة والدي. الأمر كلّه يبدو سخيفاً. لو كنا فقراء لبقينا هنا. أعلم أنّك ستقول لي لماذا لا تبقين أنت. لست أدري. على كلّ حال، لازلت فتاة شرقيّة على الرّغم من كلّ أفكاري، وأعتقد أنّ والدتي ستكون بحاجة إليّ. لست أدري!

وبينما يمسح عن عينيها الدموع القليلة التي قهرت مقاومتها، كان يتذكّر أنّ هذه الدموع هي مثل دموعه الصامتة التي تخشى لحظة الفراق. فراق تيرين، وفراق لبنان. كان يؤكّد لها:

- نعم إنّي أفهم كلّ هذا، لا داعي لأن تبحثي عن الأعذار، بل أعتقد أنّك تقومين بما هو صحيح، عمليّاً على الأقل، أمّا النظريّات، يبدو أنّ كلّ شيء

سينتهي كما انتهت قصّة شهداء الأرمن: ذكريات سنويّة، وماذا بعد هذا؟

- لا تكن قاسياً.
- سامحيني. لا يحقّ لي أنْ أقول شيئاً. فأنا أيضاً من هذه الأكثريّة الصامتة التي لا تستطيع تغيير وجه الأمور. سلامي لوالديك، مع خالص حبي.
- على كلّ حال سأراك كثيراً في الأيّام القادمة، ولا بدّ أنْ تاتي لزيارتنا. السبت القادم أهلي في الجبل، وسأبيت أنا في بيروت لأنّ عرس ثريا يوم الأحد. أنت مدعوّ أيضاً، وليلة الأحد السهرة عندك. سأبيت عندك.

يهزّ لها برأسه متنهّداً مبتسماً ابتسامة شاحبة، أمّا هي فتصنعت المرح في تلك اللحظات، وتركته إلى فنجان قهوته، واتجهت خارجة والدموع تنصبّ من عينيها.

كان يعلم أنّها ما إنْ تغيب عن ناظريه حتّى تبكي وتبكي كثيراً. كان يعلم في قرارة نفسه أنّ هذه أبسط المشاكل. على الأقل تيرين بخير، وأصدقاؤه كلّهم مازالوا بخير. كان كلّ ما يتمنّاه أنْ تنتهي أزمة لبنان إلى الأبد، لأنّه كان مقتنعاً أنّ جوهر القضيّة لا يستحق كلّ تلك المآسي من قتل وخطف وتعذيب.

لماذا لا يكون الجميع مثله ومثل تيرين؟ لماذا لا يتفاهمون على أقلّ قدر من الخسائر؟ ياله من غبيّ كان يعتقد؛ ليس هذا هو منطق التاريخ، وليس هذا منطق الاشتباكات الأهليّة.

كان يرفع فنجان قهوته ليحتسي أوّل جرعة عندما شعر رأسه ينفجر بدويّ هائل، ويرى أمامه أشلاء طاولات وكراسي تتبعثر.

هل هذا يوم القيامة الموعود؟ أمِنَ المعقول أنْ تكون هذه إحدى القذائف الأثيمة، ولمَ تستهدف هذا المكان؟ لماذا يحسّ

بسائل ساخن ينساب من رقبته إلى ظهره وصدره؟ لماذا وقع من يده شيء كان يحمله؟ لماذا تبعثرت هذه الحديقة الجميلة؟ ماذا يحصل الآن في بيروت؟ وتيرين، أين أنت يا تيرين؟ أين القيم، والإنسانيّة، والأكثريّة الصامتة؟

عندما بدأت رؤيته تضمحلّ، كانت زرقة السماء الصافية تتهادى كأمواج البحر الأبيض المتوسط، واللون يتلاشى إلى سواد قاتم، والنور الوحيد الذي يراه هو مركب، وإلى جانبه مركب آخر، واحد يقترب من بيروت، والآخر يبتعد عن جزيرة تغرق في شرق البحر الأبيض المتوسط. على كلّ من المركبين الفتاة نفسها، تيرين، ذات العيون اللوزيّة، تغنّي للبنان وأرمينيا وفلسطين.

البَحر . . . بَيروت . . . والجَبَل

حين اقتربت رندة من نهاية النفق الذي يمتدّ تحت الكورنيش العريض الذي يوصل بين حرم الجامعة الأميركيّة ومسبحها، تباطأت خطواتها. لم يكن سبب التباطؤ أنّ قدميها العاريتين مقدمتان على تلمّس طريق وعرة بين صخور الشاطئ، ولا لأنّها ستحاول السير على رؤوس أصابع قدميها اتقاء للحرارة المختزنة في الممرات التي خبزتها الشمس، ولا هي خائفة من رصاصة قناص، ولا من شظيّة قاتلة. السبب أشدّ إثارة للقلق والخوف بالنسبة لها.

'ابتسمي، وعيشي من أجل لبنان، ومن أجلي.' هذه الزفرات التي كانت تنفجر في أضلاعها مع كلّ خطوة تخطوها، كانت السبب وراء عزيمتها على المسير قدماً، خارجة من ظلام النفق إلى ضياء الشاطئ. وهذه الزفرات كانت أيضاً السبب في تباطؤ المسير؛ تلك كانت آخر كلمات استطاع كميل أنْ يبثها في فؤادها.

توقّفت قليلاً، ونظرت بارتباك نحو البحر الأبيض المتوسّط، فكم كانت تحيد ببصرها نحو ذلك الخِضَمّ كلما أرادت أنْ تتّقي بحياء نظرات الإعجاب التي كان كميل يسكبها عليها من عينين صافيتين، جبليّتين، لبنانيّتين. مشت متسارعة الخطوات، وكأنّها بدأت تناغم بين المسير وبين تسارع دقّات قلبها الخافق بالألم.

أو لعلّها ركضت هاربة من الذكرى؟ ذكرى جديدة أضيفت إلى خزانة الآلام البيروتيّة، حين أصابت شظيّة قاتلة جسم حبيبها كميل، الذي ما كان له من ذنب سوى انتظار دوره في الحصول على

إفطارهما المفضّل: المناقيش بالصعتر. من ذا الذي أراد إبادة مخبز؟ من ذا الذي أراد إبادة إنسان؟

أو لعلّها ركضت حنيناً إلى الذكرى، لتعيش تجربتها في مكان جمعها مع كميل في لحظات حلوة. هل كان بإمكانها فعل هذا وأهمّ عناصر التجربة غائب؟ هل بإمكان الخيال الخصب، والشوق المستعر أنْ يعيدا من رحل إلى غير رجعة؟ 'عيشي من أجلي، ومن أجل لبنان. بل من أجل لبنان. كلّنا يمضي كشخص، ونبقى جميعاً على شكل الوطن. كلّنا يمضي كأقصوصة صغيرة، ولكن نبقى كحضارة، كفكرة كبيرة.' هكذا زفر كميل، وما عاد لديه إلى الشهيق سبيل. هل هي هنا تنفيذاً لرغبة أعزّ الأحبّة إلى قلبها؟

ستواصل رندة التجربة. اتجهت إلى البقعة نفسها من الشاطئ، حيث كانت تجلس مع كميل، تسامره ويسامرها، وأحياناً تخاصمه ويخاصمها! ولكم حدّثها عن الأغبياء الذين يتشاتمون في حرم المجلس النيابي. لو أنّه معها الآن، لربما حدّثها أيضاً عن المجانين الذين يتاجرون بالشعب، وبالمعتوهين الذين يقايضون على "فينيقيا" وهم في أواخر القرن العشرين. 'ليته معي، ولا أريد أنْ يحدّثني عن شيء!' وهزّت رأسها بسخرية الملتاع المتحسر.

استراح نظرها مع الأمواج الهادئة، واحسّت بسكرة الطفل الصغير حينما يُهزّ سريره تدليلاً، وارتسمت على شفتيها ابتسامة لا تعبر عن السعادة، ولا عن الحزن. لا عن الصمود، ولا عن الخوف. لكنّ رندة ما عرفت في تلك اللحظات ما كان يرتسم على وجهها الملوّح بحرارة الشمس. أمّا الزبد الخفيف الذي امتطى صهوة تلك الأمواج الراقصة بهدوء على سطح البحر، فلقد كان يظهر لها مضخّماً على شكل قمم مكسوّة بالثلج لجبال شاهقة العلو، تتراقص بين ضلوعها الرقيقة. في واحدة من تلك الموجات، كان كميل يسبح بمهارة!

استلقت نصف ساعة تحت أشعّة الشمس، وفكّرت أنْ تقوم فتسبح، لكنّها، ولأوّل مرّة خافت من ذلك البحر. خافت أنْ

تضيع في الأعماق، أو حتّى بين الأمواج دون كميل. وجه كميل ما عاد يظهر بين الأمواج، ويده ما عادت تلوّح لها بحرارة. استيقظت رندة في منتصف الحلم، وعلمت أنّها تحلم، فعادت إلى النوم والحلم.

سبق لرندة أنْ تركت سيّارتها على الكورنيش العريض. جلست على مقعدها محاولة اتقاء حرارة الشمس المختزنة فيه، وتناوبت أصابع يديها الناعمة على عجلة القيادة الساخنة، وانطلقت باتجاه الجبل من طريق "الحازميّة" لأوّل مرّة منذ فترة طويلة. ومع أنّ حرارة بيروت، وازدحام "كورنيش المزرعة" ذلك السبت كانا يشغلان حيّزاً من تفكيرها وقيادتها السيّارة، ما كان لها لتنسى ولا للحظة واحدة أنّ المقعد الذي إلى جانبها خلو للمرة الأولى منذ أنْ تعرّفت إلى كميل، وبدأت تقضي معه عطلة نهاية الأسبوع بين البحر والجبل في يوم كهذا. كانت كلّما توقفت عن المسير بسبب إشارة ضوئيّة، أو ازدحام، تتلفت ذات اليمين وذات اليسار لترى أماكن كانت ترتادها مع كميل. لم يكن "الجندول" وحده مبعث الذكريات- ففيه قدّم لها كميل عدداً من أقداح القهوة، وقطع الحلوى – ولكنْ حتّى أصغر المكتبات، وباعة الصحف، كانت أيضاً بواعث للحنين. أين لك يا رندة نسيان تلك الوجوه التي شاركتك أفراحك مع كميل؟

ولعلّ ذكريات هذه الأماكن قد ترسّخت الآن أكثر، فهي أماكن سبق أنْ أغلقت أبوابها، أو أقفرت لمدة طويلة. هاهي تعود الآن للعمل بحذر شديد، ولمدة لا يعلم أحد كم ستطول. كانت رندة تنظر إلى كلّ بقعة بشغف شديد، وحبّ شديد، وخوف أشدّ. هل تفرح الآن بعد أنْ بدأ كلّ شيء يعود إلى طبيعته، وهي تعلم أنّ هذا ترسيخ جديد للواقع الذي ستعيشه مع هذه الحياة الآمنة الجديدة: حياة دون كميل؟

ما كانت الطريق العريضة التي بدأت تشكل بداية الصعود باتجاه الجبل، والتي أراحت محرّك السيّارة من ازدحام

بيروت، إلاّ لتزيد من تطلع رندة يمنة ويسرة، وهي تقود سيّارتها بسرعة أكبر، وراحة أكثر، على الرّغم من كلّ السيّارات المتسابقة صعوداً، عن يمينها تارة، وعن يسارها تارة أخرى. هنا أيضاً أماكن تحاول العودة للحياة من جديد. هنا أيضاً مواقع لذكرياتها مع كميل: ففي ذلك المنعطف بدّلت معه عجلة سيّارة انثقبت، ومن تلك الدكان شربا عصير البرتقال الماورديّ، وتحت تلك الشجرة استوقفهما رجل أركباه إلى هدفه. أمّا في ذلك اليوم، لم تتوقف رندة، ولا حتّى لشراء منقوشة بالصعتر. لكنّها فرحت لمشاهدة هذه التجمّعات المسالمة لهؤلاء المارة المشتاقين إلى المناقيش الطازجة التي تأتي دون قذائف أو شظايا. انهمرت الدموع من عينيها، فكميل لم يكن بينهم لشراء إفطارهما المفضل.

أحسّت وهي تقترب من "عاليه" بالنسائم التي بدأت ترطّب جسمها المتعرق، على الرّغم من الازدحام النسبي في تلك المدينة الجبليّة. واصلت القيادة بحذر، فإذا ما انحدرت قليلاً في طريق "عين السيّدة"، وطالعها الشارع الوارف الظلال المليء بالفنادق اللطيفة، راحت تبتسم وهي تتذكر ما حدث يوماً بعد أنْ ملأ كميل السيّارة بالوقود عند محطّة في ذلك الشارع، وانطلق مواصلاً الرحلة.

توقّف كميل فجأة في عرض الطريق.

- يا إلهي!
- ماذا، هل من خطر يا كميل؟
- إفتحي النوافذ.
- ماذا حدث؟ بربّك خبرني.
- شمّي، تنشّقي، رائحة الصنوبر المنبعثة مع نسائم جبل لبنان.

وضحكا معاً، وانطلقا مسرعين بعد أنْ تنبها لزمامير السائقين خلفهما. ضحكت رندة وحيدة هذه المرّة، وتابعت القيادة دون أنْ تسمع ترداد الزمامير.

كان بائع البوظة الشهير في سوق الغرب أحد أركان الذكريات الكثيرة على طريق الجبل، بل كان كلّ شبر في الطريق ذكرى تضاف إلى ذكرى، فإذا ما اقتربت رندة من الضيعة التي ولدت فيها، وأمضت فيها معظم أوقات اصطيافها، وبعد ذلك كلّ عطلها الأسبوعيّة مع كميل، بدأ قلبها يدّق مثلما دقّ حين دخولها مسبح الجامعة ذلك الصباح. في "كيفون" كان كلّ شيء خاصاً جداً، وعزيزاً جداً، بما في ذلك "أبو سعيد" بائع التين بشاربيه العتيدين، الذي كان يأتي على حماره الدؤوب من قرية "بيصور" المجاورة، وكان يحكي مع كميل حكايا السياسة، وهو يبيعهما من لذائذ ما يحمل. لم تجد رندة كميلاً ولا أبا سعيد في ساحة كيفون، فتابعت طريقها إلى رأس الجبل.

ترجلت من سيّارتها، ووطأت بقدميها مراتع الطفولة والمراهقة والشباب: أحراج الصنوبر. كانت رائحة الحرج المميّزة الممتزجة مع أصوات الصراصير، تفعل في نفسها فعل عشرين قدح من النبيذ الزحلاويّ المعتق الذي كان كميل يفتخر أنّ بلدته تنتجه بمهارة! على تراب الحرج، وبين شجراته، جلست مراراً منذ طفولتها. على أكواز الصنوبر المعلّقة بين الأغصان، رمت كثيراً من الحجارة، وأسقطت قليلاً من الأكواز. أكثر ما كان يستهويها هو الركون إلى صخرة تطلّ على الوادي الذي ينحدر إلى البحر مروراً ببلدة "شملان"، وقرى أخرى، إلى أنْ تلامس بيروت حافة الشاطئ. تسكت الصراصير ثوان معدودة، فيقول كميل: 'إسمعي صوت السكون.' وتنتشر في جسديهما قشعريرة الاندماج مع الطبيعة، ويلتهبان معاً جسداً واحداً تصهره نار حبّ حامية، لكنّه لا يحترق إلاّ لذّة ونشوة.

نظرت إلى بيروت، وتذكّرت كلّ الأغاني الجميلة التي غنّاها الناس عن بيروت. وتعجّبت كيف أنّ الكلّ غنى لبيروت، والكلّ أسهم في خراب بيروت، ثمّ بكى الجميع على بيروت! وتفجّرت في قلبها كلمات حنونة: أحبّك يا بيروت. كان صوت الكلمات ينطلق

داخلها باللهجة الزحلاويّة نفسها التي كان كميل يقول بواسطتها: ‘أحبّك يا رندة‘. هل يزداد الحبّ بعد الخسارة؟ أم أنّ زيادة الحبّ حيلة النفس في التخلص من العذاب؟ وهل التخلّص من العذاب أنْ يزيد العذاب؟

نظرت رندة إلى بيروت. سكتت الصراصير للحظات قصيرة، ثم عادت للغناء. تضخّمت الأصوات في مسامع رندة حين كانت بيروت تنصهر أمامها كالبركان تحت أشعة الشمس. كان كلّ بناء يذوب ويغلي، حتّى انصهرت الأشرفيّة والشياح وعين الرمانة والنبعة وبرج البراجنة ورأس بيروت، وانصبت كلها في ساحة الدبّاس وسوق الطويلة: في قلب العاصمة.

زاد الغليان. ظهر من قلب العاصمة رأس بدأ يتضخّم ويعلو جارّاً خلفه ثوباً من البراكين، تحوّلت إلى جسم عملاق يرتفع في الوادي السحيق، حتّى صار الرأس محاذياً قمّة الجبل، والكتفان عند "شملان"، ويد في البحر، والأخرى تحيط بخصر الجبل. بَرَد العملاق شيئاً فشيئاً، وتصلّب ليشبك البحر وبيروت والجبل. سكتت صراصير الحرج ثانية، فاستمعت رندة إلى صوت السكون. حين بدأت الصراصير تغني من جديد، صار الجسم يتبدد إلى أثير فيه كثير من ألوان قوس القزح. تشابكت الألوان ليصبح كلّ شيء بلون السماء الصافية. عندها ارتسمت ملامح العملاق على وجهه، لكنّه كان وجهاً غريباً محيّراً. على الرّغم من أنّ رندة كانت متأكدة أنّه وجه كميل، لم تعلم فيما لو أنّه أيضاً وجه البحر، أم وجه بيروت، أم وجه الجبل. هل هذا وجه لبنان؟ عجباً لهذه الأشجار، هل هي أشجار صنوبر، أم أنّها أشجار أرز؟ صاحبت حيرتها الشديدة هذه نشوة غريبة، وكأنّها شعرت للحظة أنّها عرفت "الحقيقة". وداهمتها رغبة شديدة في أنْ تلقي نفسها في أعماق الوادي السحيق، في أحضان لبنان الجديد الذي انسكب روحاً في جسد كميل.

نهضت واقتربت من حافّة الهاوية وهي تنظر إلى تلك "الروح". سكتت الصراصير، وسمعت رندة صوتاً مألوفاً يهمس: 'عيشي من أجل لبنان... من أجلي.' أصابها رعب عظيم وهي تحسّ أنّ هذا العملاق يتبدد بين ضلوعها حين كان قلبها يدّق متسارعاً، وهي تضحك وتبكي معاً.

ارتمت على مقعد سيّارتها منهكة القوى وكأنّها مارست حبّاً غريباً لذيذاً ألف مرّة في ثانية واحدة. رفعت رأسها لتنظر بذهول إلى ذلك الوادي الذي ولّد الحب في شبابها من جديد. ستعود من أجل ذلك الجنين. ستعود إلى شاطئ البحر، وحين يحين الموعد، ستضع ثمرة حبهما وستسميها "نور". وحين يكبر أو تكبر نور، ستكون مع حبيبها في سيّارة، وسيكون مشوارهما على طرقات لبنان، إلى فاريّا وبرمانا وريفون وبيت الدين وحمانا وجزين وإهدن وكيفون... إلى كلّ الضيع الصغيرة، والمدن الكبيرة، بين الناس الطيبين. ستمتلئ المنعطفات بأنوارٍ صغيرات، يشترين المناقيش بالصعتر، ويكبرن وهنّ يلعبن بالحجارة وأكواز الصنوبر في أحراج لبنان.

الجَارُ البَعيدُ

إلى جدّي، الشيخ أحمد عارف الزين، الذي خلع
قنبازه الجديد ليقدمه لسائل طرق بابه يوم العيد!

هل عرفته؟

جارك في الجنوب، استأجرته، طحن لك الحبوب. قاد عربتك. نظّف شوارع المدينة. وزوجته غسلت ثياب أولادك. أعدّت مائدة طعامك. وغسلت أطباق مآدبك العامرة. طفله مسح حذاءك وهو في قدميك. باعك جريدة. حمل لك كيس خضار. طفلته شطفت مراحيض بيتك، نفضت عنه الغبار، مسحت أرضه، وخرجت مطرودة حين اتهمها ابنك بالسرقة، لأنّها رفضت تحرشاته.

هل عرفته؟

واليوم، ككل عام، خبّروني أنّ العيد جميل. صحيفة الصباح والناس والمذياع، خبّروني أنّ العيد جميل. ترتدي ثوبك الجديد، فهل رأيت عليه ثوبه؟ طفلك يفرح لاهياً، هل رأيت بؤس طفله؟ تأكل الحلوى، والخبز إنْ ألفاه أشهى طعامه. ولا تحدّث عن نقص الدواء والعلاج.

من الجنوب هو. فليكن! ما أنت يا ابن الشمال؟ أنت هو... في مكان آخر. ثوبك الجديد عليك، فهل رأيت عليه ثوبك؟ أكلك الوفير بين يديك، فهل جعلت بين يديه أكلك؟ والميراج لا تجوب سماءك، والنابالم لا يحرق أرضك، فهل تمنّيت له الأمن والصفاء؟ خبزاً وماء؟ ليس فقط، بل كرامة وحرّيّة وإباء، وصافية فوقه السماء.

هل عرفته؟
إنّه أنت في مكان آخر.
وهل أحسست؟
إنّه أنت في مكان آخر!

لبنان، 1973

(كُتبت عام 1974، ونُشرت في سيدني عام 2008، في ذكرى ويلي براند الذي حاول فتح الحوار الشماليّ الجنوبيّ.)

الشيخ أحمد عارف الزّين،
رائد نهضوي في جنوب لبنان خلال النصف الأوّل من القرن العشرين

كَلامُ غُروب

إسألي نفسك. كم من الوقت أضعنا؟ كم مرّة صار القمر بدراً وتنشقتِ هواء الليل بلا سمير، ونشر الربيع على الربى سحراً، ومشيتِ بين الزهور وحيدة؟ كم ليلة عصف الشتاء وما دفّأت يديك أيادٍ حبيبة؟ كم مرّة تفتح الياسمين، وظلّ حزيناً؟ كم داعب النسيم شعرك، وسجد الشذى لعطرك، وعانق الفضاء خصرك؟

بلا فائدة! فمع النسيم ما كانت يداي، ومع الشذى ما سجدتُ، ومع الفضاء ما ضممتُ. كيف تحلو الحياة دون حياة؟ كيف يمضي العمر كلّه بضع ثوان أو ساعات؟

كيف يمكن للعمر أنْ يمضي بالأمل؟ فوددت لو أنّك يا شمسي لا تغربي عني، أنْ تكوني أكثر اقتراباً مني، أنْ نغرق في زوايا مكان يجمعنا، فلا نحسب الوقت، ولا نضيع حلاوة الثواني بالتمني.

بل وددت لو أنّك في القلب لم تشرقي، ولم تملأي الأعطاف دفئاً، والأنفاس عطراً، والشفاه ورداً... فلو أنّها ما أشرقت، ما غابت شمسك عني!

أنا . . . وأنتِ . . .

أنا لا أعرفكَ ياصاحبي،
ولا دار بيننا كلام
لا... ولا زرعنا القلوب ودّاً ووئاماً.
فمن أنتَ، ومن أين أتيت؟
كيف تبوح بهذا الغرام؟
بل متى عرفتني؟
وكم وكيف؟
إلامَ هذا الوهم؟
ولمَ تطلب إليّ أنْ أراك،
أحمل عنك خطاياك؟
وكيف تعاتبني
تعدّ خطواتي،
من أوكلك على شؤون حياتي؟
لمَ لا تتركني بسلام؟

***

لكنّي أعرفكِ!
أعرف من أنتِ ومن أين أنت.
بين القلوب قد يدور كلام.
أعرفك من أزلٍ
مرسومٍ قبل التكوين،
قبل الأرز، وقبل الأهرام،
قبل الأبجديّة.

عاتبيني...
عدّي خطواتي،
واحسبي أنفاسي وآهاتي،
شاجريني على شؤون حياتي،
وإيّاك...
ألف إيّاك، أنْ تتركيني
بسلام!

***

لا تعرفينني؟
لك الحقّ سيّدتي:
أنتِ ما أحببت هوايَ
ولم تحبيني.
لك الحقّ سيّدتي:
ما أردت أنْ تعرفيني!

العُيونُ الشَفّافَة

صافيتان... كلون الخيال عيناك.
آه من عينيك، شفيف عمري من الأعماق لأبعد الأبعاد.
كيف أحسب عمري دون مرآك؟
أنا الذي أراني في عينيك،
وبين حناياك ينام الوجود ويستكين الزمان.
إنْ سكبتُ لك كأس محبّة، هل تشربين؟
من دمي وفكري ووداديْ؟
الحبّ حنين ولهفة وسهاد.
لعبة الشوق خطوط وألوان...
أنغام وأنفاس وفنون.
هل عرفت كيف تكون؟
لعبها النحل حين سكب عسلاً في عينيك،
والدجى حين ارتاح في الرموش.
تتفتحان نظرةً تطيح بأعماق سكوني،
تضرم ناراً في قراري.
تنغلقان سيف ضياء، باهر السحر،
يكسر أقفال السجون.
ما لعباً تحطميك الأغلال، لكنْ لك في الحرّيّة فنون!
حرّيّتي أراها في عينيك.
سكبتُ لك كأس محبّة،
متى تشربين؟

الفَراشَةالصَفراء

يقولون إنّ الأصفر لون الغيرة.
ويقولون عنه أشياء وأشياء.
وردتي، منذ رأيت فراشتنا
ما عدت أؤمن بهذه الخرافات.
فراشتنا كانت صفراء.
وحيدة بين الفراشات...
بين النبات الأخضر طارت،
استقامت تارة ثمّ دارت،
وبين كلّ الصبايا
فوق رأسك وحدك صارت.
فراشتنا الصفراء ذوّاقة،
تحبّ الشعر الأسود
والعيون البرّاقة...
تحبّ الأناقة.
على شعاع عينيك سارت،
وحين استقرّت فوق قميصك البرتقاليّ
بين الخطوط والألوان فيك
ألوانها تلاشت وحارت.
وردتي،
أنت فراشتي الوحيدة.
كوني صفراء،
كوني حمراء،
كوني لوناً داكناً،

كوني لوناً زاهياً،
كوني ما شئت،
فالألوان سواء
إنْ رفرَف الجناح.
وكوني كيف تكونين:
كل كائن بك مسيّر
إنْ كنتِ أنتِ الرياح.

وأنا؟
ياليتني فراشة صفراء!

اللَعب بالفَراشَات

ما أجملك اليوم! عيناك صافيتان حُبّاً وخيالاً. شعرك الأسود، قميصك من برتقال البستان، والتنّورة المخطّطة الألوان... فراشة محبّة.

طار قلبي فرحاً حين أشرت قائلة: 'هيّا معي.' ومشيت... بين خوف وأمل، وراءك سرت إلى المصير، كالفراشة نحو النار تطير. كنت أعلم أنّ السؤال عسير، وأنّه قد يكون امتحاني الأخير، لكنّني مشيت كطيفٍ غامضٍ خلفك يا ضيائي. فراشة تتبع فراشة؟

واستقر المكان بنا. بقعة خضراء في رأس بيروت. واجهني هذا الشعر الأسود المنسكب دلالاً على قوام فيه من تحدي الأنثى ما يفقأ روح الجبال. وحين رميت به خلف كتفيك، راق لعينيك أنْ تنهال عليّ عسلاً مترقرقاً فوق قسمات ناعمة من أنف وشفتين باسمتين. كحل وأحمر شفاه، وخطوط وألوان شعرت بها تيّاراً يتسرب بأناقة داخل عروقي، يسألني بدلال: بعد هذا الامتحان، لمن يكون الشعر الأسود، ولمن تكون الخطوط والألوان؟ يغيظني!

حين سكبتُ شعوري في قالب الكلمات، كان شعوري أكبر. تهافتت الكلمات، وكانت أجوبتك ترتد كأنّها أصداء لتلك المرثيّة التي ابتدأها قلبي حين باشرتُ الجري خلفك: 'كلماتك يا صديقي لا تستطيع العبور في طريقي، وشراعك يا صديقي ليست له عندي شواطئ. إلى برّ آخر وجهت شراعي، وفيه مرساتي استقرت. سفري كان متلاطم الأمواج، ورحلتي استمرت واستمرت. ما داعبت شعري الأسود أنامل غريبة، وصفاء عينيّ أبحر فيه ربّان آخر. لا تحلم. لا تتلهف. لست لك آسفة أقولها، وإنْ شربتُ فمن صداقتك. أسكب كؤوس حبك، وقل لغيري أنْ يشرب.'

هكذا يتجمد الدم في العروق، وأضطّر لجمع أنفاسي اللاهثة، وتنميق القسمات في وجهي لأتستر على تسارع الخفقان في قلبي. وأستسلم لأغنية يئنّ بها داخلي، تقول إنّكِ

كنت حلماً يملأ خيالي،
زهرة ياسمين تفوح ببالي،
وحين أوشكت أنْ تكوني حقيقتي،
صارت حقيقتي حلماً يراود خيالي.
كنتِ نوراً سلطته عليك عيناي،
وحين ارتدّ إليّ صرتِ ناراً أحرقت ضلوعي،
ونبتِّ في العين شوكاً، وانهمرتِ في دموعي.

يا حلوتي لِمَ كنت اليوم أجمل؟ زيادة في العذاب؟ وكيف لا، وكلّ يوم أراك أجمل، أينما كنتِ أراك أجمل، وكيف ما كنتِ أراك أجمل. إنْ كنتِ في صُور أم برمانا، في بيصور أم في إهدن. إنْ رفعت شعرك أم تركته في انسياب، أو تبسّمت أم تبادلت معي حديث عتاب. إنْ كانت من ألوان الحقول ثيابك، من صفاء السماء، أو من أناقة الهضاب. إنْ زيّن شريط ملوّن شعرك، أو عانقت الأطواق جيدك، أم مالت على يديك الأساور...

وما همّني إنْ كحلت الجفون،
فليكن كلّ شيء كيف يكون.
كلّ شيء أنت فيه، أنت أجمل!

قلتِ لي لن يخسر أحد. ما أسهل الكلمات، ما أعذب الكلمات. لن يخسر أحد. وافقتُ معك. ما أسهل الكلمات.
خَسِرْتَ الامتحان! خسرت! خسرت!

اليوم كنتِ أجمل!

وتواعدنا على تكرار اللقاء، لقاء أصدقاء.

وانسحبتِ.

فراشتي تطير الآن مبتعدة في ممر طويل، وعيناي تطيران وراء فراشتي. وتبدّدت الخطوط والألوان. أغمّضت عينيّ، ظننت أنّي أحبس فراشتي بين جفنيّ. فات الأوان. رسبت في الامتحان.

وحملتُ ما بقي من كبريائي، ساحباً نفسي بين فشلي وحيائي. وأخذت خسارتي معي، وعدت خلفك أمشي. فراشة تتبع فراشة؟ لا.

فراشة حلوة تطير،
وفراشة بجناح كسير.
صرتِ على ذؤابة الأشجار،
وما زلت أنتظر هبة ريح
تحملني إليك؟

أحبكِ... لا تثريب عليك سيّدتي، فأنت لم تعيشي لحظاتي. شراعك ما أبحر في أعماق ذاتي. لك الحقّ، واتركي لي حقّ العيش في أتعس لحظاتي.

تطيرين الآن بين زوايا غرفتي. زوايا تتلاشى بسرعة الضوء. أحمل للسماء قلبي، أعلّقه مصباحاً دمشقيّاً يتوهج. كلّما ساد الظلام نفسي، أقنعتها أنّ فراشتي إليه قد تطير!

نطير، نطير... نقطة في المطلق نصير.
ننقسم... نقطة في العدم أصير،
ونصفي مع غيري يطير!
كل من طار مع آلهتي،
سيّد الكون يصير-
دون أنْ يعلم!

الحَديثُ الطَويلُ

الليل والنسيم. ونجمي لازال سابحاً في الفضاء، لا غطّاه ضوء القمر، ولا قلّلت من ضيائه النجوم. لكنّ الألوان والأضواء تتلاشى فوق الهضاب والمروج والشجيرات المثمرة، التي كانت تتراقص بلا حراك، وتغني بلا صوت. لوحة من لوحات أحلامنا الجميلة. لوحة واقعيّة جداً.

الأنفاس والهمسات تعود أصداء، بعد أنْ ذابت كلها في كوكبي السابح في الفضاء. هل ترينه بين الغيوم الشَفيفة؟ هل تسمعين صوته المتردّد من سواد السكون؟ بل إنّ له عطراً يسحب أريجه من حقول الليمون والبرتقال التي تعانق بيوت هذه المنطقة الساحليّة. لعلك تحسّين بمشاعره المستقاة من قلبي المفتون، ونحن نرسم بها حديثنا الحميم، إذ نخطو سويّاً على درب البلدة المرصوف بالحجارة والتراب والماء. أرض تمشين عليها، تصبح السماء، وتشرقين فيها من سواد العيون، كنجمي السابح في الفضاء.

حديثنا أنغام وفنون تنسكب دماً في عروق الزهور لتنصبغ فتنة وشموخاً، وتتمايل على رنين آهات الشواطئ، وخلجات ربّان مجنون. لكنْ على الرّغم من هذه الحيويّة، يسيطر السكون. يالمأساة حديثنا! درب البلدة قصير مهما طال. والآخرون اجتهدوا في تحرّينا. هل ينفع أنْ نمشي الهوينا؟ أنْ نبني للبلدة ألف درب؟ أنْ نصرع الحدود؟ هل نريد؟ هل تريدين؟ هل أريد؟ أنْ نسبح معاً في نجمنا البعيد؟ وهل هذا ما تبقى من حديثنا العتيد؟

هكذا يصبح دربنا باقة من التساؤلات، فألتفت إلى نجمي البعيد الذي يلقي عليّ تحيّة وميضه، غمّازاً لمّاحاً ببعض استعلاء.

نجم يخوض آفاق الكون المديدة ويتركني مكبّلاً أسير لحظتي على درب بلدة جنينيّة، مرسومة في كوكب صغير، معلّق على جهة منسيّة من درب التبّانة.

لعلّه لا يرى وجه رفيقتي!

الرَقصَةُ الأولى

إلى جولي أندروز

تنوبين بين أضلعي زهرة بنفسج. تعانقينني... سواعد ناعمة. بين يديّ يتدلل الخصر النحيل، ورأسكِ ما عرفتِ كيف تخفينه: تارة يميل بين كتفيَّ، وتارة ترمينه بعيداً فيتطاير شعرك إليّ. وحين تنسين وترفعينه باتجاهي، تبتسمين.

ما أحلى شفتيك! والأنف الرقيق هِلالٌ، والشامات السمر نجوم، في سماء من خدود. هناك ترقد جنيّة الحبّ في مصباحها المكنون. وحين نتخطى الحدود، بين الرموش، في الأحداق، في العيون السود... ينكشف الغطاء وينبجس الجمال منسكباً عليّ.

ندور... ندور... كتلة نور في فضاء الوجود. وقد يصيب خدّك خدّي، وتعتريني النشوة، وتملأين نفسي حبوراً. تصبح الجموع التي حولنا حديثاً اخترعناه، وقلبانا لاشك يتوقان لحديث سواه. جميل أنْ أرى فيك الجمال. أحلى ما فيه أنْ تجودي به.

تنظرين الآن إليّ، تتمايلين وتتدلّلين. سواد عينيك يدعوني أنْ أستزيد في احتواء الجمال، أنْ أكسر طوق الخيال. أضمك أكثر. يعانقني ذراعاك أكثر. يرتمي رأسك على كتفي. نلتصق!

هل علمتِ كم شممتُ من رحيق البنفسج؟ كم سَكِرتْ أصابعي من لمس النعومة؟ هل سمعتِ نبض قلبي وأنا أبتسم ابتسامة الانبهار؟ هل سمعت كلام اللحن المنطلق؟

وأنا أيضاً تمنّيت لو راقصتك حتّى الفجر.

هي وأنا . . . وهي

إلى غابرييلا التي عرّفتها على شعر نزار قبّاني

أكتب لكَ رسالتي الأولى، أخطّ بخلجاتي أولى الكلمات. ما عدت أطيق صبراً، وضاقت بي أساليب الحياة. أحار كيف أبدأ. هل أقول 'أستاذي العزيز؟' 'صديقي الحميم؟' 'أيّها السيّد المبجل؟' ضاقت عليك كلّ الكلمات. دعني أبدأ باسمك إذاً. اسمك الذي ينطق بكل الأمانيّ التي أريد أنْ أضمّها برموش عينيّ. وهو الذي يُنشد بكل الأغاني التي يرقص لها قلبي. ولهذا أكتب رسالتي بشرابيني، وأنقّط حروفها برموشي، وأرتّب سطورها بأناملي، وأضمّ مقاطعها بشفتيّ، وأجفّف نزيفي الناضح في حبرها بنهديّ. رسالتي تستحم بي.

لا أجسر سيّدي أنْ ألقاك، ولا أقوى أنْ تكون رسالتي شفهيّة. أسألك أنْ تقبل ضعف ذاتي، فكلماتي التي أخطّها مرويّة بدموع العين. أحبّكَ! وقلبي نار تضطرم إعصاراً بين ضلوعي. وأيّ إعصار! فأنا أحبّك سواء تبسّمتّ لي، أو عاتبتني حين أكسر أنابيب الاختبار. حين تشرح ما فاتني من دروس، أو تنقص لي خمس علامات على تقرير شاغلني في الليل والنهار. أحبّك كيف كنتَ. أحبّك كيف أنت. وكيفما تكون.

إن تلبِّ نداء قلبي، فأنا خضراء العينين أناديك لأفرش لك شعري الطويل بساطاً بلون الشمس تحت قدميك. لك شفتاي الباسمتان. لك عمري. خذني بعد أنْ اختطفت قلبي، وسحبت روحي من جسدي الذي لا يلوي على رجل سواك.

أسْمعني 'أحبّكِ'، أو دعني أراها في عينيك.

♥

يا صاحبتي رسالتك عصرت فؤادي، وفتّتت ضلوعي، وأراقت دمع عينيّ. شعورك الجميل يملأ قلبي حياة، ويتعبني. وأنا يا صديقتي أؤمن بالرسائل الشفهيّة. لن أكتب لك. تعالي نشرب كأساً. صحيح أنّني أكتب على الأوراق شعري، لكنّ أعظم شعري ذلك الذي أنطقه دون تردد... بعفويّة. تعالي نشرب كأساً، ونتقاسم الأحزان. تعالي نشرب كأساً.

♥

وتجلسين أمامي. لا تقولي شيئاً... فأنا أعرف... أعرف كيف تشعرين. وأعلم أنك ستخسرين. امتحان صعب، وأنا أوّل الخاسرين! اتألم أكثر ممّا تتألمين يا صديقتي. لكنك ستخسرين. يا خضراء العينين، مأساتك مأساتي: أنت تحبينني أنا، وأنا أحبّ الآخرين! قساوة حياة.

كنت وحدي أعيش بلا أمل، وها أنت تتقمصين معيشتي. أعزّيك بشيء واحد: مهما خسرتِ فأنا أكبر الخاسرين. ماذا أفعل بها وهي العمر والحياة؟ هي القريبة البعيدة. ماذا أفعل بك، وأنا أرى صدق الشعور في أخضر عينيك؟ وأنت البعيدة القريبة... أنا القريب البعيد.

شكراً لك صديقتي: أضفت إلى مشاكلي مشكلة جديدة. شكراً لك: زادت قصائدي قصيدة.

الرُّبّان والريح

في ذكرى أرنست همنغواي

واسترسلت سفينتي في الإبحار،
وتخطّت مراكبي ألف إعصار.
ركبتُ الأمواج ليلاً،
ركبتها في النهار.
أقلعتُ من ألف ميناء،
ورسوت في ألف ميناء.
تخطّيت عرض البحار،
قطعت أشواطاً بعيدة،
وفي منتصف المحيط،
قالت لي الرياح
توقّف!
ما عاد السفر مباحاً،
أنت في عرض البحار،
لكن توقّف...
لا ينفعك ليل،
لا ينفعك نهار،
توقّف!
إن تبغ رجوعاً،
فلن تعود!
لكنك لن تمشي في عرض المحيط،
وإنْ تشأ فبُعدكَ القادم أعماق البحار.

إسترسل في دوّامة الأعماق،
واخترع في زواياها مئات الآفاق—
إنْ نجوت من بُعدٍ،
أمامك للغوص آلاف الأبعاد.
لا... لا...
لا تأخذ شراعاً،
لا تأخذ مركباً،
في الأعماق
أنت القربان!

The Green

في ذكرى أحد المطاعم قرب
الجامعة الأميركيّة في بيروت

يسمّونه "الأخضر"، وأكثر مافيه أخضر. نباتات مزركشة بأوراق خضراء. زركشات متعددة: أوراق مثقّبة، أوراق كالأصابع، أوراق عريضة، أوراق متطاولة. ويسمّونه "الأخضر".

بركة عربيّة الملامح، مرصّعة بأحجار طبيعيّة، تعانقها نباتات مصطفّة على رفوف دائريّة متدرّجة حولها. ينبجس الماء من نافورة صامدة شامخة، يتخلل من حوله الهواء مراقصاً ما اهتزّ من الأوراق والورود.

فوانيس تبثّ إليك شعوراً بالقرية، معلّقة في زوايا المكان، تترنّح كدلال العاشقات، كأنّها تترنّم على صوت الألحان الغربيّة المنطلقة من البار المرمي في أقصى أرض الحديقة، باهت الأضواء يؤدّي إلى صالة بلياردو، ويقدمون مع كلّ قدح بيرة وعاء مليئاً بفستق العبيد فحل الحجم. تمتزج الألحان مع نسائم بحر "عين المريسة"، ولدقائق، مع صوت أذانٍ من مسجد قريب.

يخرج الشباب من البار بأقداح البيرة الهولنديّة. الصبايا في انتظارهم على موائد من خشب. الكراسي سود الأطراف، كشعر حبيبتي اللبنانيّة، برتقاليّة الأجسام، كلون قميصها يوم بحت لها بفيض مشاعري. أراها في كلّ مقعد خال... ترمقني بعينيها الذهبيّتين.

أستحضر رؤيا لقاء سابق، ووجودها الآن معي، وأيّ حديث يدور. أراها تنظر في ساعتها فأعاتبها. تتآمرين مع الزمن، تعدّين الدقائق، تحسبين للوقت حساباً، تخافين فوات الأوان. تذكّري أنك

معي الآن! أنظري في عينيّ تَرَيْ عينيك الجميلتين، وشمّي ما أزفر، ففي تنفسي ذاب عطرك الفواح. إنْ تلثمي شفتيّ فإنّما تتذوقين السكّر في شفتيك، ولا تحاري أين يكون نهداك، واحد في كفّي وآخر بين أضلعي لن يضلّ سبيلاً. أنشري ذراعيك في أنحائي وأبطئي السير، وذوبي في المسافات طويلاً. سألفّ خصرك بذراعي الشارد، وأتركه ينقّب في مناجم سحرك. أتلمّس أناملك وأطرق برؤوس أصابعي على براجمك... أشدّ على يدك. هل بعد هذا تحسبين حساب الوقت وتخافين فوات الأوان؟ هل ستعدّين الثواني وتتآمرين مع الزمان؟ ألسنا في "الأخضر"؟

تتفرع إحدى الشجرات، وكأنها ترقص رقصة عربيّة، كـ"نجوى فؤاد" تتمايل بعناد، تتحدّى القلوب وتصرع الأجساد. وأمامي ثلاث شجيرات تميل إلى جهة واحدة، كراقصات "الباليه" يأتينك بالنّشوة مجتمعات.

تُقرع الكؤوس. ضحكات، وهمسات، وقبل مسروقة. تحمرّ وجوه الصبايا.

أرى صديقي "فيرما" الإفريقي على إحدى الطاولات. أمامه كلبه الأسود، وفي فمه غليون. يضحك كالمجنون، كما لو أنّه يتعمد إظهار بياض أسنانه.

أطلب الطبق اليومي— "كبّة لبنيّة". أشرب كأسي.

لايمكن أنْ أكون وحيداً هنا. كلّ من في "الأخضر" صديقي، حتّى القطط الملوّنة العابرة في طريقي. الدارسون والباحثون هنا اجتمعوا، وكلّ جاء من بلد، وكلّ يحمل جنسيّة. الحبّ والجمال و"الأخضر" جمّعهم على موائد سحريّة.

أشرب قهوتي.

كلّ الألوان هنا تستظل بأوراق خضر. الأخضر هنا منبت الأشياء. من سحر الشرق هنا أشياء، ومن رونق الغرب هنا أشياء. هنا المزيج الساحر، هنا حضارة الشاعر. هنا الجمال في العراقة: هنا غرناطة... هنا بيروت... وتنطلق الأنغام، وترقص الأشياء.

عندما تَضيعُ ألوانُ الغروب

لأوّل مرّة نمشي وحدنا في "شملان" عند الغروب. أمسك يدك لتنتابني قشعريرة لا ينافسك عليها سوى نسائم الجبل المعطّرة بما جمعته من مضاجعتها لأغصان الصنوبر. الخطوط الحمر، بقايا الشمس، تتبدّد بدلال وراء البحر الأبيض المتوسّط الذي غسّلته ذكريات فينيقيا بكلّ جلالها وفنونها.

يدك الناعمة تفلت من يدي ثم تعود، كأنّك تتلذذين بلعبة الهروب والعودة، كأنّك الشمس التي تغرب الآن وهي عارفة بشروق الغد. لونك الأسمر، قميصك الأرجوانيّ، والتنّورة البيضاء ضيّعت ألوان الغروب.

نتحدث عن الحبّ والإخلاص والوفاء، بكل براءة مراهق ومراهقة، لكنْ بكل كثافة الراشدين. نتحدث عن نفسينا، ما نحب في الأرض، وما نعشق في السماء. تؤشّرين إلى نجم ساطع، وأشير إلى آخر.

سألتك الكلام كثيراً حتّى أجبت دعائي. "أحبّكَ"... لأوّل مرة توثّقين مشاعرك بمخارج الألفاظ. تأكيدٌ مهمٌ لمتلهّف جادّ مثلي! أرى ملامح ابتسامة خجولة إلى جانبي. أوقفك، أمسك بوجهك الجميل ألاطفه، ولا أكتشف دمعة عينك إلا حين تقبّلها شفتي بلمسة امتنان ورضا.

ستائر الليل تلفّنا الآن ونحن نتابع المسير باتجاه "الصخرة"، ذلك المقهى الشهير بكراسيه وطاولاته البلديّة البسيطة، وبزوّاره الذين منهم وزير وأمير. أعلم أنّنا الليلة استثناء من القاعدة، لكنّك أميرتي.

"الصخرة" في الليل بقعة أضواء في أحراج الجبل. بقعة متواضعة في موقع مميّز. مثل لبنان تماماً. ننتقي طاولة صغيرة في ركن معزول. نجلس وجهاً لوجه، وتلتف الساق بالساق تحت الطاولة. نمسك بأيدينا فتصبح بقعة مميّزة تختصر الجغرافيا لأنّها مركز الكون، والتاريخ لأنّها تعيد جمع حواء وآدم، وفيهما الآن من الجينات ما صنعته الأحقاب بصبر الدهور، وتأنّي الفنانين، وكلّ المارقين في قلب العالم هذا مذ كان آشوريّاً، أو فينيقياً، أو سوريّاً، أو لبنانيّاً. بل نحن تتويج لهذا الاندماج الأزليّ على الرّغم من أنف من سيحاول التفريق بيننا بحجّة القشور الثقافيّة التي تغطي جسدينا: هو سوريّ وهي لبنانيّة، هو محمّديّ وهي مسيحيّة، هو عربيّ وهي أرمنيّة، أبوه موظّف وأبوها يوظّف الناس، أمّه ابنة كاتب وأمّها ابنة صاحب مصانع...

نعم نحن أبناء هذا المخاض الطويل العسير، ونحن مُنْتَج لا حيلة لنا في حالنا سوى ما نفهمه من هذا الإرث المشترك، وما نوظّفه من ثقافتنا في سبيل ديمومة العطاء الكونيّ الذي لا يتمّ سوى بالتواصل الفكريّ والجسديّ. نحن بكل بساطة: آدم وحواء، ويا مرحباً بالخطيئة الأصليّة.

هكذا كان الحديث وما تلاه بيني وبينك، مع التلذّذ بالمازة والفروج المشوي على الفحم، وما جادت به أرض كسارة من شراب. شعرت أنك وسادة قلبي فيك يبوح أسراره، وطمأنتك أنّه مذ رآك صار العشق جاره.

ننظر من هذا الارتفاع إلى بيروت التي انبسطت على الساحل وردة بحريّة، كما تغني فيروز. تتلألأ بأضواء تخطّ في عيوننا مشاهد حبور. إنّها المدينة اللعوب التي تخطف القلوب، وكأنّها ولّادة بنت المستكفي التي كانت تمشي دلالاً، وعلى حاشية ثوبها أبيات شعر تعلن عن منح القبل لمن يشتهي. أغلب الظنّ أنّ خطاب ولّادة كان موجّهاً لنخبة تقدّر الأدب والجمال. هل ستُقَدّر النخب المحيطة ببيروت ماهيّة الدعوة، أم أنّها ستسارع إلى

الاغتصاب لمجرد أنْ ظهرت المفاتن؟ ما كان لنا معرفة الإجابة عن هذا السؤال حين التقينا على صخرة شملان ذات مساء في أوائل السبعينيات.

لكنّني الآن أعرف الجواب من دونك. أنا في القرن الواحد والعشرين، وأنت غادرت القرن العشرين عائدة إلى قرون حواء الأولى، في تلك الرحلة التي يتخلى الزمن فيها عن مسيرة أولئك الذين يقيسونه. توقّف الزمن حين استقرت في رأسك رصاصة قنّاص من أولئك الذين تفننوا في إذكاء الحرب الأهليّة. لم يكن غريمك من عرق مختلف، ولا من دين مختلف، بل واحد من الذين يطلقون الرصاص على مركز الفطنة. ثقافة الاستبداد، وكتم الأصوات، وإلغاء الآخرين.

لكنّ بعضاً منك يستمر في تلك الثمرة التي فاض بها حبنا، تماماً كما استمر بعضٌ من جدتنا الأولى فيك. هل تشهد أجزاؤك التي فيه هذا الخراب الذي وصلنا إليه؟ هل تراني؟ وهل تسمع حزني وأنيني؟ هل تفهم معنى بكائي على بيروت؟

أراك الآن تستندين إليّ ونحن نغادر "الصخرة" عائدين إلى السيّارة التي أوقفناها على مسافة تمكّننا من الاستمتاع بمشوار عشرين دقيقة. أطوّق خصرك بذراعي وتطوّقين خصري. نتوقف ونتعانق ونتبادل القبلات مرّات ومرّات. أرى عينيك تتلألآن تحت ضوء القمر الذي اقترب من تمامه، وأسبغ على الأمسية بهجة لامست ذؤابات الصنوبر، وترقرقت فوق سطح البحر.

أسمعك تقولين: 'أنا لك على طول.' أعلم أنّك تذكّرينني بأغنية أحبّها لعبد الحليم حافظ. نغنيها معاً بصوت خفيض، يحترم رهبة الليل. ترددين شطراً فأجيبك بالبقيّة.

في طريق عودتنا إلى الحبيبة بيروت، أطلب إليك أنْ تغني 'نحنا والقمر جيران،' لحبيبتنا فيروز. تصدحين.

تتوقفين فجأة عن الغناء لتسأليني: 'ترى يوم كهذا هل يعود؟'

عَوْدَةُ الغَد

قصائدي إليك عارية عن القوافي، عارية عن الأوزان، لكنّي أكتبها كلّ يوم وأكسيها بالحبّ، وأضع في أذنيها قرطين من الشوق اللعوب، وعلى جيدها قلادة من الوجد المحتدم.

قصائدي إليك لا أختمها بإمضائي، كفارس يتوّج مجده بعِزّة ومضاء. ليتك تدركين بأنّ ما تخطّه القلوب ليس بحاجة لإمضاء، فأنا إنْ أكتب القصائد من أجل عينيك، أصدق مشاعري هي إمضائي!

قصائدي إليك مرآة ذاتك، فما أجمل العمر إذا بزغ من عينيك قصيدة. لا تقطفيني من عينيك، وأنا الذي أزهرتُ هناك لسكوب الندى. هناك أثمرت مواسم آهاتي أغنيات ورؤى.

لا تنزعيني عن شفتيك! هناك رشفتُ قطراً، وللشام غنّيت كالفجر والإشراق والغروب. وهي التي أنبتت لي عنبراً ونرجساً وتلك الخدود. تعالي معاً نقبّل أرضها التليدة، وفيها الصبايا ينبتن كسنابل القمح، يا سنبلتي التي يحلو لأصابعي تمشيطها مراراً وتكراراً.

تنظرين إلي، وفي عينيك دعاء ورجاء. لكنْ كيف لعينيّ ترسلان الحبّ شعاعاً، وضياءُ عينيك يذيب النور كلّه؟ تمدّين يدك، وفي كفّها همس ونداء، لكنْ كيف ليدي أنْ ترسل الحبّ خفقاناً، ونبع الحنان دافق من بين أصابعك؟ أنتِ دمشقي، ياسميني، زهر ليموني، الخضرة والماء، وكلّ ما دوّن نزار في قاموس العشق، بل جعلتك السماء. يا أنت! هل أنت كلّ الأشياء؟

أتحبينني؟ أمن أجلي تكحلين الجفون، فتتمادى الخطوط الزرقاء فنوناً، وهل سكبت صفاء عينيك من جبال

"الفيجة"، أم شربت من نبعها الذي يروي دمشق؟ وهل صبغت شفتيك من شقائق نعمانها أم من وردها الجوريّ؟ وهل سكبت الليل في شعرك من تلك النقوش على زهر الفول؟ أم هل هذا الحرير من أمسيات نيسان؟

إن تسأليني كم أحبّكِ، لا أعرف جوابي متى سيكون! أحار كيف أختصر الحبّ بضع كلمات. لكنْ أقول إذا امتدّ الكون لنا طريقاً طويلة، يزين الصفصاف جانبيها يرافقنا المسيرة، ولو نقشتُ اسمك على كلّ صفصافة ومضينا نتجرّع العمر، لمضى العمر وانتهى شريط الكون، وأنا لازلت على جذع شجرتنا الأولى لأقول بالنقش العتيق نفسه: أحبّك! ولألفظ اسمك بالشوق القديم نفسه.

اليوم ميلادك، وفي يوم ميلادك ولدت أنا. يوم رأيت الهناء في عينيك، وصارت شفتاك تزرعان السرور لآلئ بدربنا. أمّا ظلال شعرك فهي التي صارت ألف ليل في الهوى ضمّنا. هل رأيتِ أنّ الفَراش أتى يداعب خدّنا، ملامساً لاثماً عابثاً؟ يسرق أساليبنا؟ وأنّ الربيع سيأتي كلّ عام أربع مرّات لنا وحدنا؟ آه لما تفعلين بطعم الهوى! جودي يا ابنة الياسمين، الجود أحلى خصائل حبنا.

عاد ميلادك اليوم! ورأيت فيك أنّنا الغد: كلّ يوم يعود.

دمشق 1976/05/11

لمحة عن المؤلف

رغيد النحّاس متخرّج من الجامعة الأميركيّة في بيروت بدرجة ماجستير في علوم البحار، ومن جامعة هال في بريطانيا بدرجة الدكتوراه.

عمل في مجال التدريس، والبحث العلميّ، والاستشارات البيئيّة، في بريطانيا، ولبنان، وسوريا، وأستراليا، ولدى برنامج الأمم المتّحدة للبيئة لحماية البحر المتوسّط. يعمل حالياً لدى

المؤلّف بعدسة نجاة نظام-النحّاس

دائرة الخدمات الإنسانيّة الفيدراليّة بدوام جزئي، وله عمله الخاص في المراجعة والتقييم والترجمة والنشر.

اهتمّ بالأدب والفلسفة منذ الصغر، فنشر في مجلاّت المدرسة والجامعة، وساهم في تحرير عدد من المنشورات. نشر وترأّس تحرير مجلة "كلمات" المحكّمة في أستراليا بين 2000 و2006، فكانت الحصيلة 24 عدداً معظمها بالإنكليزيّة وبعضها بالعربيّة.

له ترجمات أدبيّة عديدة منشورة، بما في ذلك كتاب ترجمات شعريّة أستراليّة إلى العربيّة، وأربعة دواوين شعريّة وكتاب نثريّ من العربيّة إلى الإنكليزيّة.

ترأّس وشارك في عدد من الجمعيّات والمجالس العلميّة والثقافيّة، وهو عضو في اتحاد الكتاب الأستراليّين، واتحاد كتاب نيو ساوث ويلز، وجمعيّة PEN العالميّة، والسلطة الأستراليّة الوطنيّة للمترجمين المجازين. نظّم وشارك في عدد من المؤتمرات العلميّة المحليّة والعالميّة، والندوات الفكريّة.

حاز النحّاس على ميداليّة "يوم أستراليا" عام 2003، تكريماً لجهوده في إغناء المجتمع الأستراليّ بإصداره "كلمات"، وتعزيز التواصل الثقافيّ بين الحضارات. كما كرّمته رابطة إحياء التراث العربيّ في أستراليا بمنحه "جائزة جبران العالميّة" لعام 2005. وكرّمه المجلس الأستراليّ العربيّ، في السنة نفسها، بمنحه عضويّة فخريّة مدى الحياة.

أمّا الكاتبة المعروفة، رئيسة اتحاد الكتّاب حاليّاً، السيّدة صوفي ماسون، فقد رشّحته كواحد من أهمّ مائة مفكر في أستراليا في استفتاء أجرته صحيفة "سيدني مورنينغ هيرالد" المرموقة، ونشرت النتيجة يوم 2005/03/12. وسبق للسيّدة ماسون أنْ أجرت مع النحّاس مقابلة نشرتها في الصحيفة نفسها في عدد 17-2004/01/18، حملت عنوان "حين تنطق الكتابة الجيّدة بلسانين" ركّزت فيها على أهمّيّة إسهامات النحّاس من خلال مجلة "كلمات" بالعربيّة والإنكليزيّة.

في هذا الكتاب

*الكلمة باب الإرث الحضاريّ، والكتابة مفتاح ديمومته
*العرب بحاجة لمرشد أكبر للجمهوريّة العلمانيّة
*مأساة الشيوعيّة كانت مضاعفة، لأنّها كانت عقيدة دون إله
*الدستور هو الكتاب المقدّس الوحيد في مكتبة الدولة
*لا يمكن أنْ توجد في المجتمع الديمقراطيّ طريقة صحيحة واحدة. ولهذا تكون إدارة المجتمع الديمقراطيّ علمانيّة بالضرورة
*نسهى عن أنّنا نتساكن جميعاً في منزل صغير جداً يسمّى كوكب الأرض، ونشترك جميعاً في زمن متناه في القصر
*الدهاء الثقافيّ يعني البراعة الإيجابيّة في التعامل، وليس البراعة السلبيّة المتمثلة في الدهاء السياسيّ
*التماثل يقضي على مبادرة الأفراد والجماعات، بينما التناغم يفيد من هذه المبادرات المختلفة باستغلاله لجوانبها الخلّاقة
*العولمة ليست ذات بداية أو نهاية
*حتّى تُصان الحرّيّة لا بدّ من تعلّم فنّ صونها
*رغم النجاحات الباهرة لعدد لا يستهان به من اللبنانيّين في أستراليا، لا يوجد لهذه الجالية وزن حقيقيّ يعادل الوزن الذي أحرزه بعض أفرادها
*هنالك رحلات يتخلّى الزمن فيها عن مسيرة أولئك الذين يقيسونه
*لم يكن غريمك من عرق مختلف، ولا من دين مختلف، بل واحد من الذين يطلقون الرصاص على مركز الفطنة
*إنْ تلثمي شفتيّ فإنّما تتذوقين السكّر في شفتيك
*وما همّني إنْ كحلّت الجفون، فليكن كلّ شيء كيف يكون. كلّ شيء أنتِ فيه، أنتِ أجمل!
*نحن بكلّ بساطة: آدم وحوّاء، ويا مرحباً بالخطيئة الأصليّة!

Long Talk 307
The First Dance 309
She and I… and She 310
The Skipper & the Wind 312
"The Green" 314
When the Colours of Sunset Are Lost 316
The Return of Tomorrow 319

About the Author 321
Excerpts 323
English Overview 328
Contents (in Arabic) 11

One Hundred and One Years: My Story with Youssuf Samara	167
The Blanket	173
Adieu Noel	176
Abdulmuin al-Malouhi and the Defense of the West	179
Ah… Abu Ziad!	186
The Perpetual Tango	191
The Moon, a Song for Ever	197
Every Fallen Fruit Has a Taker	201
Flemington Market	204
The Swing	208
Arabistani Conversation	213
As per Contract	217
Satellite TV: Less Loneliness, More Isolation	219
I Lament thee Lawrence!	222
Police Contrasts	227
Fiscal Contrasts	232
A Civil Status Record	234
Flying	236
A Short Dawn	244
Night Stars	249
Jeddo (Grandpa)	258
Damascene Mulberry	265
Mr. Khalil	275
Oh, Woman!	278
One O'clock Lunch Time	280
The Sea, Beirut and the Mountain	289
The Distant Neighbour	296
Sunset Talk	298
You & I	299
Transparent Eyes	301
Yellow Butterfly	302
Playing with Butterflies	304

Continued on page 324

Contents

Between Water & Fire	7
The Lady of the Lake	15
Possible, Oh Saffiyah!	17
Egypt… My Mother!	23
Bhutto's Assassination: One World	26
The Australian Prime Minister, Patriotism & the Love of USA	30
The Australian Elections: The Fifty Percent Democracy	36
Power Transfer in Australia: Environment, Culture & Ethics	45
Australian Democracy, Beyond the Ballot Paper	50
Political Correctness is not a Constitution Item	54
The Cultural Government	59
"The Westernised Educated Gentleman" & the Globalisation of Democracy	62
The Forgotten Sword	67
Political Correctness & Human Hypocrisy	76
The Democracy of the Oppressed	86
Antony Loewenstein and "My Israel Question"	91
Colocynth in the Rose Garden	97
The Chaos of the Senses… and the Order of Other Things	106
An Institute for Cultural Intelligence	119
A Lunch with Lewis Scott	129
Noah in Australia	135
The Concept of Environmental Ethics: A Requirement	140
In Gibran's Hand	150
Inventions for Joy	159
Inspiration, not Simply Competition	164

Continued on page 325

Most of the present texts had already been published in several journals and newspapers, including al-Adaab (Beirut), an-Nahar (Beirut), al-Irfan (Sidon), as-Sununu (Homs), and other publications in Sydney such as el-Telegraph, an-Nahar, al-Anwar, al-Minbar, Kalimat and some internet sites. I thank the editors of these publications for their support. I am grateful to my sister Raghda Nahas-Elzein for her editorial advice and to Associate Professor Ahmad Shboul A.M., for his comments.

Most people agree that life is a combination of the sweet and the bitter, fire and water. As I put this book together, nestled in the luxury of our safe abode in Sydney, I follow up the news of the Arab chaos. I caress the ***dew***-bathed flowers of our garden and simultaneously see the ***sparks*** of explosions in Syria.

Raghid Nahhas

Sydney, Australia, December 2012

Raghid Nahhas worked for about twenty-five years in environmental sciences, researching, lecturing and consulting, in Syria, Lebanon, England, Australia and for the United Nations' Environment Programme.

He has always maintained an interest in writing, and in Australia he published and edited *Kalimat*, a journal of creative writing from 2000 to 2006.

More information about him can be obtained from The Australian Society of Authors' Website.

This Book

Tallon wa Sharar (Dew and Sparks) is the title of this book that contains a collection of my writings, in Arabic, over a long period of time. These writings deal with different subject matter, including social, political, love, personal and humane. However, every article carries all these aspects together with varying degrees. I know it is unusual for one book to combine this diversity, but I believe in an integrative approach to life. This is why this collection includes articles, stories, essays and creative prose.

Some of these writings are real stories, and others are imaginary, but even the latter are a reflection of my own human experience, based on factual elements, whether in relation to characters, events or places. They aim at delivering a message, or revealing a general reality. My major concern, in my articles about Australian democracy, is their human and social implications.

I consider this book a collection of a very few glimpses of my intellectual biography. For example, I wrote most of the articles about Lebanon between 1970 and 1975, when I was at the American University of Beirut. I was, like other Damascenes, fond of Beirut. If Damascus was to us the mother or the wife, Beirut was the lover with her freedom, culture and beauty. This does not mean she surpassed Damascus; rather she had the ability to communicate easily, and exchange uninhibited love.

Continued page 327

أتممت قراءة نسخة كتابك "طل وشرر" بكثير من المتعة الذهنية والروحية.

القطع المستوحاة من أجواء دمشق ومن أيام الدراسة في بيروت ولندن أثارت شجوني فعلاً.

النفحة الإنسانية واضحة في كل المجموعة. وكذلك الروح النقدية على المستويين السياسي والاجتماعي، وعلى الصعيد الفكري.

حكايات الرحلة والسفر تحوي الكثير من الصور الواقعية الغنية بالمفارقات الطريفة التي تبين الفرق بين أوضاع العالم العربي وما نجده ونتمتع به في المجتمعات الغربية على مستوى الاهتمام بكرامة الإنسان واحترام المواعيد والصدق والصراحة، ومستوى الخدمات العامة المتوفرة للجميع دون تمييز، والخدمات المعنية بذوي الاحتياجات الخاصة كالأطفال والنساء الحوامل والمرضى والمسنين...

أسلوبك فنّي مباشر وصريح، ونابع من القلب والعقل، بلغة جميلة سلسة تحاور القاريء الذكي. يعني أسلوب دمشقي عريق، ولكنه أسلوبك أنت.

كتابك يعطي القراء صوراً ولوحات حيّة ممتعة وطريفة من تجارب الحياة. أظن الكتاب سيثير ردود فعل واستجابات متنوعة لدى القراء بحسب خلفياتهم وتجاربهم ونظرتهم للحياة.

كتاب حافل فعلاً، جدير بأن يفتح للقرّاء آفاقاً رحبة.

الأستاذ الدكتور أحمد شبول، جامعة سيدني